

التصوف في مصر

أبان العصر العثماني

تأليف

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر: مكتبة القادى بالجمايزة ٤٢٧٧٧

التصوف في مصر

أبان العصر العثماني

تأليف

الدكتور نوفيس الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر: مكتبة الآداب بالجماهير ٤٢٧٧٧

فهرس الكتاب *

- صفحة
- ١٦ - ٦ مقدمة الكتاب
- ٣٢ - ١٧ مقدمة تاريخية عن : العصر العثماني في مصر
عصر السلاطين ١٧ - تطلع العثمانيين لامتلاك مصر ١٨ - مصر في عهدهم :
حالتها السياسية ١٩ - حالتها الاقتصادية ٢٠ حالتها الاجتماعية ٢٢ -
حالتها العلمية ٢٣ - تطور أحوالها في القرن الثامن عشر (في السياسة
والعلم) ٢٩
- ١٠٣ - ٣٣ الكتاب الأول : في الطريق
- ٣٥ تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده
- الفصل الأول
- ٥١ - ٣٦ أظهر معالم التصوف في مصر قبل العصر العثماني
التصوف قبل العصر العثماني ٣٦ - أنواع المبادئ في مصر ٣٨ - الحياة في
رحاب الخوانق والربط والزوايا في مصر ٣٩ - نشأة التصوف في مصر
وتطوره حتى مطلع العصر العثماني ٤٣ - بعض مظاهر نفوذهم قبل العصر
العثماني ٤٧
- الفصل الثاني
- ٧٠ - ٥٢ أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني
تمهيد في اتصال المصريين (المملوكي والعثماني) ٥٢ - حقيقة التصوف في
العصر العثماني ٥٤ - احصائية بأسم الزوايا ٥٧ - العبادات في رحاب
الزوايا ٦٠ - الذكر ٦١ - سندهم في ذكر الله ٦٢ - قيمة الذكر
في عرفهم ٦٢ - طريقة الذكر ٦٣ - آداب الذكر ٦٦ - ثمرات
الذكر ٦٧ - الخلوة ٦٧ - التزامات الخلوة ٦٨ - ثمرات الخلوة ٦٩ -
أركان الطريق ٦٩
- ٨٩ - ٧١ الفصل الثالث : في الطرق الصوفية
نشأة الطرق الصوفية ٧١ - حال الطرق في وقتنا الحاضر ٧٣ - احصائية
بالطرق أيام العثمانيين ٧٥ - مميزات الطرق ٧٩ - ثلاثى الفروق بين
الطوائف ٨٧

* العناوانات هنا أصح منها مسجلة في صدر الفصول

الفصل الرابع

مشيخنة مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية

تمديد ٩٠ — رأى جرجى زيدان في نشأتها ومناقشة مزاعمه ٩١ — رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه ٩٤ — نشأة هذا القرب في مصر قبل العصر العثماني ٩٧ — تلاشى القرب في العصر العثماني ٩١

الكتاب الثاني

١٩٩—١٠٥ نفوذ شيوخ الطرق أحياء وأمواتا
(تمديد في ربط الكتاب الثاني بما قبله وما بعده)
— ١٧٠

الفصل الأول

١٤٠—١٠٨ نفوذ شيوخ الطريق — ١ — أحياء
بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان ١٠٨ — تحررم من عرف البلاد ودينها
١٠٩ — مفارقات العصر ١١٤ تحررم من نظم الدولة ودواينها ١١٧ —
تحررم على العرف السائد عند أرباب الطريق ١٢١

١٤٠—١٢٤ بعض مظاهر نفوذهم
دنيا الصوفية الروحية وحكامها ١٢٤ — تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق
نفوذ ١٢٥ القطبانية ونفوذ أهلها في مصر ١٢٨ — آفاق نفوذهم في
مناطقهم ١٣٠ — بعض آيات نفوذهم عند اللريدين ١٣٤ — وعند الحكام ١٣٥

١٤٩—١٤١ ٢ — نفوذهم أمواتاً
جلال الموت ١٤١ — الأميون من مدعى الولاية ١٤١ — الطاء من مدعى
الولاية ١٤٣ — نظرتهم إلى من أخذ العهد على موتى الأولياء ١٤٤ —
العوائف التي سلكت الطريق على موتى الأولياء ١٤٦

١٦٢—١٥٠ أسباب انتشار التصوف
صلاحية مصر لانتشاره ١٥٠ — الترف في مبيشة آرباب الطريق ١٥٤
سقوط التكاليف الدينية عن مدعى الولاية ١٥٥ — حالة مصر تحت الحكم
العثماني ١٥٨ — حب الأتراك للدروشة ١٦٢

الفصل الثاني

١٩٩—١٦٣ الإنكار على أرباب الطريق
تمديد ١٦٣ — حملات الناس ١٦٦ — موقف المنكرين من الجنود

صحيفة

والحكام ١٦٨ — الحقد في صدور الفقهاء ١٦٩ — بعض مظاهر المقاومة
العملية ١٦٩ — التناسب الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق ١٧١
بعض مظاهر الحقد النظرية ١٧٥ — تصوف الفقهاء الذين اتصروا لمشايخ
الطرق ١٧٩ — بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف ١٨٠ — موقف
المتصوفة من الفقهاء ١٨٢ — استمرار النزاع إلى اليوم ١٨٤ — سمات
أرباب الطريق (على أخوانهم في الطريق) ١٨٤ — بعض مظاهر المقاومة
العملية ١٨٦ — بعض مظاهر المقاومة النظرية ١٨٨

٣ — أسباب الإنكار على أرباب الطريق ١٩٠—١٩٩

أسباب الإنكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق ١٩٠ — أسباب النزاع
عند الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر ١٩١ — اباحة التأويل
لأهل الله ١٩٢ — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله ١٩٥ — التنافس من
أجل الدنيا ١٩٩

فصل ختامي هن :

أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ٢٠٠—٢٢٨

تمهيد ٢٠٠ — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين ٢٣٠ — المجاورون ٢٠٣
الأنبياء والمحبون ٢٠٥ — أثر تماليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر
العثماني وما بعده ٢٠٨ — موقف الاسلام من هذا التوجيه ٢١٧ الاسلام
والحياة العملية عند أهله ٢١٧ — الاسلام والحياة العقلية عند أهله ٢٢٠ —
الاسلام والحياة العملية عند أهله ٢٢٤

مقدمة الكتاب

يقولون إن غاية التفكير الاهتداء إلى الحقيقة ، وأن الجهل بالحقائق يؤدي بالإنسان إلى متابعة النظر ومواصلة التفكير أملاً في الاهتداء إلى حقيقة الحقيقة ، وأن ذلك ينتهي بصاحبه إلى أن ينقض في يومه ما اهتدى إليه في أمسه ، ويشور في غده على ما استقر عليه في يومه ، وبذلك جعلوا التفكير عملاً يقوم به الإنسان ليحقق غاية وضعها لنفسه ووطن العزم على بلوغها ، وقد يكون هذا صحيحاً في بعض حالاته ، ولكن الأصح كذلك أن يقال إننا نفكر منساقين بطبيعتنا إلى التفكير ، وبذلك يكون التفكير غاية في نفسه — إن صح هذا التعبير — فلسنا نفكر لأننا نريد أن نفكر ، أو لأننا نريد الاهتداء بالتفكير إلى حقيقة مجهولة ، ولكننا نفكر — لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، كما نرى لأن الرؤية وظيفة طبيعية للنظر ، والإنسان لا يرى الأشياء ليكشف عن رؤيتها يوماً من الأيام ، ومتى كان سليم النظر دقيق الحس آثر العودة إلى رؤية الجليل منها وإطالة النظر إليه ، والاستمتاع به ، وهو لا يمل إدمان النظر إلى الشيء الجليل إلا إذا أصاب عينه كلل أو أدرك حسه نقص ، فالفنان الذي أوتي دقة الحس يرى مناظر الطبيعة فيعجب بها ويستمتع بجمالها ، وكلما أطال النظر إليها ازداد شغفاً بها وحباً لها وإقبالاً عليها ، وقد يحس في لحظة من لحظاته أنه قد أخذ من الطبيعة زاده واستوفى حاجته ، فيفر منها ويهرب من النظر إليها ، ولكنه سرعان ما يطلب العودة إليها والاستمتاع بجمالها ، وكذلك حال التفكير عند الإنسان من بعض الوجوه ، هو وظيفة طبيعية للعقل ، ولهذا فنحن لا نفكر لكي نتوقف عن التفكير في الموضوع الذي فكرنا فيه وننصرف إلى غيره يوماً من الأيام ، ومتى كان العقل سليماً وموضوع التفكير ملائماً له ، أحس الإنسان بالحنين إلى إدمان التفكير فيه وإطالة النظر إليه ، وقد يشعر في

لحظة من لحظاته بأنه أخذ حاجته العقلية من موضوعه واستوفى منه زاده ،
فيهرب منه إلى موضوع آخر وينصرف إليه تفكيره ، ولكنه سرعان ما يحس
بالخنين إلى العودة للتفكير في موضوعه الأول ، فيأدر إليه ويتولاه بالنظر
حتى يهتدى إلى نقض ما رضى به من قبل ، أو تدعيمة على أسس جديدة .
ومن هنا انقضت حياة الكثيرين من المفكرين في تأييد فكرة أو شرح
مذهب أو نقض رأى . . . وكثرت مؤلفاتهم يؤيد بعضها بعضا أو ينقض
آخرها ما جاء في أولها .. تلك طبيعة العقل البشرى في أداء وظيفته .

ومن هنا كان موقف الباحث من بحثه شبيها بموقف القاضي عبد الرحيم
البيساني للعماد الكاتب الأصبهاني في اعتذاره عن كلام استدركه عليه إذ قال :
« إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا ، وهأنا أخبرك به ، وذلك أني
رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده :

لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا
لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل
على استيلاء النقص على جملة البشر (١) .

ولعله ، فوق ذلك دليل على ما أسلفت الآن شرحه حين قلت إن العقل
ينساق إلى التفكير بطبيعته ، وأن مواصلة النظر في الموضوعات التي تلائمها تحلو
له وتلد كثيرا ، وأن من شأن هذا أن يكشف لصاحبه عن آفاق كان يجهلها
ويقتهى به إلى الندم على ما كتب . . . ١١ .

على أني وضعت هذا البحث منذ ثمان سنوات ، وترددت من أجل هذا في نشره
طوال هذه الفترة ، ولكن الإنسان لا يفكر لنفسه ، أو هو لا يقنع إذا ارتاد
بجهولا وكشف غامضا إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفر به واهتدى إليه ، ومن
هنا كان حرصى على نشر هذا البحث بعد انقضاء هذه الأعوام الطويلة على
وضعه . . . وقد حرصت عند نشره على الإبقاء على أسلوبه وروحه على قدر
الاستطاعة ، وإن كنت قد اضطررت إلى حذف جملة من فصوله ووردت

(١) الزبيدي : تحافى السادة المتقين ج ١ ص ٢

خلاصتها في كتابي عن « الشعراي إمام التصوف في عصره ، إذ كان الشعراي روح العصر العثماني وعملاقه علما وتصوفا ، فأثر في توجيه آرائه ، وتحديد تياراته وطبع العصر كله بطابعه ، وقد آثرت ألا أكرر هنا ما ذكرته في كتابي عنه ، وإن كان موضوع هذا الكتاب أعم وأشمل (١) ..

قلت إن الباحث لا يفتأ يعيد النظر فيما يكتب، ويتناوله بالتعديل والحذف والإضافة ، وأنه قد يندم على كل ما كتب .. وإذا صح هذا في كل بحث عقلي فهو أصح ما يكون في بحث مثل هذا البحث الذي يعرض لموضوع بكر لم تطرقه أقلام الباحثين من قبل ، لأن التصوف الإسلامي لم يخضع للبحث العقلي إلا منذ أمد قصير ، وتكاد عناية المستشرقين والشرقيين به ، أن تكون مقصورة على مراحل الزاهرة ، حين تحول إلى نوع من التفلسف والنظر العقلي تجاوز بأهله مجرد العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وهي المظاهر الأولى للتصوف الإسلامي فيما يقول ابن خلدون ، وإذن فقد غنى الباحثون بالتصوف حين أصبح التفلسف — لا الإيمان — طريقا إلى الله ، وعندما انصرف أهله إلى مذاهب في المعرفة والوجود ونحوهما ، فلما عاد التصوف سيرته الأولى ، وأصبح في عصره المتأخر — كما كان في عصره الأول — عمليا لا نظريا ، انصرف عنه أهل البحث وأهملوا دراسته .

والملاحظ أن التصوف في هذا الدور الأخير قد دخله الدجل وتحول من ظاهرة نفسية فردية ، إلى ظاهرة اجتماعية يشارك فيها جمهرة الناس ، ومن هنا

(١) كان لصوفية العصر العثماني نظرات وآراء في مختلف نواحي الحياة : العلمية والعقلية والسياسية والخلقية والعملية ، وقد كتبنا عن كل منها فصلا مسببا مزودا بفيض من النصوص ثم لاحظنا أن خلاصة هذه الفصول قد وردت موجزة في كتابنا عن الشعراي فحذفناها من كتابنا عن التصوف وهذا إلى جانب فصول أخرى يلحظها قارئ السكتاين ، ومن هنا كان كتابنا عن الشعراي ضروريا لقارئ هذا الكتاب .

كان خطره في حياتهم وتأثيره في شتى مرافقها ، ويبدو هذا الدور في أكمال صورته وأوضحها ، في تصوف مصر أيام العثمانيين ، وهذا هو موضوع الكتاب الذي نحن الآن بصدده ، وقد كانت لفظة طيبة موفقة من أستاذنا محمد شفيق بك غربال أن يشير بدراسة هذا الموضوع ، في العصر المظلم الذي لم يدرس بعد ، وأن يتابع اهتمامه بخطوات البحث ويحرص إبانته على تزويدى بالقيم من ملاحظاته .

وقد شجعتنى على هذه الدراسة كثرة المصادر التي وضعت في هذا العصر ، والكثير منها ينطوى على مادة طيبة وهي خير زاد للباحث الذي يريد أن يرتاد آفاق هذا الموضوع البكر المظلم ويميل إلى الضرب في ميادينه والسير في مسالكه الوعرة ، وهذه المصادر - من المخطوطات خاصة - ما زالت بكرالم تعبث بها يد ولم يتجه اليها نظر ، وفي هذا ما يغرى بمتابعة التفكير ومواصلة النظر . وقد ظننت بعد دراستى لهذا الموضوع أنى وفقت في الاهتداء إلى كنوز كانت تنطوى عليها هذه الآفاق المجهولة التي كنت أرتادها ، والإنسان - كما قلت من قبل - لا يقنع إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفربه واهتدى اليه ، ومن هنا كانت رغبتي في نشر هذا الكتاب ، وإن طال الأمد على تحقيق هذه الرغبة . واشد ما رضيت عن هذا الموضوع بعد أن تكشفت لي الكثير من آفائه المظلمة فقد عرفت « فجأة » - وعلى غير إنذار سابق ، أنه يساهم في تحقيق أمل كنت شديد الحنين إلى تحقيقه منذ زمن طويل ، وقد اتجهت هذه المفاجأة بالموضوع - وأنا في منتصف الطريق - اتجاها لم يطف بخاطري من قبل ، وقبل البدء في بيان ذلك ، يحسن بي أن أبرر وقوع « المفاجآت » في البحث العلمى ، وضرورة الاغتياب بها متى وقعت :

يقتضى منهج البحث العلمى أن يبدأ الباحث موضوعه وهو على جهل به ، فإن لم تنهياً له هذا الجهل وجب أن يصطنعه فيتجاهل موضوعه ، ويحاول أن ينسى كل ما يعرفه بشأنه ، فلا يضع في مستهل دراسته رأياً ويعمل طوال بحثه على تأييده أو نقضه ، فإن ذلك من شأنه أن يلفت الباحث لكل ما يؤيد

وجهة نظره ، ويعميه عن كل ما ينقضها ، ويبعث في عقله الشك في أمرها ... وقد كان هذا منهجى في بحث هذا الموضوع ... جعلت غاية البحث هي البحث نفسه ، أو هي معرفة المجهول من آفاق الموضوع والقناعة بهذه المعرفة ، وذلك متفق مع ما أسلفته في مستهل المقدمة حين قلت إنا نفكر لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، وأن الذى يفكر لأنه يريد تأييد حقيقة أو نقضها إنما يتكلف ما يفسد بحثه ويصطنع ما يشوه تفكيره ، ومضيت في بحثى على هذا الأساس ، فإذا بالنور الذى انبثق في آفاق الموضوع من وراء هذه الدراسة المتواضعة يهدينى إلى اتجاهات لم تكن في خاطرى يوم بدأت الدراسة ، وكان أعظمها خطرا هذا الاتجاه الذى وجه البحث إلى هذه الوجهة الجديدة التى تناولها الآن بشيء من الإيضاح :

حاول بعض علماء الاجتماع أن يفلسفوا ، التاريخ ، وأن يقدموا للمؤرخين تفسيرا جديدا لظواهره قائما على أحدث النظريات التى اهتدى اليها المحدثون من علماء النفس وغيرهم ، وأثارت محاولتهم ضجة كبيرة عند قرائهم ، وهيات للنقاد منهم سبيل الهجوم على اتجاههم في تفسير التاريخ ، ولكنها كانت محاولة ممتدة شائقة فوق أنها كانت خطوة لها خطرها العظيم في تطور التاريخ عند أهله .

وكنت كلما طافت بخاطرى هذه المحاولة قلت إن مصر أحوج بلاد الأرض إلى هذا النوع من التاريخ ، إن تاريخها إلى اليوم قائم في الجملة على تاريخ ملوكها وحكامها ، أما شعبها فليس له حساب عند أكثر المؤرخين - حتى العدول منهم - والمؤرخ الذى يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهمها على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل مامر بأهلها من حركات دينية وحضارة إسلامية ، فإن المصرى منذ عهد الفراعنة الأقدمين رجل شديد التدين ، وآثاره التى لا تزال قائمة إلى يومنا الجاضر تشهد بصحة ما نقول ، وتحول المصريين من الوثنية إلى المسيحية ومن المسيحية إلى الإسلام

لا ينقض ما نقول ، وليس هنا مجال الحديث عن أسبابه ، وإنما الذى يعنيننا الآن أن نقوله ، هو أن الأفكار التى تفشو عند مثل هذا الشعب متصله بالدين تتحول عنده إلى عقائد ، والعقيدة كما يقول المحدثون من علماء النفس - من شأنها أن تستبد بهوى أصحابها وتحملهم على جناحها وتوجههم فى تيارها ، ولهذا كانت كل محاولة يراد بها تفسير الحياة المصرية على غير فهم واضح لآثر الحركات الدينية فى نفوس المصريين ، إنما هى محاولة باطلة لا طائل تحتها ولا تقع من ورائها ...

ومن هنا كان اغتباطى الشديد بالمفاجأة التى عرضت لى أثناء بحثى لهذا الموضوع ، لأنها أوحى لى بأن البحث محاولة للساهمة فى تحقيق الأمل الذى احتل خاطرى منذ زمان .. وهدتني هذه المفاجأة إلى أن أوجه بالبحث اتجاهها جديدا أحاول فيه أن أفسر الحياة المصرية - أو الكثير من ظواهرها - على ضوء التصوف ... ففعلت ذلك ... وأرجو أن أكون قد وفقت فيه . ولقد كان توفيقا من الله أن أختار التصوف وفى العصر العثمانى وحده ، فإن التصوف كان فى اعتبار الناس زبدة الدين وخلاصته ، وقد شاع واستفحل - أمره واستشرى داؤه واستبد بعواطف المصريين ، وكان أكبر العوامل فى توجيه حياتهم فى هذا العهد وما بعده ، ولم يتبها لأهله هذا النفوذ الذى مكنتهم من السيطرة على الحياة المصرية إلا قبيل العصر العثمانى - على ما سنعرف بعد - فكان اختيار العصر كذلك توفيقا فوق التوفيق الذى عرفنا بعض مظاهره فيما سلف .

ولقد لاحظت أن التصوف وإن كان يقدم حلولا للكثير من العقيد فى ظواهر الحياة المصرية فإنه لا يقوى وحده على تفسير بعضها ، ولهذا فإن شباب الجامعة الذين يقومون بأعداد الرسائل العلمية لو تعاونوا على كشف الغامض فى الحركات الدينية التى مرت بالمصريين ، وحاولوا بيان ما كان لهذا من سلطان على نفوسهم ، وأثر فى توجيه حياتهم ، لاستطاع الباحث فى الحياة

المصرية أن يتخذ أبحاثهم نواة لبحث قيم « يفلسف ، به التاريخ المصري ، مفسرا ظواهره تفسيراً جديداً لا يقوم على تاريخ حياة الملوك ولا يستند إلى تتابع الدول التي تولت الحكم في مصر ، وإنما يدرس الملوك والحكام من خلال الشعب ومامر به من تيارات وشغل عواطفه من موجات ، ومن فعل ذلك فقد حقق الأمل الجميل الذي كنت شديد الحنين إلى تحقيقه حتى اعتبرت محاولة المساهمة فيه توفيقاً يبعث الرضا في نفسي ويشجع الاغتراب في كيانى . وإنما لمحاولة شاقه حقاً ، ولعل أشق ما فيها أن سبل تقدمها ميسرة لكل قارئ ، واتجاهات الذهن فى مثل هذه الموضوعات كثيرة متشعبة ، ولكل منها ما يؤيده ويبرر وجوده ، ولا أظن أن وجهة اتجاه منها دليل على ضعف الاتجاه المباين له ، فقد تنصب على الموضوع الواحد وجهات نظر مختلفة أكثرها مقبول عقلاً دون أن يكون فى ذلك تناقض ما . . . والعبرة بعلاج الموضوع ومنهج درسه وفهمه . . . وقد حاولت فى كتابى أن أدرس التصوف فى أرحب آفاقه مقيداً بالزمان والمكان اللذين يحملهما العنوان ، فدرست علاقة تعاليمه بالناس فى مختلف طبقاتهم وشتى هياتهم ، أثرياء وفقراء ، حكاما ومحكومين ، جملة ومستنيرين ، وإن كنت قد أهملت التوسع فى دراسة علاقته بالطوائف الأخرى من أقباط ويهود ، وذلك لأن التصوف الذى قام فى مصر إبان العصر العثمانى لم يتأثر كثيراً بالمسيحية أو اليهودية التى عاصرتة ، وإن وجدت وجوه شبه بينه وبين المسيحية فى كثير من الوجوه ، إذ كان التعصب شائعاً إبان هذا العصر بين المسلمين وغيرهم من سائر الطوائف ، وكان من مظاهر هذا التعصب ما نراه فى بعض وثائق للسادات الوفائية من كثرة الشكاوى التى رفعها المسلمون للحكام يطلبون فيها منع اليهود من المرور بمقابر المسلمين والصالحين إلى مداقبهم ، وتعبيرهم عن ذلك بقولهم « لهم حفرة معدة لدفن الهالكين منهم » ثم قولهم « إن الأرض الموقوفة على المؤمنين لا يجوز سلوكها للكافرين بإجماع المسلمين (١) » ثم ما سنعرفه

(١) أوراق تاريخية (مخطوطة وفيها عدة شكاوى بهذا المعنى) .

موقف الأزهريين وعامة الشعب من فتوى الشبراوى التى أباح فيها للمسيحيين ،
يحتجوا إلى أما كنهم المقدسة ، وما كان من رجم موكبهم بالطوب والحجارة
عدم كنائسهم والإعتداء عليهم جهاراً . . . وما ستراه من موقف الناس من
- اهيم عصيفير وملامته لأنه كان يبيت عند الرهبان فى الكنائس . . . وتعبير
كتاب المستنيرين فى هذا العصر عن المسيح - عليه السلام - بقولهم
المسيح الدجال ، . . ثم النظر إلى هدم الكنائس على أنه مفخرة لصاحبه^(١) . .
إن كان ذلك لا يمنع من قبول الرأى الذى أرتآه من قبل جمهرة المستشرقين
ن أن التصوف الإسلامى قد تأثر بعوامل خارجية كانت المسيحية من بينها .

هذا ولم يكن فى وسعى أن أستخلص العناصر المصرية فى التصوف الذى
م أثناء هذا العصر ، فقد كانت القومية لفظاً مجهول المعنى والدلالة فى العصر
عثمانى ، وكان الدين هو الوحدة التى تربط الشعوب الإسلامية على اختلاف
عنسياتها ، وقد كانت الرحلات - التى اعتبرها العلماء مظهراً من مظاهر العبادة ،
ساعد مع وحدة الدين واللغة على إيجاد التشابه بين التصوف فى مصر وفى
بیرها من الشعوب الإسلامية - وما أكثر ما صادفنا فى كتب التراجم والتاريخ
المناقب من نصوص تشهد بصحة ما نقول ، حتى لقد كانت الإجازات فى
لتصوف والفقهاء تمنح بالمراسلة . . بل لقد كانت مصر محط المتصوفة من أهل
لمغرب وتركيا وفارس والشام ، وحسبنا أن نذكر أن أبا القاسم المغربى +
٩٦٠ قد دخل مصر وفى صحبته خمسمائة فقير كما يقول مترجمو حياته^(٢) .

ومن قرأ كتاب الأستاذ كربولانى^(٣) ، لا يملك إلا الدهشة من وجوه
لتشابه بين التصوف فى المغرب والتصوف فى مصر ، وقد أقنعتنى هذا الكتاب
لضخم بأن استخلاص العناصر المصرية فى موضوعى أمر عسير بل إن

(١) فى الكواكب الدرية ج ٣ ص ١٢٩ مثال يؤيد ذلك .

(٢) السنن الباهر تكميل النور السافر ص ٥٧٣ (مخطوط)

(٣) Les Confreries Religieuses

التصوف في بدايته بمصر قد قام به الغرباء ، فان الخواثق والربط والزوايا
أنشئت في بداية أمرها للواردين من البلاد الشاسعة كما سنعرف ، والتصوف
كان في هذا العصر تقاليد يرثها مشايخ الطرق جيلا بعد جيل حتى كان شيخ
الطريق أو العالم إذا مات في مصر أقيمت له صلاة الغائب في الأقطار الإسلامية
النائية . (١) ولهذا دلالاته ومغزاه ، وذلك فوق أن مثل هذا البحث لا يقوى
على الاضطلاع به إلا من تزود له بمعرفة التركية والفارسية وكان على علم
واسع بالتصوف الذي قام عند الفرس والآتراك والمغاربة . وهذا عمل
حسبنا في الدلالة على مشقته وصعوبته أن نذكر أن التصوف لم يؤرخ إلى
يومنا الراهن .

ثم إن عنوان الموضوع لا يتطلب هذا الجهد ، أو على الأقل لا يحتمه ،
وستان بين التصوف في مصر والتصوف المصري ، ولقد كانت هذه الملاحظة
تعني عن هذا الدفاع كله ، ولكن تفصيلي في الدفاع مرده إلى نقد وجه إلى
في هذا الصدد .

وهذا الكتاب محاولة جريئة تحفها الأخطار من كل جانب ، ولهذا كان
فراغى منها - أو توهمى الفراغ منها فما يفرغ الانسان من بحث يحبه - يشيع
في نفسى روجا وطمأنينة - ولقد كانت محاولة شاقة مرهقة كما قلت ، فإن
مصادرها التي قلت إنها كانت تحت يدي ، وأن كثرتها كانت تحملني على الشكوى ،
لم تكن ميسورة كما يتصور القارىء لأول وهلة ، فلقد كانت طرق العثور عليها ،
ووسائل الاطلاع على ما ضمت بين دفتيها ، والعمل على ترك الغث منها وتخليص
الطيب من مادتها ثم فهمه واستغلاله في إقامة كيان هذا البحث . . . كان هذا
كله شاقاً وعراً ، وحسى الآن أن أقول إن دور الكتب عندنا مازالت إلى
اليوم مخازن لمؤلفات الكتاب ، وأن القائمين عليها يجهلون من أمرها - في
الأغاب والأعم - ما يجهله الراغبون في استعارتها ، وأكثرهم قد اتصلت

(١) السواكب السائرة ٢ ص ١٦٠ (لأبن العباس الحريثي + ٩٤٥ هـ ، ص ١٩٢
لأحمد ابن عبد الحق السباملى + ٩٥٠ هـ ، ص ١٩٥ للفتوحى الخنبل . . . الخ

مهنته بالكتب على غير رغبة منه أو منفعة تتطلبها مصلحة العمل ، وفهارس هذه الدور لم تنظم على وجه ييسر البحث لأهله ، والإعارة الخارجية للمخطوطات - التي اعتمدت عليها كل الاعتماد - ممنوعة منعاً باتاً ، ووسائل الإعارة الداخلية ملتوية غير منظمة تستغرق وقتاً يضيق به أهل البحث ، وهذا فوق أن أظهر ما يميز المخطوطات خطها الرديء وكثرة الغث في مادتها والمبتذل في معانيها وغير ذلك ، وذلك كله فوق أن الموضوع بكر وعز لم تديره أبحاث الباحثين من قبل .

ثم مشايخ الطرق الذين اتصلت بهم . . . كنت أجد مشقة كبيرة في الاهتداء إلى حقيقة عن أجدادهم الذين تناولهم كتابي ، ولئن كنت لأملك إلا إعلان الشكر لهم على ما أمدوني به من عون وقدموه إلى من مصادر ، إلا أني مضطر إلى أن أشير إلى الصعوبة التي كانت تصادفتني في معرفة الحقائق عند هؤلاء الذين يرتفع إعجابهم بأجدادهم إلى مرتبة العبادة . . .

وقد هوّن عليّ متاعب هذا البحث - إلى جانب ما أسلفت الإشارة إليه من عناية الأستاذ الجليل شفيق بك غربال - الملاحظات القيمة التي أمدني بها أساتذتي وزملائي ، وأخص بالذكر من حضراتهم معالي الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور أبو العلا عفيفي ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور إبراهيم مدكور والأستاذ أمين الخولي وغيرهم .

وبعد فهذا هو كتابي الذي أرجو أن يساهم في وضع بحث «فلسف» التاريخ المصري ويتناول ظواهر الحياة فيه بتفسير جديد ، يقوم على فهم واسع بما مرّ بالمصريين من حركات الدين واستوعب نفوسهم من تياراته وشغل أذهانهم من أفكاره ، وقد اتهمب فيه إلى نتيجة لها خطرها ، هي أن الحياة المصرية في جملتها ، منذ العصر العثماني حتى يومنا الراهن ، تدين لتعاليم الصوفية أكثر مما تدين للقواعد الدينية أو للحضارة الأوروبية ، وسنعرف في الفصل الختامي كيف اتسعت فرجة الخلاف بين قواعد الدين وتعاليم الصوفية في ذلك العصر ،

وكيف غلبت هذه التعاليم مبادئ الدين الحنيف . فأما عن الحضارة الغر فقد أقبلت الى مصر في ركاب نابليون الذي أجز على العصر العثماني ١٨٩٨ م ، واشتد بأسها في عهد محمد علي واسماعيل ، و بدأ تأثيرها غلا المدن في عهدنا الحاضر ، ولكن نفوذها لا يزال كسيحاً في الريف ، يمثل أغلبية الشعب المصري ، بل إن آثار هذه الحضارة في أهل ا. لا تزال — في الألب والأعم — مجرد مظاهر ، نخفي وراءها تقاليد العهد ، بينها وبين تعاليم صوفية العصر العثماني صلوات رحم وقربي .

توفيق الطور

الاسكندرية في { شعبان ١٣٦٥ هـ
يوليه ١٩٤٦ م

مقدمة تاريخية عن :

العصر العثماني في مصر

٩٢٣ - ١٢١٢ هـ = ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

عصر السلاطين — تطلع العثمانيين لامتلاك مصر — مصر في عهدهم —
حالتها السياسية — حالتها الاقتصادية — حالتها الاجتماعية — حالتها
العلمية — تطور أحوالها في القرن الثامن عشر (في السياسة والعلم) :

عصر السلاطين : ١٢٥٠ - ١٥١٧ م ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ

حطم التتار مدينة المشاركة في بغداد ، واستولوا على حاضرة الإسلام
سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ، وأزعجوا المسلمين في شتى بقاع العالم
الإسلامي بما ارتكبوا من فظائع وما أذاعوا في الناس من أهوال — أعمالوا
السيف في رقاب الناس أينما نزلوا ، وألقوا في نهر الدجلة بآثار العلماء من
كتب ومصنفات ، وجدوا في القضاء على مظاهر الحضارة في دول الإسلام --
وكان حكم مصر يومئذ في يد طائفة من مهرة الفرسان المنذرين على فنون
القتال منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، هم « سلاطين المماليك » ، وقد
عاشوا في رخاء هيأته لهم أرباحهم من التجارة والزراعة والصناعة ، وكانت
الحروب التي أثاروها بما أثر عنهم من شهامة وشجاعة ، تشغل بالهم وتملأ
حياتهم وتسلم بعضهم إلى أعلى مراتب الحكم ، ولكنها كانت لا تشغلهم عن
رعاية العلم والعناية بأهله ، فلاذ بمصر العلماء في مختلف دول الإسلام فارين
من وجه التتار ، ووجدوا في رجاها خير ملاذ يقيم أحداث الزمان ، ويمدحهم
بعطايا السلاطين وصلات الحكام ، ويحوظهم بمظاهر التقدير والاحترام ،
وأضحت مصر في هذا العهد مقر خلافة الإسلام وعاصمة ملكه ، ومركز

مدنيته وأبعد دولة شهرة وعظمة ، وقد اتجه إليها العالم الإسلامي منذ ردت عن الإسلام غارات التتار وحملات الصليبيين .

تطلع العثمانيين لاستيلاء مصر :

واستحوذت مصر على هذه المكانة الملحوظة بين دول الإسلام طوال عصر السلاطين على وجه التقريب ، ولكن حكمهم قد شاخ في أواخر عهدهم ، وبدأ الفساد يتمشى في أوصاله منذ أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، في وقت قامت فيه دولة بني عثمان فتية تنساب في كيانها حيوية الشباب وقوته ، وقد تهباً لأهلها فتح آسيا الصغرى وتوطيد سلطنتهم في رحابها ، وغزو أملاك الدولة الرومانية الشرقية من الغرب ، والاستيلاء على أمارات السلاجقة من الشرق ، وجعل القسطنطينية عاصمة ملكهم سنة ١٤٥٣ م ، فكان طبيعياً بعد هذا أن يتطلع العثمانيون إلى زعامة العالم الإسلامي بالاستيلاء على مصر ، وإخضاع أهلها وأملاكها لسلطانهم ، ونقل الخلافة الإسلامية إلى حاضرة ملكهم . . . وكان لهم ما أرادوا ، فتمكن سلطانهم « سليم الأول » من قهر المماليك بعد أن عجز عن ذلك أسلافه ، ودخول مصر بعد موقعة الريدانية ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ، وقد أقام بها نحو ثمانية شهور عاد بعدها إلى الأستانة وفي ركابة « خليفة المسلمين » . . . وأضحت مصر بعد ذلك إيالة تابعة للدولة العثمانية ، بعد أن فقدت في هذا النضال استقلالها ، وخسرت زعامة الإسلام ، وزايلتها خلافة المسلمين وتلاشت شهرتها في شتى الدول . واستمر الحكم للعثمانيين في مصر حتى أقبلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بعد نحو ثلاثة قرون من الزمان (١٧٩٨ م - ١٢١٢ هـ) ، وهذا البحث ينصب على دراسة التصوف أثناء هذا العصر ، ولهذا رأينا أن نمهد لهذه الدراسة بشرح بعض مظاهر الحياة في مصر إبانته ، عسى أن يساعد هذا على فهم الجو الذي اتفق وجود التصوف فيه ، والتعرف إلى نوع التفاعل الذي قام بينهما ، وحسبنا من هذه المظاهر أربعة :

أولها - أحوال مصر السياسية :

كان في مصر ثلاث قوى يراقب بعضها بعضاً ، ولكل منها حق الاتصال المباشر بالسلطان ، فأدى هذا النظام المفكك إلى قيام نزاع دائم بينها طوال هذا العصر ، فكان الوالى يحكم مصر باسم السلطان وليس له من رأى فى حكمه ، إلا ما يملكه عليه سيده المقيم فى الأستانة ، ومراقبة تنفيذ ما يوحى إليه من أوامر . . . وكان يعين بعقد يمتد عاماً قابلاً للتجديد ، وإلى جانب الوالى تقوم سلطة الجنود ، وكانوا سبع فرق وُكل إليها حفظ الأمن العام . ومن ضباطها يتألف الديوان ووظيفته مراقبة الوالى فى شتى تصرفاته . . . ويمثل السلطة الثالثة المماليك الذين قدموا للسلطان التركى طاعتهم وأعلنوا له ولاءهم ، إذ عينهم السلطان حكماً إداريين للمديريات لحفظ التوازن بين السلطين السالفتين (١) . . .

بهذا النظام المفكك كانت تحكم مصر ، وهو يشبه - فى كثير من الوجوه - نظام الحكم فى غير مصر من دول الإسلام إبان هذا العصر . وهكذا بقيت مصر من غير حاكم قوى تتجمع السلطة فى يده ، وتخشاه سائر القوى المتنازعة ، فكان للمماليك أطماع أدت إلى وجود النزاع بينهم ، وقام بين الفرق بعضها مع البعض نزاع كان يبدو فى بعض الأحيان فى صورة حرب داخلية تستمر شهوراً ، وربما استعانت كل فرقة مقاتلة بطائفة من المماليك - كما كان الحال فى الحرب التى قامت بين فرقى العزب والانكشارية ، أو بين فرقى القاسمية والغفارية ودامت ثمانين يوماً كما يروى الجبرقى ، والوالى من وراء هذا النزاع - الذى كاد يشغل العصر كله - يراقب حركات العداء ويشرف عليها ، ويرفع إلى السلطان التركى أمرها ، ولكنه لا يملك القضاء عليها ، لأن القوة تعوزه والسلطان ينقصه ، ولا شك أن هذا الاضطراب كان ذا أثر فى حياة الشعب المصرى من نواح كثيرة .

(١) الراقى : الحركة القومية ج ١ ص ١٧

وثانيها - الحالة الاقتصادية :

أدركت الفاقة مصر في هذا العصر - كان المصريون في عهد السلاطين المماليك يعيشون في فيض من الرخاء ، ولكن أحداثاً جدت فغيرت من حالهم وبدلت من رخائهم وسلطت عليهم الضيق وأغرقت بهم العوز ، كان البحر الأبيض هو الطريق الوحيد بين الهند وأوروبا طوال عصر السلاطين ، فكانت التجارة الهندية ، تمر بأملاكهم (مصر والشام) فيفرضون عليها باهظ المكوس ، حتى كانت الضرائب لا تقل في عرف جمهرة المؤرخين عن سدس الثمن الأصلي للبضائع كما يقول الأستاذ كرون ، . . . وغازب أوروبا هذا الربح الذي كان يستحوذ عليه المصريون والبنادقة ، وساءها غلاء أسعار الحاجيات بعد نقلها وسداد مكوسها ، فأرادت الاهداء إلى طريق أخرى توصل للهند ، وتكون أقل نفقات وأقصر مسافة وأخف متاعب ومشقات ، وقد تحقق هذا الأمل بعد بعثات كثيرة لاقت الإخفاق حيناً وصادفت النجاح حيناً ، فوصل أخيراً د فاسكودي چاما ، إلى رأس الزوابع - الذي سماه على سبيل التفاؤل « رأس الرجاء الحسن » - سنة ١٤٩٦ م فتحوّلت التجارة الهندية إلى هذه الطريق ، ووفرت أوروبا على نفسها تلك النفقات التي كانت تخسر ها من قبل ، فوق ما ربحته من راحة ووقت - واستولى العثمانيون على مصر بعد هذا الحادث الجلل يبضع سنوات ، وكثر التلصص بعد ذلك في البحر الأبيض ، فضعفت الحركة التجارية من ناحية ، وخسرت مصر به مورداً فياضاً بالمال . .

هذا ما أصاب مصر في تجارتها إبان هذا العصر ، فأما الصناعة فحسبنا أن نعلم أن السلطان التركي قد عاد بعد فتح مصر إلى الآستانة وفي صحبته نحو ألف وثمانمائة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والحجارين والمرحمين والمبطلين والحراطين^(١) . . . هذا فوق ماغنمه من أموال البلد حتى

(١) ابن إياس ج ٣ ص ١٤٩ وروى في ص ١٢٢ أن عددهم ألف .

بلغ ما نهبه فيما أشيع ألف جمل يحمل بالذهب والفضة ، عدا ما حمّله معه من تحف وأسلحة وأوان صينية ونحاسية ودواب من خيل وبغال . . . وذلك كله خلا ما غنمه وزراؤه وجنوده . . . حتى بطلت في مصر خمسون صناعة وتعطل منها أصحابها كما يقول ابن إياس (١) .

وأما من حيث الزراعة فقد أهمل عصرهم الأرض وإقامة الجسور وحفر الترغ والخليجان وتطهير الجداول ، ولم يكن من عمل الحكومات في هذا العصر أن تهتم بالشعب وتعمل على توفير أسباب الرخاء له بإصلاح مرافق الحياة عنده (٢) . وكان نظام الملكية العقارية غير قائم بالمعنى الصحيح ، فان أراضي الفلاح كانت عرضة للانتزاع منه إذا عجز عن سداد ما يفرضه عليه الملتزمون من ضرائب ، كان بعضها يفرض حسب أهواء الملتزمين (٣) . . .

قلت موارد المال وكثرت وجوه الإنفاق في هذا العصر — كان سلاطين المماليك ينفقون كل ما يصل إلى أيديهم من أموال الشعب داخل البلاد ، يقيمون المباني الشاهقة والآثار النفيسة التي لاتزال إلى اليوم قائمة تشهد بمهارتهم في فن المعمار ، وينفقون كثيراً في حياتهم المترفة التي حفلت بوصفها كتب الرحلات التي كتبها الأجانب في هذا العصر ، وكانوا يعطفون على الشعب فيتصدقون على فقرائه ، ويجرون الأرزاق على طلبة العلم من أبنائه ، ويجزلون العطاء للعلماء من شيوخه ، فانتفعت البلاد بما قدمته لهم من ضرائب ومكوس ، أما في العصر العثماني فان موارد المال فيه قد قلت ، ووجوه الإنفاق قد كثرت ، كان السلطان التركي في القسطنطينية ينتظر الخراج في كل عام ، وكان الوالى والفرق العسكرية التي صاحبت الفتح التركي في حاجة

(١) المصدر السالف ج ٣ ص ١٣٣ ، وأبو السرور البكرى في النزهة الذكية في ولاية مصر والقاهرة ص ٤١ (مخطوط) .

(٢) شفيق غربال : الجنرال يعقوب ص ٩٤ والرافعي ج ١ ص ٣٢ .

(٣) الرافعي ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

إلى نفقة كبيرة لم تقم بها مصر فيما سلف من عصور^(١) .
وقد كثرت في هذا العصر مناسر اللصوص وعظم نفوذ الأولياء وأرباب
الطريق ، وكان على الشعب أن يكلفهم ويقوم بمحاجاتهم وينظم لهم الموالد
والولاثم على نحو ما سنعرف بعد ، وفشت الأوبئة في هذا العهد الذي كانت
فيه مصر لانعرف الاهتمام بصحة الأفراد ، أو العمل على وقايتهم من
الأمراض . . .

تضافرت العوامل كلها على إيجاد حالة من العوز والفاقة كان لها بالغ
الأثر في نفوس المصريين .

وثالثها - الحالة الاجتماعية :

كانت الحياة الاجتماعية صدى للفاقة التي نزلت بالشعب ، والجهل الذي
أدركه وعشش في رأسه ، والاضطراب الذي لازمه من جراء النظام السياسي
السالف الذكر ، فان فرق الجنود التي وكلت إليها حراسة البلد وصيانة
الحريات والحرمات ، كانت شر ما لقيت مصر في هذا العهد من ضروب
العدوان والطغيان ، وقد بلغ من بغى الجنود في عهد الضعاف من الولاة
- وما كان أكثرهم - أن كانوا يخطفون النساء والغلمان من الشوارع ليلا
ونهارا ، ويفسقون بهم على قارعات الطرق . . . وكانوا يشاطرون التجار
وأصحاب الحرف مكاسبتهم . . .^(٢) وكان الفلاح معرضا لظلم جباة الضرائب

(١) كان الوالى يبتاع ولايته بثمان يتراوح بين أربعمئة ألف وخمسمئة ألف ريال ، ولا يوفى
إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى إلا إذا أرسل للاستانة هدايا تزيد على مائة ألف ريال ،
وكان عليه أن يرسل إليها الخراج السنوى وقدره ستمائة ألف ريال ، وأن يعث بهدايا أخرى
من السكر والبن والأرز والسراب والحلوى والفلال لا تقل قيمتها عن ٦٠٠٠٠٠ ريال ،
وذلك عدا نفقات الحج والجنود في مصر فبا يقول الراضى ج ١ ص ٢٣ - ٢٤ - وإن
تغير هذا النظام أواخر هذا العصر . وكان الوالى وحكام المديرية من أمراء المماليك يجمعون
لأنفسهم في قترات الظلم أموالا لا يقرها عدل ولا يقول بها عقل - كما روي الجبرتي وابن إياس
وغيرهما من مؤرخى مصر .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤

وتمنيهم إن قصر في إرضائهم ، والولاية وإن توفرت في الكثيرين منهم
« نية الخير ، فقد كانوا لا يقوون على تحقيقها وإقرار الحق ونشر العدالة بين
الناس ، إذ كان الوالى مسلوب السلطة على الجنود (١) ، فكان يردّ الظلم عن
الشاكين ، بأن يطلب إليهم البعد عن الباغين والاختفاء عن أنظار المعتدين
حتى لا يتعرضوا لما ينزلون بهم من ظلم وبغى وعدوان ...!

فساعد هذا القلق ما كان شائعا بين الناس من جهل وضحك وضييق ،
وأدى بهم إلى الإيمان الساذج بالله وأهله ، وتشبث الجمهور برسوم الدين
وطقوسه ، وأهملوا قواعده وليابه ، وحلمهم الضيق الذى أخرج صدورهم على
التهاون في انتشار الحشيش والخمر والبوزة بينهم ، وشيوع الشذوذ الجنسى
والسعى وراء الزنا بالنساء والفسق بالغلبان على نحو ما سنعرف بعد .

ولقد عاقت الوحدة الدينية وجود رابطة وطنية تربط الناس وترسم لهم
أملا قوميا واحدا ، إذ جرى العرف من قديم الزمان على أن يتولى حكم مصر
وردّ الغارات عنها وحفظ الأمن فيها ، فئة من مهرة الفرسان ليس فيهم
مصرى واحد ، وقامت إلى هذه الطبقة العسكرية طبقة الشعب الذى انصرف
إلى العمل في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة على قدر ماتسمح ظروفه ،
وسنعرف فيما يلى من فصول هذا الكتاب أثر هذا الجو الاجتماعى في
التصوف الذى خصصنا هذه الرسالة لدراسته .

ورابعها — الحالة العلمية :

ولا بأس من أن نسهب في بيانها بعض الإسباب ، لأنها أوثق مظاهر
الحياة اتصالا بالتصوف :

اعتزلت مصر العالم الأوربي بعد كشف رأس الرجاء الحسن ، وكانت
أوروبا قد استيقظت من سباتها على نهضة أخذت تدب في كيانها ، وتتناول
شئى مرافق الحياة عند أهلها ، فحرمت مصر من الاتصال بهذه النهضة وتتبع

(١) في ابن لياس ج ٣ ص ٨٥ وغيرها أمثلة تؤيد ذلك .

حركاتها والإفادة من ثمراتها طوال العصر العثماني - الذي استغرق نحو قرون ثلاثة ، وكان للمصريين الذين عاشوا في العصر الوسيط كله - لا العثماني وحده - فهم للحياة العلمية يخالف فهمنا ، فكان المثل الأعلى للعلم في عرفهم قائما على الدين وما يعين على فهمه من دراسات . فأتجهت إلى علوم الدين عنايتهم ، وكادوا يهملون ما عداها من ضروب العلم وأوانه - وقد بلغ من إهمالهم لدراسة العلوم العقلية أن كان يجهلنا صدور العلماء في الأزهر - أكبر معهد في مصر يومذاك - لما جاء إلى مصر الوالي أحمد باشا خف لاستقباله أظهر العلماء في ذلك الوقت ، وهم الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، وسالم النفراوي ، وسليمان المنصوري ، فدارت بينهم مناقشات علمية (أى دينية) عقب عليها الوالي بالكلام في العلوم الرياضية ، فأحجم العلماء عن التباحث فيها معلنين جهلهم بها ، فعجب الوالي لذلك كثيرا ، ثم قال للشبراوي بعد ذلك : إن الشائع في بلادنا أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وقد شاقني الحجز إليها فلما جئت وجدتها كما قيل «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . . .» فقال الشبراوي : هي يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف . فقال له : أين هي وأنتم تجهلون العلوم الرياضية مع أنكم أعظم علمائها ، وغاية نحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، وقد نبذتم المقاصد وجهلتموها - فقال الشبراوي : لسنا أعظم علمائها بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أبواب الدولة وأهل الحكم فيها ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، أما غير ذلك فمعرفة من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، ثم إن دراسة هذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات . . . وغالب أهل الأزهر فقراء ، ويعوزهم الاستعداد لدراسة هذه العلوم ، ثم أشار على الوالي بأن يتصل بعالم فذ في معرفته بالرياضيات هو حسن الجرني - والد عبد الرحمن المؤرخ المعروف - فاتصل به وأخذ يستق عنه علومها .

أهملوا دراسة العلوم الرياضية وكانت في عرفهم تشمل الهندسة والحساب والهيئة والرسم واعتبروا الفلك والميقات والزايحة والأوافق وما إليها من العلوم الغريبة والخارجة وكانت لا تحتل المكان الأول من اهتمامهم ، وجعلوا التفرقة بين العلوم والفنون ، بل كان العلم في عرفهم معناه المعرفة — وبهذا ورد معناه في القرآن الكريم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم صنفين : العلوم النقلية وبراد بها الفقه والحديث والتفسير ونحوه ، والعلوم العقلية وهي ما نريد به العلوم اللسانية في وقتنا الحاضر ، وبراد بها النحو ^(١) والبيان واللغة ... وكانت تحتل المكان الثاني من عنايتهم ، وكانت دراساتهم في الجملة تعوزها العناية بالمعنى ويثقلها الاهتمام بالألفاظ ، وكان تأليفهم يدور حول شرح المتون والتعليق على الشروح بما يجوز لنا أن نسمى عصرهم «عصر الشروح والحواشي» ، (٢) .

وشاع الجهل بين الناس واستفحل أمره في الريف والحضر ، وعششت السذاجة في رؤوسهم وبدت في ضعف التعليل الذي نراه في شتى مؤلفات الأدباء ، ونصادفه عند الناس كلما عرضوا لتعليل ظاهرة من ظواهر الحياة ، فاذا أصاب البلد قحط رأينا جهود الساعين لرفعه ، تقنع بالاتجاه إلى التماس زواله عند الله بالأدعية والأوراد والصلوات ، وقد يقنع الحاكم بأن يطلب الى العلماء والناس أن يسارعوا إلى أداء هذا الواجب ان توانوا فيه ، ويلتمس ممن يرجو فيه الصلاح والخير أن يكون هو الداعي والناس من ورائه يستجيبون ^(٣) . وإذا نزل بالبلد عدو يريد احتلاله ، بادر العلماء وأرباب الطريق إلى المساجد والزرايا وأخذوا في تلاوة الأوراد والأدعية حتى تزايد لهم هذه الشدة ، وقد فعلوا ذلك يوم زحفت عليهم الحملة الفرنسية التي

(١) استخلصنا ما أسلفناه في الحياة العلمية عن مصادر هذا العصر ولا سيما : الجبرتي ج ١ ص ٣٧ ، ١٩٣ - ١٩٤ و ١٧ و ٧٦ و ج ٢ ص ١٧ و ٥٧ و ٧٥ و ١٠٠ وغيرها .

(٢) جرجي زيدان : آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) الشعراني : لطائف المنن ج ١ ص ١٠٦ ، الجبرتي ج ١ ص ٣٠ .

قضت على العصر العثماني في مصر . (١) بل كان السلطان في تركيا إذا اشتدت حروب أعدائه له ، لاذ بعلماء مصر وأجزل لهم العطاء ، والتمس إليهم أن يقرموا له البخارى بين الحين والحين حتى ينصره الله على أعدائه (٢) كان يحلمهم على هذا إغفالهم لسنن الكون ونواميس الطبيعة ، وإيمانهم بأن الله هو العلة المباشرة ، لكل ظواهر الحياة ، فاذا اتجهوا اليه بالدعاء رفع عنهم ما نزل بهم من شر وما أصابهم من ضيق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال... وهذا العجز عن تعليل الظواهر هو الذى ساق الناس إلى التسليم بدعاوى الدجالين وحيل المشعوذين من أدعياء التصوف وأهل التنجيم (٣) .
أما معاهد العلم في هذا العصر فقد كان أكبرها خطرا :

الأزهر : وقد كان طلابه من رواد الكتاتيب التى تشبه مدارس التعليم الأولى في وقتنا الحاضر ، وكان الطالب يصطنى لنفسه بين أعمدة الأزهر من شاء من شيوخه متدرجا من السهل إلى الصعب ، حتى تغزر مادته ويأنس في نفسه الكفاية للتدريس ، فيخلق حلقة ويمضى في تعليم الطلاب ، ونجاحه في ذلك رهن كفاءته ، إن أحسن في درسه سكت عنه الشيوخ (٤) ورضى به الطلاب (٥) فواصل عمله ، وإن أخفق انفض أتباعه من حوله ، وكان الإخفاق مصيره (٦) . والكثيرون من خريجي الأزهر أو ممن قضوا بين جدرانها شطرا من حياتهم ، ينطلقون إلى الأقاليم والقرى ويسيرون الكتاتيب السالفة الذكر ويتولون إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الرشاد في المساجد وزوايا أهل الطريق ، وكان الناس يقبلون على هذه المجالس للتفقه في شئون دينهم .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٧٢ ، ج ٢ ص ١٧١ و ١٩٠

(٣) أنظر في الجبرتي ج ١ ص ٣١٨ و ٣٣٧ — ٣٣٨ و ٣٨٤ أمثلة لذلك .

(٤) رفاة الطهطاوى : خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢ في موقف العلماء من المناوى ،

والجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ في موقفهم من البيوى .

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ٤

(٦) في الجبرتي ج ١ ص ٢٥٧ ، ج ٢ ص ١٠٦ ما يشهد بما تقول .

وقد عالج بعضهم الوعظ بنوع من القصص الديني يجمع بين دراسة الدين وفهم المثل العليا في الحياة الدنيا (١) وكانت هذه المجالس تتجاوز المساجد والزوايا وتقام أحياناً في البيوت والدور ويتهافت عليها الناس وينصت اليها النساء من وراء ستار (٢) .

وكانت مجالس الأدب والعلم تقام أحياناً في منازل العلماء والخطاطين والأدباء، ويشد أزرها الحكام ، وأظهرها مجالس رضوان بك والزبيدي والجبرتي الكبير (٣) .

كما تخصص لدراسة العلوم الغربية — من هيئة وفلك وميقات وزايرجه وأوافق — نفر من علماء الأزهر ، واهتم غيرهم بدراسة العلوم الرياضية ، وكان هذا النوع من العلماء موصول الأسباب بالحياة العملية فيما لا علاقة له بالتهنؤ للآخرة ، ويشهد بذلك موقف الشيخ حسن الجبرتي من اختلال الموازين واختلاف المقادير في عهده عام ١١٧٢ (٤) .

وقد شاع في الريف — على الأخص — نوع من الأدب الشعبي تمثله لنا قصص أبي زيد الهلال وسيف بن ذي يزن وعنترة وألف ليلة ونحوها ، وقد شجعت على انتشاره ما أسلفناه من ظروف سياسية وأحوال اقتصادية واجتماعية .

وقد نهضت زوايا الصوفية بنشر العلوم الدينية ، وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاولة الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية — صادقين كانوا أو كاذبين .

(١) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٣١٢ .

(٣) صورها عن الجبرتي الأستاذ محمد فريد أبو حديد في صورة طريفة لاهرت بالرسالة في هديها (٨٣ ، ٨٤ الصادرين في ٤ ، ١١ فبراير سنة ١٩٣٥) وانظر الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢ وفي غيرها من صفحات .

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٤٠٣ .

وينبغي أن نشير الآن إلى أن أهل العلم وحواريه كانوا حريصين على حيازة المكاتب وجمع الكتب النادر منها والمتداول ، يبتاعونها من سوق الكتبيين حيناً ومن الأفراد والبلاد النائية حيناً آخر ، وغلب عليهم الميل إلى التهاون في إعارتها وعدم التشديد في استعادتها ، رغبة منهم في نشر ما تنطوي عليه من ألوان العلم وضروبه ، فقامت مكانهم مقام دور الكتب العامة في عصرنا الراهن (١).

على أن هذا كله كان ضعيف الأثر في تبديد الظلام الذي استوعب هذا العصر واحتوى أهله ، ومؤرخو الأدب المصري يقررون - والأسى ملء قلوبهم - أن الفتح التركي كان وبلا على العلم وأهله ، لأن المغول حين اكتسحوا فارس وخراسان والعراق وحطموا بغداد وعفوا على مدينة الإسلام ، انتقلت مراكز العلم من بغداد وبخارا ونيسابور وقرطبة وغيرها من مدائن العلم في العصر العباسي ، إلى القاهرة والإسكندرية والفيوم وحلب وغيرها من مدائن مصر والشام (٢) . وكان السلاطين الذين يملكون هذين القطرين يجرون على العلماء الأرزاق ويمجزلون لهم العطاء ، فنشأت في مصر نهضة علمية ظهرت ثمارها في أواخر عصر السلاطين ، ونشأ فيها منذ القرن السابع للهجرة ميل نحو التعليم العام ، فترى لأول مرة في التاريخ الإسلامي مؤلفاً دكالنويري ، سنة ١٣٣٢ يحاول أن يشرح شتى المعارف التي عرفت في عصره من أدبية وعلمية وتاريخية وجغرافية في موسوعة ذات عشرين (أو ثلاثين) مجلداً ، وأخذ هذا الميل يتقدم في مصر - لا في المعارف العامة وحدها - بل اتجه نحو التخصص في القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، فترى نوعاً من دائرة معارف جغرافية في كتاب ذي اثنين وثلاثين مجلداً يضعه العمرى (١٣٠١ - ١٣٤٨) في الجغرافيا العامة ، وترى مؤلفاً آخر وضعه القلقشندي عن الأنظمة المختلفة

(١) في الجبرتي ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ (مكتبة المرايبي) ، ص ٤٠١ مكتبة الجبرتي الكبير .

(٢) جورجى زيدان ج ٣ ص ١١٢

في العالم الإسلامي يقع في ثلاثة عشر (١٤) مجلدا ، ونرى ما يشبه هذا في غير هذين الكتابين (١).

فلما استولى الأتراك على مصر جعلوها إيالة عثمانية ، وفرضوا على أهلها أن تكون التركية لغة المخاطبات والمحادثات الرسمية ، وقلت عنايتهم بالعلماء ، وساعد الجو السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عصرهم على وقف هذا التيار العلمي السائر نحو النضج والكمال ، ولولا الأتراك لكان الذهن المصري متمشيا من تلقاء نفسه مع الأذهان الأوروبية في العصور الحديثة .. ولاستطاع أن ينال بل أن يقوم بنصيبه من الرقي العام للحضارة (٢).

وقد استحالت هذه الموسوعات في العصر العثماني إلى حواش وتعليقات وشروح . والرأي عندنا أن العثمانيين قد أوقفوا الحركة العلمية في مصر نحو قرنين من الزمان ، فإن الفترة الأخيرة من عهدهم - فيما يلوح لي - قد دب فيها نوع من التطور شمل أكثر مرافق الحياة عند أهلها ، وإن قال المؤرخ الثقة : الأستاذ غربال ، أما مالك مصر فكانوا في عام ١٧٩٨ م كما كانوا في عام ١٢٥٠ في الحرب والتفكير ، أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلال دولتهم ، وما كانوا يجربونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة في أرضهم ، كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأبناء ، وظلوا في كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان آباؤهم (٣) ، ولا بأس من أن نحاول الآن تأييد ما نزعمه :

التطور في السياسة : أصاب الضعف تركيا في القرن الثامن عشر ، وتوالت عليها انتصارات النمسا ثم روسيا في ساحة الوغى ، واختلت شئون الدولة الداخلية وفسد نظام الحكم وساء حال الجيش وكثر تغيير الولاة على مصر ، واندججت الفرق العسكرية في الشعب وأصبحت الأملاك يتولى أمرها الممالك ،

(١) طه حسين : ابن خلدون ص ٥٧

(٢) المصدر السالف ص ١٦٤ - ١٦٥

(٣) شفيق غربال : الجنرال يعقوب ص *

فأضحى الجنود أتباعاً لهؤلاء الأمراء الذين كانوا جادين في تقوية أنفسهم
بإتباع المماليك والإكثار من الأتباع ، وقد حاولوا أن يوحّدوا كلمتهم
باختيار زعيم لهم جعلوه « شيخاً للبلد » نافذ الرأى في كل شئونها ، حتى أصبح
الوالى الذى ترسله تركيا مسجينا في القلعة لا يملك الخروج منها إلا بأذنه . . .
ولو امتاز واحد من هؤلاء الأمراء بالنسب فوق ما تهيأ له من شجاعة
وفروسية ، لاستكان له زملاؤه وساروا في ركابه ، وعاونوه في الاستقلال
بمصر وطرده الأتراك من أرضها ، ولعل هذا هو السبب الذى أدى إلى فشل
الدعوة للاستقلال الذى حققه على بك الكبير سنة ١٧٦٩ فترة من الزمان .

وكما تهيأ لامراء المماليك هذا النفوذ تهيأ للشعب نوع من النضج بدا
واضحاً في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر (١) فقد مسمعا في هذه الفترة
سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله ، ورأينا اهتمام الحكام
بالرأى العام وزعامته ، وعرفنا موقف العلماء في فتنة الأزهر وفي فتنة الوقف (٢)
ورأينا العالم الذى يقول للحاكم في وجهه : لعنك الله ولعن اليسرجى ، الذى
جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . . . والعالم الذى يقول
للعمامة وهم يستنصرونه لدفع الظلم الذى يوقعه الحكام بهم : « فى غد نجمع
أهالى الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب
بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، (٣) وغير هذه
الحوادث كثير لم نكن نسمع به في القرنين الأولين من العصر العثمانى .

وقد شبه بعض المؤرخين نفوذ العلماء في هذه الفترة بنفوذ البابوات في

(١) رأى الأستاذ المؤرخ محمد فريد أبو حديد أن هذا النضج السياسى قد ظهرت بوادره
في مستهل القرن الثامن عشر وكان أول دليل عليه عام ١٧٠٢ م (ص ٢٢ من سيرة
السيد عمر مكرم) وقد ناقشت رأيه على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٢١٧ الصادر في
٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٧) .

(٢) الجبرقى ج ٢ ص ٥٦ و ١١٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩ و ١١٠ .

أوروبا إبان العصر الوسيط ، وهو تشبيه مقبول من حيث السلطان الذى توافر لهم عند حكام البلاد ، ولكنه يبدو على خطأ من حيث صلتهم بالشعب من بعض النواحي ، فان اليقظة كانت قد دبت فى نفوس الناس حتى كانوا إذا ثاروا تحركوا للثورة من غير قائد يتولى زعامتهم ، ثم يطالبون زعماءهم من العلماء بقيادتهم ، فإن قصروا نالهم من الشعب الأذى ، وما كان لأوروبا فى العصر الوسيط مثل هذا رأى العام الذى ظهر فى مصر قبل القرن التاسع عشر على غير ما يرى بعض المؤرخين (١).

التطور فى العلم : تطورت الحركة العلمية إلى الكمال فى أواخر العصر العثمانى ، وظهر هذا النضج فى الزيدى الذى وضع دتاج العروس ، فى عشرة أجزاء كبار ، وشرح إحياء علوم الدين للغزالي فى عشرة مجلدات كبار ، وفى الوالى راغب باشا سنة ١١٧٦ الذى وضع موسوعة فى الأدب واللغة والعلم والطبيعة والطب والحديث والرياضيات والمنطق ، سبها سفينة الراغب ودفينة الطالب (٢) والجبرتى الذى لا خلاف بين المحدثين من المؤرخين فى دقته ومهارته فى استقصاء الحوادث وقدرته على فهم الظواهر وبما جعل تاريخه عن القرن الثانى عشر للهجرة معدوم النظير فى عرفهم ، والصبان ١٢٠٦ هـ صاحب الحاشية المعروفة إلى يومنا الحاضر (٣) . وظهرت مجالس الأدب والعلم عند الزيدى والجبرتى ورضوان بك ، وغير هؤلاء من كبار العلماء والذين كانت حلقات دروسهم تزدهم حتى تبلغ المئات عدداً ، فالحفناوى سنة ١١٨١ بلغ عدد الحاضرين فى حلقة نحو الخمسمائة مستمع ، وكان يوجد فى حلقة محمد بن ابراهيم العوفى ١١٩١ أكثر من ثلاثمائة طالب رغم أنه كان ماجناخليما (٤) - والأمثلة على ذلك كثيرة .

(١) كجورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٧٦

(٢) طبع بمصر سنة ١٢٥٥ كما يقول جرجى زيدان فى المصدر السالف ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٢٤١

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ١٦

وقد كان طبيعياً أن يؤدي هذا التطور الذي أشرنا إلى ناحيتين من نواحيه ، إلى تغيير علاقات مصر بالدولة التركية وظهور هذا التغيير في ميادين الاقتصاد والاجتماع وغيرهما من مظاهر الحياة في مصر .

وقد سار هذا التطور في مجراه حتى أقبلت الحملة الفرنسية فوجهت مصر في تيار جديد ، كان بداية العصر الحديث فيها ، ولا نريد أن نتعرض للحكم على مدى ما أفادته أو خسرت مصر من جراء هذا الاتجاه الجديد ، فانه لا يزال موضع جدال بين المحدثين من المؤرخين .

هذه بعض مظاهر روح العصر العثماني في مصر عرضناها موجزين ، عسى أن تساعد على فهم التصوف الذي اتفق وجوده مع هذه المظاهر ، وكان بينه وبينها نوع من التفاعل سنعرض له في حينه ، والآن ما المراد بالتصوف في هذا العصر ..؟ ذلك ما نعرفه في الكتاب التالي .

الكتاب الأول

في الطريق

تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده

إذا كان التصوف في أصله ظاهرة وجدانية فردية ، فقد كان تصوف العصر العثماني ظاهرة اجتماعية تتطور مع الزمان وتتغير باختلاف المكان ، كغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية ، ولهذا آثرنا أن نتناول في الكتاب الأول عرض المعالم التي ميزت هذا التصوف ، فلم بما انتشر في أرض مصر من زوايا أرباب الطريق ، ومعيشة الذين أقاموا في رحابها ، وانقطعوا لعبادة الله بين جدرانها ، وحتى نعرف شيئاً عن الطرق الصوفية وبميزاتها ، والسلطان الذي تهيأ لشيوعها ، والتجارب التي عاشها أتباعها . . . وغير ذلك مما تلزم معرفته في مستهل هذا البحث ، فإذا تهيأ لنا تأريخ هذا الجانب من تصوف ذلك العصر ، عقبنا عليه - في الكتاب الثاني - ببيان السلطان الذي تهيأ لأهله أحياء وأمواتا ، لنبين - في الكتاب الثالث - عن أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في ذلك العصر وما تلاه من عصور

ولما كان تصوف العصر العثماني امتداداً طبيعياً للتصوف الذي شاع أواخر عصر السلاطين ، كان من الخير أن نمهد لدراسته في العصر العثماني بفصل تداول فيه نشأته بمصر وتطوره إلى هذا العهد ، وتأريخ التصوف في مصر على هذا النحو مجازفة غير مأمونة الزلل ، لأسباب أكبرها خطراً قلة المصادر التي تيسر البحث في هذا الميدان ، بيد أن هذه المجازفة ضرورية لفهم التصوف في العصر العثماني على أكمل الوجوه ، فلنأخذ حيطتنا على قدر ما تسع طاقتنا ، ولننض إلى اقتحامها مستسلمين بعد ذلك لأخطارها :

الفصل الأول

أظهر معالم التصوف في مصر

قبل العصر العثماني

التصوف في مصر قبل العصر العثماني — أنواع المعابد في مصر — الحياة في رحاب الخواص والربط والزوايا في مصر — نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني — بعض مظاهر نفوذ قبيل العصر العثماني .

التصوف قبل العصر العثماني :

عرفت مصر الزهد والتبسك من قديم الزمان ، فشاعت فيها الدعوة إلى عبادة الآلهة والاستخفاف بمباهج الحياة والحرص على نعيم الآخرة منذ عهد الفراعنة الأقدمين ، وأكثر الصور التي خلفوها منقوشة على معابدهم وآثارهم تنطق بصدق ما نقول ، وقد كثر وجود الزهدة والعباد في مصر حتى أقبل الإسلام على أهلها يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة معا ، ولكن حديثه عن الآخرة كان مثار الاقتتان عند معتقيه ، فاستمر النيار القديم في جريانه ، وعكف البعض على العبادة وانقطعوا إلى الله وأعرضوا عن زخرف الدنيا وزينتها ، وزهدوا فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وانفردوا عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وقد كان هذا هو أصل التصوف — فيما يقول ابن خلدون — وقد كان هذا عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة^(١) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٨ .

وقد اتجه التصوف بعد هذا إلى العناية بالأبحاث العقلية ، وأخذت تظهر عند أهله النظريات الفلسفية في المعرفة والوجود ، فتبكر لها أهل السلف وتصدى الأشاعرة لدحضها ، وانتصر لهم الغزالي وطالب بجمل الإيمان — لا التفلسف — طريقاً إلى الله ، وسرعان ما رجحت كفة العمل على كفة النظر ، وتغلب التعبّد على التأمل ، وبدا الاهتمام بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وترية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله ، وكاد ينطفئ الجانب النظري في التصوف الإسلامي قبل مجيء العصر العثماني بنحو ثلاثة قرون . . . وبهذا عاد التصوف في مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه في مرحلته الأولى^(١) ، ولسنا نريد أن نؤرخ هذا النوع من التصوف ، بل يعنينا أن نعرض لبيان ظاهرة كانت أكبر ما يميز التصوف في العصر العثماني ، ذلك أن المتصوفة كانوا يقيمون جماعات تحت إدارة شيوخهم ، في معابد أطلقوا عليها اسم الزوايا ، طاعمين كاسين على نفقة المحسنين من الأثرياء والأمراء ، متجردين لعبادة الله منقطعين لذكره ، زاهدين في طلب الدنيا ، معرضين عن لذاتها ، قانعين في بعض الأحيان بادعاء هذا السلوك ، مهملين السعى في طلب القوت ، محتقرين العمل على اكتساب العلم والدين — وهذا التصوف الجمعي لم ينشأ في مصر قبل النصف الثاني من القرن السادس الهجري . وقد سجل المقرئزي تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة^(٢) وذكر على باشا مبارك أنه نشأ بهذا المعنى « في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة تسع وخمسين وستائة »^(٣) ورأى المقرئزي أدنى إلى الصواب فيما نعلم ، فإن صلاح الدين قد مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة (١١٩٣ م) . وقد عرفت مصر منذ هذا التاريخ ثلاثة أنواع من المعابد شاعت فيها أيام الأيوبيين وسلاطين المماليك ، وكانت نواة للزوايا التي حفل بها العصر العثماني ،

(١) أنظر كتابنا : الشعراني إمام التصوف في عصره من ٧ — ٨ و ١٠٧ — ١٠٨ .
طبعة أولى (سلسلة أعلام الإسلام)

(٢) خطط المقرئزي ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩٠ .

ومعنى هذا أن التصوف الذى يبدو فى أصله ظاهرة نفسية فردية ، قد تحول فى مصر إلى ظاهرة اجتماعية ، وأصبح الصوفى الذى يعتكف فى عزلة عن الناس ، تستغرقه رياضاته ومجاهداته ، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته ، ويحتويه العمل على تصفية نفسه وتجريدها من علائق الجسم ، قد تحول هذا الصوفى إلى رجل شديد الحرص على الاجتماع بمريديه وأتباعه ، والاتصال بسائر الناس - فقراء كانوا أو أغنياء ، ورعايا أو حكاما ، يتفاعل مع البيئة التى يعيش فيها ، يتأثر بها حيناً ويؤثر فيها أحياناً .. كان التصوف ظاهرة فردية فتحول إلى ظاهرة اجتماعية .. فهاهنا المعابد التى استقر فيها هؤلاء الشيوخ مع المريدين والأتباع .. ؟

أنواع المعابد فى مصر :

هى الخوانق والربط والزوايا - ويكاد الباحث أن يفضل سبيل الاهتداء إلى وجوه التفرقة بينها . قال على مبارك : إن الخانقاة كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وقد اندثر هذا الاسم بمرور الزمن وأطلق عليها اسم « التكية » والتكيا أما كن لإقامة الدراويش من الأعاجم^(١) ، ولا يكاد يخرج هذا عما قاله المقرئ الذى يقرر أنها حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة للهجرة^(٢) وجعلت ليختل الصوفية فيها لعبادة الله تعالى^(٣) .

أما الربط فهى فيما يرى المقرئ وعلى مبارك دوز أعدت لإقامة الصوفية ، وخصص بعضها للنساء المنقطعيات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأراامل من العابدات ، وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ - وقد انقطع ذلك منذ زمان مديد^(٤) . وقد كان رباط البغدادية الذى

(١) المخطوط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) يروى نشأتها سنة ١٥٠ أو سنة ٢٠٠ .

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧١ ، قطف الأزهار ١٨٤ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ . وخطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ،

أبو السرور البكرى قطف الأزهار من الخطط والآثار (مخطوط) ١٨٤ .

كان موقوفاً على النساء الخيِّرات بيتاً للصوفية من النساء ، وكانت شيختهن فقيهة وافرّة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظة حريصة على ائْتِنْعِ والتذكير ، وكان النساء المقيّبات بهذا الرباط مقيّبات على وظائف العبادات حريصات على التفقه في شئون الدين^(١) ولا نظن أن التصوف في هذا العصر كان يندو هذه المظاهر الثلاثة : الفقه والزهد والعبادة .

أما الزوايا فقد كانت تعد من قديم الزمان لإقامة بعض الصالحين للتعبّد بين جدرانها ، ولم تكن تقام فيها الجمعة ، أول أمرها ، ثم تغير الحال وأقيمت الجمعة في أكثرها^(٢) . ويشير المقرئزي في حديثه عن الزوايا إلى أنها كانت دوراً لعبادة الصالحين من الصوفية^(٣) وفقراء العجم^(٤) والخدام من الحبش والأبناء^(٥) وغيرهم من أهل الصلاح والورع^(٦) .

الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا :

ومن دلائل الصعوبة في التفرقة بين هذه الأنواع من المعابد ، اشتراك الخوانق والربط في سبعة أمورٍ وعدم انفراد أحد النوعين بخاصة تميزه عن النوع الآخر ، أما وجوه الشبه بينهما فهي :

(١) أن الخوانق كالربط كانت بيوتاً يشيدها الأبرار والملوك والأثرياء ليقم فيها أهل التصوف ليلاً ونهاراً متفرغين إلى عبادة الله^(٧) .

(٢) أنها كانت معاهد ثقافة يدرس فيها العلم الشائع يومذاك ، فكان

(١) خطط المقرئزي ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

(٣) خطط المقرئزي ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) ج ٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

(٥) ج ٤ ص ٣٠٠ (٦) ج ٤ ص ٣٠٣

(٧) اعتمدنا في تصوير الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في هذه الفترة على

خطط المقرئزي (ج ٤) في الصفحات الآتي بيانها مرتبة حسب ترتيب الهوامش في صلب الكلام :

في رباط الآثار مثلاً درس لفقهاء الشافعية يتولاه مدرس بطلبة يعيشون لطلب العلم في هذا الرباط كما ضم بين جدرانه خزانة كتب تعين على دراسة العلم^(١)، وكان في الرباط العلائقي قراء وعشرة من الفقهاء عليهم أن يحضروا يوماً في كل أسبوع^(٢)، وقد أشرنا إلى دراسة الدين في رباط البغدادية المعد للنساء . وأما الخواتق فحسبنا أن نسوق المثال بثلاث منها : خانقاه شيخو التي رتبت فيها مدة من الزمان دروس منها أربعة لطوائف الأئمة الأربعة ، ودرس للحديث النبوي وآخر لإقراء القرآن بالروايات السبع ، وكان لكل درس مدرس يتولاه وطلبة اشترط فيهم ألا يتغيبوا عن حضوره وحضور وظيفة التصوف ، و خانقاه الجينغا المظفري التي اشترط في قرائها أن يحضروا وظيفة التصوف ، وكان بجانبها كتاب يقرأ فيه الأيتام من أطفال المسلمين كتاب الله ويتعلمون فيه الخط^(٣)، و خانقاه ركن الدين بيبرس وقد نظم فيها درس للحديث النبوي له مدرس يتولى تدريسه ، وعنده عدة من المحدثين ، وضمت قراما يتناوبون القراءة ليلاً ونهاراً حتى اكتفى أهلها بالعلم الذي توفر بين جدرانها ، فحرموا على الفقهاء أن ينزلوا ساحتها^(٤) . . . !

(٢) إن الجمعة كانت لا تقام في أكثر هذه الخواتق والربط ، روى المقرئ في حديثه عن خانقاه سعيد السعداء — وهي من أكبر الخواتق التي عرفتها مصر — أن الصوفية بها كانوا يتوجهون إلى الجامع الحاكمي كل أسبوع لصلاة الجمعة في موكب جميل كان الناس يقبلون لرؤيته من مصر إلى القاهرة تيمناً ببركة أهله^(٥) وأن خانقاه سرياقوس التي انطوت على مائة خلوة لمائة صوفي كان بجانبها مسجد تقام فيه الجمعة^(٦) ، ولكن المقرئ يقول عن خانقاه البندقارية إنها كانت خانقاه ومسجداً لله^(٧) .

(٢) ص ٢٨٣

(٣) ص ٢٩٧

(١) ص ٢٩٦

(٦) ص ٢٨٥

(٥) ص ٢٧٤

(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧

(٧) ص ٢٨٣

وكذلك الحال في الربط ، لم يرد ذكر لإقامة الجمعة في غير اثنين منها (مع أن عددها عند المقرئ قد بلغ السبعة عشر رباطاً) وهما رباط الست كلية الذي كان رباطاً ومسجداً لله^(١) ورباط الأفرم الذي ضم صوفية وشيخاً وإماماً ومنبراً يخطب عليه للجمعة وللعيد^(٢).

(٤) أن منشئها كانوا يجسسون عليها الأوقاف ويجرون على أهلها الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، كان لصوفية سعيد السعداء في كل يوم طعام ولحم وخبز^(٣) ، وكان في خانقاه ركن الدين بيبرس أربعاً صوفى وفي الرباط المجاور له مائة من الجنس وأبناء العجزة ، فكان فيها مطبخ يوزع منه على المجاورين اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وتفرق الحلوى على كل فقير من فقرائها ، وإن كان هذا المقرر يتناسب مع حال النيل ورخاء العيش في مصر^(٤) وكان هذا هو الحال في خانقاه بشتاك^(٥) ، ورتب للطلبة في خانقاه شيخو طعام ولحم وخبز في كل يوم وحلوى وزيت وصابون في كل شهر وكان لها أوقاف جليلة^(٦) ، وكان لفقراء خانقاه سرباقوص ثمن كسوة كل سنة وتوسعة في كل رمضان والعيد والمواسم ، فوق ما كان لهم من طعام شهى وخبز نقي ، وما كان يوزع عليهم من الحلوى وزيت الزيتون والصابون وثن الفواكه عند ظهورها ، وفوق ما كانت تضم الخانقاه من السكر والأوان الشراب وأنواع الأدوية^(٧) وهكذا نرى الأرزاق والمعالي والأوقاف في خوانق بكتمر^(٨) وقوصون^(٩) وأم أتوك^(١٠) والخروية وطيرس^(١١).

وكذلك الحال في الربط وإن كانت الأوقاف التي حبست عليها والمعالي التي كانت توزع على سكانها والأرزاق التي كانت تصيب أهلها ، أقل بكثير

(١) ص ٢٩٤	(٢) ص ٢٩٧
(٣) ص ٢٨٣	(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧
(٦) ص ٢٨٣	(٧) ص ٢٨٥ — ٢٨٦
(٩) ص ٢٨٩	(١٠) ص ٢٩٠
	(١١) ص ٢٩٢
	(٥) ص ٢٧٩
	(٨) ص ٢٩٧

عنها في الخوانق — كما نرى في رباط الآثار ورباط الأقرم^(١) والرباط العلائق^(٢) . وأكثر الربط لم يذكر شيء بشأن أرزاقه وأوقافه .

(٥) ولما كان الغرض من هذه الأرزاق والأجاس تهيئة الجو الصالح لتفريغ المجاورين لعبادة الله ، فقد زودت بعض الخوانق والربط بالحمامات والمطابخ والمدافن ، ومدت بالفرش وآلات النحاس والكتب والقناديل من النحاس المسكفت أو الزجاج المذهب وغير ذلك من الامتعة والنفائس التي لا ترى في غير قصور الملوك والأثرياء كما نرى في خانقاه بكتمر وطغاي النجفي والرباط العلائق^(٣) وإن لم يتوفر هذا النعيم في الكثير من الخوانق والربط .

(٦) والظاهر أن بعض الخوانق قد ضم نساء ، فقد نص المقرئ على أن خانقاه سرياقوس كان بها حمام للرجال وآخر للنساء ، وأما في الربط فقد عرفنا أن النساء كان لهن رباط خاص بهن هو رباط البغدادية .

(٧) كان بأكثر الخوانق والربط قراء وأئمة ومؤذنون وبوابون . . . فوق من ضمت من فقراء وشيوخ^(٤) .

أما الزوايا فن الراجح أنها كانت في عصرى الأيوبيين وسلطين المماليك صغيرة الحجم قليلة الخطر ، يقيم فيها نفر ضئيل من العباد قد يبلغ العشرة كما نرى في زاوية الحمصي^(٥) وقد تكون مكانا يتعبد فيه رجل واحد كما يتضح من كلام المقرئ عن بيبرس إذ يقول إنه بنى للشيخ خضر زاوية في جبل المزة وأخرى بظاهر بعلبك وثالثة بجماه ورابعة بحمص وخامسة خارج القاهرة^(٦) وأوضح من هذا قوله إن الأمير سيف الدين طغاي قد عمر زاوية

(١) س ٢٩٥ — ٢٩٧ (٢) س ٢٨٧ .

(٣) س ٢٨٩ — ٢٩٠ و ٢٩٧ و ٢٨٦ .

(٤) س ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ وغيرها .

من المنوعات .

(٦) س ٢٩٨

(٥) س ٣٠٣

ابراهيم الصائغ وأنزل فيها فقيراً عجمياً من فقراء الشيخ تقي الدين^(١) وقوله في زاوية أبي السعود إن الشيخ أيوب السعودى قد انقطع بها وتبرك الناس به . . . ولعل هذا الظن غير بعيد الاحتمال ، فان الزاوية كان يراد بها في العالم الإسلامى المكان الذى يختلئ فيه العابد ، قال ابن العربى : من شرط الشيخ أن تكون له زاوية تخصه لا يمكن أحداً من أولاده من دخولها إلا من كان خصيصاً عنده ، وزاوية تخصه ينفرد بها وزاوية لاجتماعه بأصحابه ، ومن شرطه أن يجعل لكل مرید زاوية تخصه ينفرد بها وحده ، ولا يدخل فيها أحد غيره أبداً ، ويفنى للشيخ إذا قعد المرید في زاويته أى خلوته أن يدخلها الشيخ قبله . . . (٢).

وقال السهروردى إن الصوفية قد آثروا الاجتماع على العزلة لقوة عملهم ووضحة حالهم فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاويته (٣).

والظاهر أن الزوايا في هذين العصرين (الأيوبيين والمماليك) كانت لا تغنى بدراسة العلم (أى الدين) ولم يقيم بها نساء ولم تجر العادة بأن تقام فيها جمعة ، وقد أدت بساطتها وصغر حجمها وقلة مجاورها إلى ضالة الأحباس والأرزاق ، وأغناها هذا عن وجود المطابخ والطواحين والحمامات والمدافن بها كما كان الحال في الربط والخوانق .

نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني :

والآن نعود إلى ما بدأنا الكلام فيه ، متى نشأ التصوف في مصر بهذا المعنى ؟ . . ثم كيف تطور حتى صار إلى ما كان عليه أيام العثمانيين ؟ . قال المقريزى عند الكلام على خانقاه سعيد السعداء . . . لما استبد الناصر

(١) ص ٣٠٢ .

(٢) محمد السيادى : البهجة السنية في آداب الطريقة العلية النقشبندية ص ٤٦ .

(٣) عوارف للعارف ص ٦١ (على هامش الإحياء ج ٢) .

صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولة الأكراد، عمل هذه الدار (سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة... فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية...^(١) وقد أشرنا من قبل إلى خطأ على مبارك في تحديد هذا التاريخ.

ثم نشأت بعد ذلك خوانق وربط وزوايا أخرى عاش في أكثرها هؤلاء المتصوفة، وقلّ من هذه المعابد بأنواعها الثلاثة ما لم ينشأ بين النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن للهجرة، والظاهر أنها بدأت تتلاشى في أواخر هذا القرن عندما دب الضعف في حكم سلاطين المماليك البحرية، خصوصاً إذا لاحظنا انحطاط النيل سنة ٧٧٦ ثم سنة ٧٩٦، وأثر ذلك في بعض الخوانق كخانقاه ركن الدين. يبرس^(٢) ويسجل المقرئى سنة ست وثمانمئة للهجرة بداية لتاريخ المحن التي أصابت شتى مرافق الحياة في مصر، وهو العام الذي انتهت فيه دولة المماليك البحرية وتولت دولة المماليك الشراكسة، فنذ هذا التاريخ أخذ يتلاشى الكثير من الخوانق والربط والزوايا، فمن ذلك خانقاه شيخو التي أخذت أحوالها في التناقص بعد هذا التاريخ، حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف فيها عدة أشهر^(٣) وكذلك نقول في خانقاه بكتمر التي بطل الطعام والخبز فيها بعد هذا التاريخ، وانتقل سكانها إلى القاهرة وامتد التخريب إلى حمامها وبستانها وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ ضئيل من المال، وأقام بها حارس يتولى حراستها وتمزق ما كان فيها من الفرش والكتب وضاعت آلات النحاس والقناديل..

(١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٣، قطف الأزهار ص ٢٨٤.

(٢) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٨٣.

وغير ذلك بما أسلفنا الإشارة إليه^(١) وذلك ما أصاب خانقاه قوصون
وخانقاه سرياقوس^(٢).

ونقول مثل هذا في بعض الربط ، فرباط الآثار قد قلّ تردد الناس إليه
بعد تاريخ المحن ورباط البغدادية تلاشت أموره بعد هذا التاريخ^(٣) ويقال
مثل هذا في زوايا الظاهري والطراطرية والمغربل^(٤).

وبما يشهد بصحة هذا الفرض الذي رجحنا وقوعه ، أن مصر لم ينشأ فيها
بعد هذا التاريخ من الخوانق والربط والزوايا التي ذكرها المقربزي سوى
خانقاه الخروبية التي أنشأها السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة ، وثوى فيها
عشرة من الفقراء^(٥) ، ولهذا كله دلالة ومغزاه .

وما حانت نهاية القرن التاسع واقتربت بداية العاشر حتى كان هذا
التصوف الجمعي قد شاع وانتشر ، اعتنقه العوام والدجالون واتخذوه وسيلة للعيش
وأداة لتضليل الناس وخداعهم ، وكانت الأسباب التي مهدت لذلك قريبة الشبه
ببعض الأسباب التي سنسبها في الباب التالي لنشرح بها انتشار التصوف في
العصر العثماني ، لأن حكم السلاطين عندما دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال
(في أواخر أيامه) كان قريب الشبه بحكم العثمانيين في مصر ، والنتائج
التي ترتبت على هذا الفساد في الجالين توشك أن تكون واحدة فيما يتصل
بالتصوف .

وقد استحوالت الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الأعاجم - كما أشرنا
من قبل - ثم تطور الحال بالتكايا حتى أضحت أخيراً ملاجئ لإيواء
المرضى ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت . . . بقيت الربط
والزوايا ، فأما الأولى فيظهر أنها لبثت قائمة في مصر حتى نهاية عصر السلاطين ،

(١) خطط المقرزى ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٢) ص ٢٨٩ و ٢٨٦ .

(٣) ص ٢٩٥ - ٢٩٦ و ٢٩٤ .

(٤) ص ٢٩٢ .

(٥) ص ٢٩٩ و ٣٠١ .

قالناوى يقول إن رباط بركات الخياط قائم في الدرب الأحمر^(١). وبركات هذا قد توفي في العجم الذي دخل فيه العثمانيون مصر (٩٢٣ هـ)^(٢) ولسنا لانعثر على اسم الروابط في مثل هذا الوقت إلا لما ، مما يرجح الظن عندنا بأن اسمها قد أخذ يتلاشى في فترة الاضمحلال التي سبقت العصر العثماني .

أما الزوايا فلا يبعد أن يكون الكثير منها قد ظل قائماً لأنها أقدر على البقاء في مثل هذه الظروف من الربط والخوانق ، إذ أنها صغيرة لا تحتاج إلى مال طائل ، ولا يبعد كذلك أن يكون اسم الزوايا قد أطلق على كثير من الربط لأن الرباط في أصله لا يكاد يختلف عن الزاوية التي عرفت في العصر العثماني ، قال السهروردي والمقريزي إن المقوم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد^(٣) وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعوضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات^(٤). ولعل هذا أظهر ما في دعوة المتصوفة الذين عاشوا في العصر العثماني كما سنعرف بعد - وترجيح تحول الربط إلى زوايا غير بعيد ، فقد بلغ من أمر التشابه بينهما أن اختلط الحال على مؤرخ حديث عهد بها ، فلم يستطع أن يميز بين الربط والزوايا^(٥) ومثل هذا يمكن أن يقال في بعض الخوانق ، فكثيراً ما يصادفنا في مصادرنا النص على أن زاوية . . . (المهمندار مثلاً) كانت في الأصل خانقاه ثم تحولت إلى زاوية . . . ولما فشت الدروشة في العصر العثماني ، وافتن بها الناس ، علا

(١) الخطط التوقفية ج ٢ ص ٧ .

(٢) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) هوارف المعارف ص ٥٤ ، خطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٢ .

(٤) عوارف المعارف ص ٥٧ - ٥٨ ، خطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٥) هو صاحب الخطط التوقفية (أنظر ج ١ ص ٨٩) .

شأن الزوايا ، فانسح نطاقها وكثر المجاورون بها حتى بلغ عا. يدهم المئات . . .
ولانت حياتهم حتى أصبحت رفاهية عيشهم في رحابها مشارفتان الناس بها (١).
ولئن كان التصوف في مصر قد أخذ في الاضمحلال منذ أوائل القرن
التاسع الهجرى (أو قبل ذلك بقائل) فان من الراجح أن يكون قد عظم
خطره وتمشى الفساد في أوصاله ، وتهيأ لأهله سلطان واسع النطاق بمدود
الرحاب في أواخر هذا القرن وبداية القرن العاشر ، عند اضمحلال دولة
السلطان وبداية عصر العثمانيين ، لأسباب سنعرض لها بعد ، ولا بأس من
أن نبسط في إيجاز شيئا عن نفوذ الصوفية في هذه الفترة -- أى قبل مطلع
العصر العثماني في مصر .

نفوذ المتصوفة قبيل العصر العثماني :

لعل ما أسافناه يبرر القول بأن التصوف في مصر كان في جملته -- إلى هنا
العهد -- مقترنا بمعرفة الدين والعمل بأوامره ونواهيه ، واتصف أهله بالصلاح
والورع وسعة العلم بشئون الدين ، وكانت لهم مكانة ممتازة بفضل انقطاعهم
لعبادة الله وتبجيلهم لذكوره ، وبفضل هذا آمن الناس بهم واعتقد الكثيرون
في كراماتهم وأحسن بعض الحكام الظن بولايتهم ، وكان الاعوجاج في
سلوكهم أو التهاوت على طلب الدنيا عندهم يصادف عند جمهرة الناس استنكارا
واستياء ، ولكن الحال قد تطور في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر
الهجرى ، فانساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية
والاقتصادية إلى التدهور والاضمحلال ، ودخله العوام واعتقه الوصوليون
والادعاء ، وظهر في كبار رجاله الجهلة الأميون حتى تتلبذ الشعراني -- وهو
عملاق عصره -- على سبعين شيخا لا يعرف أحدهم علم النحو . . . (٢) بل كان

(١) أظن وصف الزوايا وبيان العيش الرفيع فيها وموازنة هذا بحياة الضنك عند
الفلاحين والتجار ومن إليهم خارجها في كتابنا : الشعراني لإمام التصوف في عصره ص ١١

١٤ و ٢٦ - ٣٦ .

(٢) الشعراني : البحر المورود ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون .. ولم يستهينوا بدراسة العلوم الشائعة في عصرهم وحدها ، بل أهمل بعضهم التمسك بأعظم مظاهر التصوف خطراً وهو الزهد ، فتهاافت هؤلاء البعض على الدنيا وتسابقوا إلى الظفر منها بأوفى نصيب ، وأهملوا القيام بفروض الدين ، وتوخوا التردد على أوامره ، وقاروا على أبسط نواحيه على ملا من الناس ، واطمأنوا بعد هذا إلى سمعتهم عند الشعب - حكامه وعلماؤه على السواء .. ١

وكان كبار متصوفة هذا العهد لا يقيمون الصلاة أبداً .. مدعين أنهم يقومون بأدائها في الأماكن المقدسة .. ١ وكان في طليعة هؤلاء عبد القادر الدشطلوطي وإبراهيم المتبولي وعلى الخواص^(١) وغيرهم من أصحاب الضرائح والمزارات ممن يوليهام العامة في مصر أبلغ آيات التقديس وأسمى مظاهر التقدير .. ١ وقد بلغ من نفوذ هؤلاء أن كانوا آثر عند الحكام وطبقات الشعب من كبار الفقهاء والعلماء المعاصرين ، فقد روى المؤرخون أن العثمانيين عندما ملكوا الشام وهموا بالزحف على مصر كان الأمراء المصريون قد تحققوا موت السلطان الغوري فاختروا من بينهم طومان باي ، لينخلفه في السلطنة ، فامتنع امتناعاً شديداً لأن خزانة بيت المسلمين كانت خاوية ولا ينتظر أن يمثل الأمراء لرأيه في مقاتلة العثمانيين دون أن يدمم بالمال ، فذهب الأمراء إلى أبي السعود الجارحي واستعانوا به فأحضر مصحفاً وطلب إلى الأمراء مجتمعين أن يقسموا عليه بطاعة طومان باي ، ففعلوا جميعاً وبهذا تولى السلطنة طومان باي^(٢) ، ولهذا الحادث دلالاته من حيث إثارة الجارحي على شيخ الإسلام ومفتي الديار وفقهاء المذاهب وسائر العلماء .. ١ وكثيراً ما كانت الشكاوى ترفع إليه في هذا العهد وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم

(١) الشعرائي: البواقي والجواهر ص ١٢٥ ج ١ . درر القواس ص ٥٥ - ٥٦ ، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ وفيها أن الدشطلوطي سافر للبحر ولكنه لم يدخل الحرم .. ١
(٢) ابن أبي عمير ج ٣ ص ٦٦ .

بالجلوس ، وقد حملوا الطوب والتراب في بناء زاويته (١) . . .
وقد ضاق السلطان الغورى بشمس الدين الديروطى + ٩٢١ لأنه يتهمة بالتقصير
في شأن الجهاد ، وتسامع الديروطى بذلك فمضى إليه حتى إذا حياه ، استقبل
السلطان تحيته بالصمت ، فقال الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال
السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال علام تحط علينا بين الناس
في ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ، فقال الشيخ عندك المال الذى
تعمرها به . ثم طال بينهما الجدل فقال الشيخ للسلطان قد نسيت نعم الله
عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك
من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، وراقك إلى أن صرت
سلطانا على الخلق ، عما قريب يصيبك المرض الذى لا ينجح معه طب ،
ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا مظلمًا ثم يدسون أنفك هذا في التراب ،
ثم تبعث عاريا عطشانا جائعا ثم تقف بين يدي الحكم العدل الذى لا يظلم
مثقلا ذرة ، ثم ينادى المبادئ من كان له حق أو مظلمة على الغورى
فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم حصرها إلى الله . ١١ .

وأرسل السلطان في طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال
والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه ، فما روى أعز من الشيخ ولا أذل
من السلطان في ذلك المجلس (٢) .

ومثل هذا يقال في موقف شمس الدين الحنفى + ٨٤٧ مع السلطان فرج
ابن برقوق (٣) ، ومع غيره من الملوك والأمراء (٤) وهذا شبيه بما كان يقع لغيره
من رجال الطريق مع هؤلاء الأكابرة . ١٠ .

(١) مناقب العلماء والصوفية ٢٠٦ (مخطوط للشمرانى) والطبقات الكبرى ج ٢ ص
١١٣ ، السكواكب الدرية ص ٤٧٨ .
(٢) الشمرانى : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٧ .
(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨١ ، بيت الصديق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢ ، بيت الصديق ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

فلتصور ما كان هؤلاء القوم من نفوذ على الاتباع والمريدين بعد أن
تهيأ لهم هذا السلطان كله عند حكام البلاد من سلاطين وأمراء - وكم ألف
خضعوا لكل ولي من هؤلاء واستكانوا له وآمنوا بدجله، واستسلموا لسلطانه
واستحالوا أداة في يده، يعوزها العقل وينقصها الحس... كان الشيخ على
وحيش ٩١٧٤ كما رأى رجلا يركب حماره، أنزله من فوقها، وقال له امسك
رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة... فان أبي الرجل تسمر في مكانه لا يستطيع
حراكا - أو هكذا خيل إليه من فرط اعتقاده في ولاية الشيخ... وان استجاب
لطلبه أدركه الحياء من سوء ما يفعل الشيخ على قارعة الطريق... (١)

سخر الشيوخ أتباعهم حتى في الانتقام ممن يندد بهم ويتعرض بالنقد لتصرفاتهم
فيطلق عليه أتباعهم يوسعون ضرابا ويشخونه طعنا ويردونه إلى السكوت عن
نقدهم كارها! كان السيوطي شيخ خانقاه سعيد السعداء، فرأى أهلها ينعمون
في أوقافها ولا يهتمون بتكاليفها، فوق أنهم غير معوزين، لأنهم يقتنون البغال
والسوارى ويحرمون الأموال، فقال لهم إن شرط الواقف ألا يمنح خبز
الخانقاه وجامكيتا لغير الفقراء المحتاجين الذين توفرت فيهم شروط الصوفية
المذكورة في رسالة القشيري وغيرها، فتاروا عليه وأوسعوه ضرابا وألقوه
في الميضاة بشبابه وفاخر بعضهم بأنه ضربه «بالقباب» على كتفيه... (٢)

وذلك فوق ما كان لهم من نفوذ وروحي عند العلماء، وقد كان بركات الحياط
٩٢٢٤ هـ موفور الثقة عند علماء الأزهر وحكام البلاد معا - وقد طلب إليه مفتي
الجامع مع فئة من العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة، فاعتذر بأنه لم يتعود
إقامتها... ثم استجاب للاحاقهم وتحرى أن يتطهر بماء قدر نجس، فلما ضاقوا به
انهال عليهم سبا وطعنا...، وضاق به الوالى مرة فضربه بعصاه، فغضب الشيخ
لهذا وأقام بياحه وهو يقول: والله يا زربون ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك...!

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) الشرائع: العهود المحمدية ١٨٠ - ١٨١ .

وتقول الرواية وسرعان ما أقبل الفرمان من قبل السلطان يحمل نبأ عز له. (١) واستطارت شهرته من جراء هذا المزل الذي كان وقوعه في مثل هذا العصر الفاق المضطرب أمرا طبيعيا مألوفاً ..

ومثل هذا يقال في موت علماء الأزهر على إبراهيم المواهي المتوفي سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، لأنه كان يقرر قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم ، بحجة أنه يتحدث في الماهية .. ولما أقبل على مجلسهم أحداخوانه في الطريق ، محمد المغربي ، أمسكوا عن الكلام عند ما رأوه ، فقال لهم : تكلموا حتى أتكلم معكم ، فلم يجرؤ أحد منهم على الكلام .. فقال لهم : نحن أحق بتنزيه الحق منكم معاشر الفقهاء ، ومن طلب إيضاح ذلك فليتقدم إلى أتكلم معه ، فسكتوا جميعاً .. فأخذ بيد إبراهيم ومضيا فلم يتبعها أحد من العلماء ... ثم عادوا فلحقوا بالمغربي وأخذوا يترضونه ، وهو ينهرهم غاضبا قائلا لهم إن الطريق ليست مجرد كلام كطريقكم ، إنما هي طريق ذوق فن أراد منكم الذوق فليات أخليه وأجوعه حتى أقطع قلبه ، وأرقه حتى يذوق ، وإلا فليكيف عن هذه الطائفة فان لحومهم سم قاتل (٢) وفي ذلك ما يشير إلى مدى نجاحهم في النزاع الذي كان يقوم بينهم وبين الفقهاء .

أشرفت مصر على العصر العثماني وهي على هذه الحال ، فماذا كان أمر المتصوفة فيها إبانه ... ؟ ذلك ما نعرفه في الفصل التالي :

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السالف ج ٢ ص ١٠١ .

الفصل الثاني

أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني

اتصال المصريين : المملوكي والعماني — حقيقة التصوف في هذا العصر
موقف التصوفة من دراسة العلم (الدين) — موقفهم من العمل
مبلغ إخلاصهم في دماويهم — وسائل اكتساب المشيخة — وصف
الزوايا — احصائية بأهم الزوايا — العبادة في رحاب الزوايا — الذكر
سندهم في ذكر الله — قيمة الذكر في عرفهم — طريقة الذكر
آداب الذكر — الخلوة — التزامات الخلوة — ثمرات الخلوة —
آية الخلوة الصادقة — أركان الطريق — تلقين الذكر — ادخال
الخلوة — ارغاء العذبة — الباس الحرقه .

* * *

تمهيد : اتصال العصر به

يكاد يتعقد الإجماع بين المؤرخين على أن المالمك كانوا على عكس العثمانيين
إذا وفدوا إلى مصر وتأقلبوا ، واستعاروا من أهلها ما كان لهم من عادات
وتقاليد ونحوها ، مما أدى إلى وجود الفوارق البينة بين حكمهم وحكم العثمانيين
ويرى المخضرمون من أهل التصوف أن بين هذين العصرين هوة سحيقة القرار
فالتصوف في العصر المملوكي يتسم بالصدق في عبادة الله والتجرد لذكره والزهد
في طلب الدنيا والإعراض عن مباحها ، أما تصوف العصر العثماني فإنه يتصف
بالدجل والخداع والشعوذة ، ويكاد شيخ هؤلاء الكتاب المخضرمين — وهو
الشعراني ٩٩٨ — ٩٧٣ هـ — أن يحدد الساعة بل الدقيقة التي انحل فيها الطريق
ودب فيه الفساد وأعوزه الصدق والإخلاص ، وقد بدا ذلك في رأيه عندما

مات أستاذه (المرصني) ٩٣١ هـ (١) بقية الخلف الصالح من أهل العصر المملوكي - وإن كان قد عاد - على عادته من مناقضة نفسه إلى تحديد هذا التاريخ بموت أبي العباس الحريشي ٩٤٥ هـ مرة وبموت طلائفة من المتصوفة الصادقين من أهل القرن العاشر مرة أخرى .

والرأى عندنا أن التصوف في حكم العثمانيين ، كان امتدادا للتصوف الذي عرف في أواخر عصر السلاطين وإن اختلفت تياراته في العمدين قوة وضعفا ومرذ الخطا في حكم الشعرائي ومن جرى مجراه ، إلى أن طبيعة الزهد من شأنها أن تحمل أهلها على احتقار الحياة والانصراف عن متاعها والنظر إلى مباحها بمنظار أسود ، ومن شأن هذا كله أن يؤدي بصاحبه إلى تقديس الماضي على حساب الحاضر - أما غير الزهدة من الكتاب المخضرمين الذين ذهبوا إلى هذا الرأى فقد كانوا يعيشون في جو يحمل على التبرم بالحاضر ويدفع إلى الحنين للماضي وبهذا زعم هؤلاء الكتاب أن بين التصوف في حاضرهم والتصوف في ماضيهم فرقا جوهريا كما قلنا من قبل ، فاذا أردنا أن ، نتق الزلل ونأمن وجه الشطط في أحكامنا ، وجب أن نكتفي بأخذ البيانات ومعرفة الحوادث من كتب هؤلاء الكتاب دون أن نعول على أحكامهم عليها كثيرا ولا قليلا ، فاذا التزمنا هذا المنهج في دراستنا عرفنا أن تصوف العصر المملوكي لا يختلف عن العصر العثماني في نوعه وأن ظهر فارق قليل الخطر في قوة التيار أو ضعفه ، ولا بأس من أن نسوق شاهدا واحدا ندلل به على منشأ الخطا عند هؤلاء الكتاب المخضرمين :

يعرضون إلى المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه في العصرين ، فيقولون في عصر المماليك إن الخواص والمتبولي والشطوطي كانوا لا يقيمون الصلاة أبدا وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على

(١) كما ورد في تكميل النور السافر ص ٢٩٦ وذكر الشعرائي وفاته في عام ١١٣ و١١٤

ملا من الناس .. اثم يقولون في عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية والبرهانية والقادرية وما إليها كانت لا تلتزم أوامر الدين ونواهيه ، قهمل الصلاة وترتكب الفاحشة .. الخ فتصوير موقف الفريقين من الدين في العصرين يوشك أن يكون واحدا ، فإذا تركنا رواية هذه الظاهرة إلى الحكم عليها عند هؤلاء الكتاب ، لاحظنا أنهم يقولون إن متصوفة العصر المملوكي كانوا يقومون بالصلاة في خفاء عن الناس في الأماكن المقدسة البعيدة ، وأن طي الأرض في ملح البصر كان جزءا من كراماتهم وأنهم كانوا يوهمون الناس بأنهم يرتكبون الفاحشة دون أن يقدموا على فعلها .. إنا فإن عرضوا للحكم على فرق العصر العثماني وسموها بالدجل والشعوذة ، وقالوا إن طريق الله لا يبيح لأهله الخروج على كتابه والتمرد على سنة رسوله .. وهذا كانت طريقتهم في التأويل منشأ الخطأ في أحكامهم . ومثل هذا يقال في تأويل الخلاف في أحكامهم مع الاتفاق في موضوعها

مفيدة التصوف في العصر العثماني :

كان التصوف في العصر العثماني لا يكاد يعدو الأغراض العملية التي أدت إلى وجوده ، وهي العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ومجاهدة النفس ورياضتها ونحو هذا مما أشرنا إليه من قبل ، فهو سلوك عملي لا نظر عقلي ، وقلبا كان هذا السلوك ينتهي بحال من أحوال الجذب والمحو والسكر والفناء ونحوه مما تحرى الكلام فيها أهل التصوف من قبل ، ومن هنا كان الطريق في هذا العصر أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح ، لأن التصوف نزعة فلسفية والدروشة أساليب خاصة في الذكر والعبادة ، ولم يكن روح العصر الذي عاشوا فيه ليلائم وجود مفكرين يحسنون النظر ويجيدون الفهم بالحدس والذوق ، وقد كان عصرا تستعبده الجمالة ويسيطر الاضمحلال على شتى نواحي الحياة فيه ، ولئن كانت عصور

الاضمحلال عند الشعوب لانتحلو من أفذاذ يسبقون زمانهم ، فان متصوفة العصر العثماني قد وضعوا آدابا ألزموا بها كل من سلك على يدهم ، وكان بعضها يقضى بمحبة الجهل وعدم التعلم على يد مدرس أو كتاب وتجنب التفكير فيما يعرض له من ظواهر أو يساور رأسه من خواطر وآراء ، فقضوا بذلك على الحياة العلمية عند أهل الطريق وقتلوا حيوية التفكير في أذهانهم ، وادعوا بأن الزهد في طلب الدنيا والاستهانة بملاذمها والإعراض عن شهواتها ، إذا صحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتهجد والعمل بما يرضى الله ، تكفل بأن يسلم صاحبه إلى حضرته ، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأسا من غير وساطة ، واستمد منه — تعالى — القوة التي ترفعه عن كافة البشر وتجعل في مقدوره إتيان الخوارق والكرامات ، ولما كان ادعاء هذا النوع من التصوف أمرا ميسورا لكل إنسان ، وكان روح العصر يكفل لمدعى التدين والتصوف وافر الاحترام وبالغ التقدير ويقبل بفضل ما انتشر فيه من مدقع الجهل كل مظاهر الدجل والشعوذة ، فقد كثر مدعوا الطريق في هذا العصر ، وتهايا لهم سلطان واسع النطاق ، وتغلغل نفوذهم في شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، وأضحى لهم من المريدين والأتباع كثرة يستعبدوها سلطان الشيوخ استعبادا فادحا وكلهم يدعون القدرة على فعل الكرامات وإتيان خوارق العادات ، والناس يستسلمون لهذه الظواهر سراعا ، ويقبلون على أهلها خفاقا ، فان عاجلوا تحليلها اشتطوا في أمرها ، وعزوها إلى قدرة مستمدة من قوة الله في سمائه وقد كان إيمان الحكام الأثرياء بهؤلاء الدجالين يحملهم على مساعدتهم بالمال الذي يكفل لهم العيش المنمى المترف ، ويحيطهم بالعطف الذي يهيء لهم أسباب الاطمئنان في الحياة الدنيا ، ووجد هؤلاء الأدعياء أن سذاجة الناس قد اغنتهم عن التزود بدراسة العلوم والتبحر في شئون الدين والسعى لاكتساب القوت وتحمل المشاق في ميادين العمل ، بل اغنتهم عن التزام الصدق في عبادة الله والزهد

في طلب الدنيا (١)

وبهذا كاد الدجل أن يطمس آية التصوف الصادق ويطغى نوره ..
وقد كان من أظهر مميزات التصوف في هذا العصر، تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية تتمثل في حياة أتباعه في رحاب الزوايا تحت إرشاد شيوخهم ممن مكنتهم شخصيتهم من اجتذاب المريدين، ويسرت لهم ثقة المحسنين من الأمراء والأثرياء، الذين تسكفوا بكل ما تتطلبه حياة هؤلاء المجاورين المنقطعين لعبادة الله في زواياهم، إذ كانوا يعيشون مع زوجاتهم من فيض الأوقاف التي تحبس عليهم والارزاق التي تجرى من أجلكم، وكانت هذه العطايا من السكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفاً، وأبدت حياة الشعب - من الفلاحين والتجار - حرماناً بالقياس إلى النعيم الذي عاش فيه هؤلاء المجاورون. وقد ملأوا حياتهم بذكر الله وواصلوا عبادته أفراداً وجماعات ليلاً ونهاراً وشغلوا وقتهم بالتهجد وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة ونحوها من شعائر الدين - وإن كثر بينهم من كان يعوزه الأخلاص في مواصلة هذه العبادات، والكثير من هذه الزوايا كان حريصاً على طلب العلم بقواعد التصوف وعقائد الدين في أمهات الكتب المعروفة (٢)

أما اتجاهات هذا التصوف ومذاهب أهله في مجال الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلقية والسياسية فقد أبنا عنها في كتابنا عن الشعراني - مثل هذا العصر - وسنشير إلى أعظمها أثراً في توجيه الحياة المصرية، عند ما نعرض لبيان هذا بعد .

وقد حفلت مصر بزوايا هؤلاء الشيوخ، وكانت تتمشى في نموها وسعتها

(١) توضح هذه الفكرة الأساليب التي ينبغي أهل الطريق في الظفر بالمشيخة وقد

شرحنا هذا في كتابنا عن الشعراني ص ٧٠ - ٧١

(٢) انظر في وصف الزوايا وتفصيل حياة المجاورين بها كتابنا عن « الشعراني » ص

ووفرة الرزق بها، طرديا مع نفوذ أصحابها وقدرتهم على إغراء المريدين بالانقياد لهم واجتذاب أهل اليسار إليهم . وقد كادت هذه الظاهرة أن تنقرض في مصر — بل في العالم الإسلامى كله — ولهذا آثرنا أن نسجل أسماء أظهر الزوايا التي عرضت لذكرها مصادر هذا العصر ، عسى أن يساعدنا هذا على تفهم الجو الصوفي الذى استغرق المصريين فى ذلك الحين ، ويسر لنا تقدير الأثر الذى ينتظر أن يكون له فى حياتهم .

أهم الزوايا فى هذا العصر :

زاوية ابن النقيب (وتعرف بزاوية بدر الدين المقدس) أنشأها السيد على ثم حولها أخوه بدر الدين ابن النقيب إلى جامع سنة ١٢٠٥ وكانت قائمة فى شارع القصاصين حارة البير قدار — زاوية أبى الحمايل (محمد السرو) سنة ٩٣٣ بين الصورين — زاوية أبى خوده (على) بالحسينية بالقرب من جامع الأمير شرف الدين الكردى — زاوية أبى السعود الجارحى المتوفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بالكوم الخارج بقرب جامع عمرو — زاوية الست آمنه زوجة البيومى سنة ١١٨٣ بحارة زوجها وبها معبده وضريحها — زاوية ابراهيم (أخى الدمرداش فى الطريق) سنة ٩٤٠ خارج باب زويله — زاوية البكتاشية خارج القاهرة — زاويتا البكرية : الأولى ببركة الرطلى والأخرى بجوار الإمام الشافعى — زاوية البيومى سنة ١٨٨٣ بالحسينية وقد شادها مصطفى باشا — زاوية تفكشان بحارة قنطرة عمر شاه جهة درب الحمامين أنشأها الأمير محمد تفكشان سنة ١١٤٢ وكما يؤخذ من الأبيات المنقوشة على بابها ، كان فوقها مكتب لتعليم الأطفال — زاوية جلال الدين البكرى سنة ١٠١٨ هـ أنشأها سنة ٩٩٦ بشارع الأزهر على مقربة من الجامع وقد كانت صغيرة ليس لها ميضاه ولا بئر ، بها حوض يملأ بالقرب بجوارها صهريج — زاوية الحبيبي جدها محمد الحبيبي شيخ طريقة الحبيبية سنة ١٢٤٧ هـ تقابل زاوية عز الدين الدمياطى التي ذكرها

المقرزى بشارع السيدة زينب وليست هي كما يتصور العامة - زاوية الحريثي
أنشأها عبدالرحمن الحريثي سنة ١١٨٧ - زاوية الحلوجي أسسها الشيخ مبارك
سنة ٦٨٨ كما قال المقرزى ودفن فيها عبيدالبقيني سنة ٩٣٠ والحلوجي، وكانت
تعرف به، بين المشهد الحسيني والجامع الأزهر (انظر زاوية عبيد البقيني)
- زاوية الحنفي بكوم الخارج بالقرب من جامع عمرو، زارها عبد الغني
النايلسي سنة ١١٠٠ - زاوية الخضيرى سنة ٩٦٥ (خلف مسجد طولون
بشارع الخضيرى) - زاوية الخلوقي (محمد كريم الدين سنة ٩٨٦) بشارع
الجدرية حارة الجدوية - زاوية الخواص (علي) بالحسينية - زاوية خوند
علي كذب من ضريح الشعراني بياب الشعرية علي بابها إلى اليوم حجر منقوش
عليه اسم فاطمه خوند تعبد فيها الشعراني فترة من الزمن - زاوية الدردير
(العدوي) بخط الكعكيين بجوار ضريح يحيى بن عقب وبها عدة ضرائح -
زاوية الدمرداش المحمدى سنة ٩٣٩ وقد دفن بها محمد بن عثمان دمرداش سنة
٥١١٩٤ - زاوية الديروطى بدمياط وقد دفن بها أبو العباس الحريثي ٩٤٥ -
زاوية الذاكر (تاج الدين) سنة نيف وعشرين وتسعمائة بجوار حمام الدود
خارج باب زويلة شارع السيوفية - زوايا رضوان : اثنان من إنشائه ، أنشأهما
١٠٦٠ إحداهما بشارع القرية والأخرى بشارع قصبه رضوان والخيمية
والمغربلين جدها عبدالرحمن كتخدأ والثالثة بها لوح من الرخام منقوش عليه
أن الأمير رضوان أحياها بعد الاندثار سنة ١٢٠٦ بشارع سويقة اللالا
(يبدأ عند انتهاء شارع الحنفي وينتهي بشارع الدرب الجديد) - زاوية الزاهد
(أحمد) بجوار زاوية المناوى بخط المقسم - زاوية السحيمي (أحمد) بقلعة
الجيل - زاوية السقاف (علي العربي الفاسي) سنة ١١٨٣ علي كذب من الفحامين
وتسمى أيضا زاوية ابن العربي - زاوية الصفيحة (أحمد) سنة ٩٤٢ بشبرا قبالة
القرية - زاوية سعودى المجذوب سنة ٩٤١ بسويقة العزى بقرب مدرسة السلطان
حسن وبها قبره - زاوية السادات (الوفاية) بها عدة ضرائح كمحمد سنة
١١٧٦ وعبد الرحمن العريشى والزيات بحارة السادات الوفاية بجوار سراى

المرحوم مصطفى باشا أخى الخديوى اسماعيل باشا عن يمين السالك من رأس
الحجارة إلى بركة الفيل - زاوية شاهين (الخلوتى) بسفح المقطم شارع دير النحاس
مصر العتيقة - زاوية الشامية أنشأها الست الشامية سنة ٩٩٤ هـ بشارع الجدرية
بقرب الفحامين - زاوية الشريبنى (عبد الوهاب) سنة ١١٨١ - زاوية الشناوى
(محمد) سنة ٩٣٢ بمحلة روح وله زاوية أخرى بخط بين الصورين وقددفن بالأولى -
زاوية الشعرانى (عبد الوهاب) سنة ٩٧٣ باب الشعرية - زاوية الشمعة (أو الصارم
أو عانوس) أنشأها الأمير شمعة أول القرن الثالث عشر الهجرى بشارع البيومى
تجاه عطفة الخواص - زاوية الشنبكى (أحمد) أنشئت سنة ٩٣٣ شارع بين
الحارات جهة باب الشعرية - زاوية عابدين أنشأها الأمير عابدين سنة ١٠٨٤
بشارع جامع أصلان بالتبانة - زاوية عبدالرحمن المنجذوب سنة ٩٤٤ بالحسينية
قرب جامع الملك الظاهر - زاوية عبيد البلقينى ، مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة
بقرب الجامع الأزهر بالخلاوية (هى زاوية الحلوجى) - زاوية عصفور (ابراهيم
عصيفير) سنة ٩٤٢ بخط بين الصورين تجاه زاوية أبى الحمايل - زاوية العجمى (بسفح
الجبيل) - الزاوية القادرية فى السكة الجديدة دفن فيها أحمد الجوهري سنة ١١٨٧
وهى بدرج شمس الدولة شارع الوراقين - زاوية الكليبانى (أبى الخير) أنشئت
سنة ٩٢٧ - زاوية الكلشنية - زاوية المتبولى (ابراهيم) شارع درب السماكين
شارع كلوت بك وبها ضريحه وله زاوية أخرى بالحسينية على يسار الخارج
منها إلى جنينة الشماشرجى المعروفة بجنينة السبع والضبع ولا صحة لزعم الناس
القائل بأن فيها ضريحه ، فان قبره باسدود بأرض الشام - زاوية مدين الأشمونى
كانت موجودة سنة ٩٥٢ كما قال المناوى بجوار زاوية الزاهد والمناوى - زاوية
مرشد + ٩٤٠ شارع جامع أصلان - زاوية المرصنى (على) سنة نيف وثلاثين
وتسعمائة بقنطرة الأمير حسن بمصر - زاوية مصطفى أغا وكيل دار السعادة بشارع
درب الجمامين سنة ١٢٠٧ - زاوية المناوى (عبد الرؤف) سنة ١٠٣١ بخط المقسم
زاويتا أحمد الزاهد ومدين الأشمونى - زاوية المنزلاوى (محمد ابن داود) بالسمية

قرية في بلاد المينزلة - زاوية المنزلاوى (عبد الحلیم) مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة - زاوية المنير (أحمد) المعروف بأبي طقية سنة ٩٣١ بخط المقسم بجوار زاوية الشيخ مدين - زاوية المنير أنشأها محمد بن حسن السنودى المعروف بالمنير آخر القرن الثمانى عشر بداخلها ضريح منشئها شارع اللبودية حارة مكسر الحطب بالقرب من قنطرة الموسيقى على يسار الذهاب من السكة الجديدة إلى الحراوى - زاوية المجذوب (على المصرى) سنة ٩٦١ داخل باب الشعريّة - زاوية المهمندار أنشئت كما يقول المقرئى مدرسة وخانقاه سنة ٧٢٥ ثم جددتها سليمان أغا الفازوغلى وجعل بها منارة ومنبراً بخط البرادعية من درب الأحمر - زاوية الموائى السندوبى ودفن بها ابن أخيه سنة ١١٤٠ كانت في مؤخر الجامع الكبير بالمنصورة - زاوية النشيل (شهاب الطويل) مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة بمصر العتيقة - زاوية نور الدين بن العظمة المجذوب عمرت له بشارع سويقة السباعين - زاوية يوسف بك شارع الحوض المرصود بجوار مدرسة السلاح وأنشأها الأمير يوسف بك وأقام بجوارها سيلا وحوضا لشرب الدواب سنة ١٠٤٤

هذا بعض ما صادفنا من أسماء الزوايا إبان هذا العصر ، أما عن حياة المجاورين في ظلها ، فقد تشابهت في أصولها وإن تفاوتت في مظاهرها وسعتها وعدد مجاوريها وألوان العيش بها ، وما من شك في أن التبت الذى عرضناه بأسمائها ناقص ، وليس أدل على هذا من أن جميع الطرق التى هدتنا المصادفة إلى أسمائها قد تجاوزت الثمانين .. !

فلنعرض موجزين طرفا من العبادات التى زاولوها في رحاب هذه الزوايا :

العبادة في رحاب الزوايا :

وقد كان أكبر ما يشغلهم من أمر هذه العبادات ، الانقطاع للتهجد وذكر الله وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن . ويلى هذا الاطلاع على

كتب التصوف والعلوم الدينية إجمالاً ، فلنعرض طرفاً من رأيهم في ذكر الله ، وهو أكبر هذه العبادات خطراً ، ملتزمين في هذا العرض تصوير الجو الروحي الذي عاشوا فيه كما توهموه هم ، لا بالقياس إلى هذا الجو في غير عصرهم :

الذكر :

كلمة تطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه بل بأفعاله (١) ، وذكر الله المندوب إليه في الكتاب والسنة هو التوجه لله تعالى بكليته سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق ، واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ، وسواء كان في ذلك قائماً أو جالساً أو نائماً فاذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، (٢) ولا يراد بالذكر تنزيه الله فان الله الكمال المطلق ، وما ثم شيء ينبغي أن ينزه عنه ، ومتى قصد الذاكر تنزيهه فقد ألحق به القبح بوجهه - تعالى الله عن ذلك - وليس يراد به طلب الحق فإله موجود أبداً والمفقود هو الذي يطلب ، هو معكم أينما كنتم ، (٣) وإنما يراد بذكر الله أن يشهد الذاكر ليلاً ونهاراً أنه بين يديه ، وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرننا (٤) وكل ما خلا ذلك من أطماع الذاكرين فهو سوء أدب (٥) ولهذا أريد بالإكثار من الذكر حصول الأانس للبريد حتى لا يغفل قلبه ويشهد الله دواماً فيراه بقلبه أو يرى نفسه في حضرته تعالى وكلا الحالين إذا دام منع صاحبه من الوقوع في المعاصي

(١) الرسالة المنصورية ٤٤٨ والفزالي يقصره على العبادات باللسان .

(٢) التعليم والارشاد ص ٦٤ وبيت الصديق ص ٢١

(٣) الفهراني : ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ص ٢٦

(٤) د اليهود المحمدية ص ٣١٤

(٥) ردع الفقراء ص ٢٧

وكفاه مواطن الزلل (١) والذكر عمدة الطريق كما سنعرف - والغرض من الطريق هو القرب من حضرة الله الخالصة ومجالسته فيها من غير حجاب (٢) لأن المتصوف يحب الله لذاته لا لإحسانه (٣) ولهذا وجب على الذكر أن يجعل ذكره للتعبد لا لطلب المقام (٤).

سندهم في ذكر الله :

مرد سندهم في هذا إلى رسول الله ، الذي قيل إنه لقن صحابته ذكر الله جماعات وأفرادا ، وقد حفلت المصادر ببيان هذا وتفصيل الطريقة التي اتبعها في الحالين (٥).

قيمه الذكر عندهم :

كان الذكر آثر العبادات عند أهل التصوف جميعا إبان هذا العصر - وإذا كان الغزالي يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى (٦) فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز فقال قائلهم إن الذكر آثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذي عرف عظمة ربه (٧) ولاعبرة بما يراه البعض من إثارة تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعا ، وانفقوا جميعا على أن ذكر الله والاشتغال

(١) الشعراوى : المهود المحمدية ص ١١٣

(٢) » : قواعد الصوفية ص ١١٤

(٣) » : الجواهر والدرر ص ٢١٥

(٤) » : درر القواس ص ٨٢

(٥) قواعد الصوفية ص ٩٨ وآداب التقبندية ص ٤١ ودلالة السائرین للسمنودى ص ٤٥

(٦) الأحياء للغزالي ج ١ ص ٦٤

(٧) قواعد الصوفية ص ٢٥

بريضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم (بالدين)^(١). على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون للمرید شغل إلا بربه ، وقالوا إن الذكر منشور الولاية أى أنه مرسوم بصدرة الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك الدنيا مرسومات ، بالحق كبار الموظفين فى الوظائف الشاغرة ، ومصادر التصرف فى هذا المصر حافلة ببيان قيمته واللجاجة فى تقديره وتقديسه ،^(٢).

ولم تكن هذه اللجاجة غريبة على من يرون أن الذاكر جليس الله وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وخدمهم ، وإذا كان ملوك الدنيا لا يأذنون لكل إنسان بالمشول بين يديهم ، وإن اشتهى ذلك ، فأحر بالخالق أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله .

ومن هنا اشتدوا فى حساب من يتغيب عن مجالس الذكر ، ولو اعتذر بالانصراف إلى دراسة الدين ، ومن ارتكب ذلك وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه ، وترك الاعتذار استهانة بمجالس الله^(٣).

طريقة الذكر :

كان ميل السواد الأعظم إلى الجهر ما وسع الذاكر ذلك ، حتى لقد حدد البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والجهة التى يميل فيها عند نطق كل كلمة^(٤). وإن صرح البعض بأن هزة الرأس والذقن فى الذكر ليست كل شىء فأمم منها احتراس القلب من الاسترسال فى خواطره ومزيد مراقبته للحق فى باطنه.

(١) العهود المحمدية ص ١١١ والبحر المورود ص ١٠٣

(٢) أظن مثلا قواعد الصوفية ص ١٤ — ١٥ والبحر المورود ص ٢٧٤ — ٢٧٥
وردع الفقراء ص ٢٧ وقواعد الصوفية ص ٢٠٦

(٣) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٦

(٤) قواعد الصوفية ص ١٧ ودلالة السائرين ص ٢٨ والسير إلى الله لمحمد البكرى ص ١١٩ وفى دلالة السائرين ص ١٤٤ شرح آخر لطريقة الذكر والنطق .

وظاهره^(١) وكلامه لا يفتي اهتمامهم بعنف الحركات وجمهورية الصوت . وقد شاعت الدعوة إلى هذا واستجاب لها الذاكرون كما سنعرف بعد قليل، وكانت حجتهم في رفع الصوت جمع شتات القلب وتجنب الحياء من الناس في ذكر الله^(٢) .

ويلاحظ أن الجهر بالذكر كان غير محبب إلى الكثيرين من العلماء وحملته الشريعة ، فاستنكروه ورموا أهله بالكفر والزندقة والعبث باسم الله ، ولهذا كثرت الرسائل التي وضعها العلماء في ذلك - وسنعرف شيئاً منها فيما بعد . وعنى بعض المتصوفة باستفتاء الفقهاء الذين يبيحون الجهر بالذكر وحملوا إلى الناس فتاويهم يبررون بها طريقتهم^(٣) ولدينا الكثير من الفتاوى بهذا الصدد وقد ثار العلماء يوماً على البيومي وجماعته لأسباب منها رفع أصواتهم في الذكر . واتصلوا ببعض الأمراء وكادوا أن يمنعوا الشيخ وجماعته من إقامة الذكر بالمشهد الحسيني كما اعتاد ذلك كل ثلاثاء ، ولولا أن الشيخ الشبراوي تدخل لنصرتهم ورفع البيومي عند الباشا لم لخصومه ما أرادوا^(٤) .

ولم يكن العلماء وحدهم الذين يكرهون الجهر بالذكر في المساجد ، فقد وجد بين المتصوفة من لا يبيحونه إذا نشأ منه تشويش على الذين يقيمون الصلاة أو يستمعون إلى حديث الوعاظ ، بل حرموه إن كان فيه إقلاق لراحة نائم^(٥) وقد صرح بهذا (الشعراني) وإن كان قد حتم على من أراد منع الجهر بالذكر التزام الحكمة في طلبه ، وسياسة الذاكرين بالحنكة وحسن المعاملة ، واستشهاد

(١) الرسالة المنصورية ص ٤٤٨

(٢) قواعد الصوفية ص ١١٢

(٣) عبد الفتي النابلسي : رحلة النابلسي ١٣٤ إلى سنة ١٣٧

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩

(٥) البحر المورود ص ٢٢٧ ضد ٢٢٨

بالجنيد حين وقع له مع الإمام أحمد بن صريح جدال بهذا الصدد انتهى
باتتصار شيخ الطريقة (١) والظاهر أن الشعرائي قد انساق إلى هذا التحذير
من فرط ما ناله من الوعاظ الذين ساءم جهره بالذكر مع جماعته كما سنعرف
بعد (٢).

على أن الجهر بالذكر كان في الجملة أحب لى أهل التصوف وفاء بحق الملائكة
الكاتبين، فانهم رسل الله إلينا يكتبون أقوالنا وأفعالنا فنحجر بذكر الله رغبة في
إشاعة السرور في قلوبهم ، لأن الملائكة تتفاخر بأعمال أصحابها كما يقول
الشعرائي (٣) ثم إن الذكر سرأ قد يؤذى صاحبه ويشوى كبده ويحرق بطنه ..
وقد وقع ذلك لجماعة الشيخ عمر ببلاد المعجم - وهو شيخ الشيخ دمرdash
بمصر - حرم كبير المفتين على جماعته الجهر بالذكر وكانوا يبلغون الخمسة
آلاف عدا ، فلما فرغوا من مجلس الذكر الذي التزموا فيه السرية حملوا منه في
ذلك اليوم نحو نصف ألف أدرتهم المراض واحترقت أكباد نحو أربعة عشر
نفساً وخرجت من جنوبهم .. !! وقد زعم راوى الحكاية للشعرائي أنه حسس
بيده على أكبادهم فتبين أنها مشوية محروقة كالسكب المشوى على الجمر .. !! (٤)
وقد سارت البكرية على الجهر بالذكر من قديم الزمان فهي اليوم تبيح للفرق ،
وقديما كان الحنفى + ٨٤٧ يأمر أصحابه برفع أصواتهم بالذكر في الأسواق
والشوارع والمواضع الخربة المهجورة حتى تشهد للذاكرين يوم الدين (٥).

وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت في هذا العصر ، بدأ المنشدون ينشدون
الاشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين وإن كان بعض الصوفية الذين زاروا

(١) المهود الحمديّة ص ١١٢

(٢) المناقب الكبرى ص ٢٤١ انظر كتابنا عن الشعرائي

(٣) البحر المورود ص ٢٣٣

(٤) المهود الحمديّة ص ١١٢

(٥) الشعرائي : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٧

مصر في العصر العثماني وكانت لهم مكانة ملحوظة عند أهل التصوف، يرون أن إنشاد أشعار العارفين - من ابن العربي والتلمساني وغيرهما من السادة الصوفية - لا يجوز لغير القادرين على فهمها الذين لا تليهم بالطرب النفساني وإلا كانت مجرد لهُو وبطالة^(١) ويقول (عبد الغني النابلسي) إن الصعق والزعق والصياح والاضطراب والتواجد عند سماع المغنيين في مجالس الذكر جعل من أصحابها، إلا إذا قام الذاكر للتواجد قومة المضطر الذي استفزته المعاني الإلهية الواردة على قلبه وخاطره في ذلك الوقت - والكمال دوماً في السكون^(٢) والظاهر أن هذا الرأي لم يكن شائعاً بين الذاكرين في مصر، فقد وصف النابلسي في كتاب آخر مجالس الذكر في جامع عمرو بن الفارض فذكر الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العائم ونزع الثياب والزحام ونحو ذلك^(٣).

وكان يملأ الكثير من هذه المجالس الطبول والنايات والأعلام والرايات، وقد رأى النابلسي أنها لهُو وجهل وبطالة لا ينبغي للشيخ المرشد أن يقر عليها أصحابه^(٤).

آداب الذكر:

وضعوا للذكر كثيراً من الآداب يسبق بعضها الذكر ويصحبه بعضها ويعقبه بعضها الآخر، فأولها التوبة والتطهر والصلاة ونحوها، وثانيها يحدد طريقة الجلوس والجو الذي يختار لذلك، وحالة القلب والخاطر واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك، وثالثها التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عنه، وشرب الماء البارد^(٥)... الخ

(١) النابلسي: كشف النور ص ٩٢ (٢) كشف النور ص ٩١

(٣) رحلة النابلسي ص ١٤٠ - ١٤١ (٤) كشف النور ص ٩١

(٥) قواعد الصوفية ص ١٥ (وكل نس لم يذكر مصدره في آداب الذكر فهو مأخوذ عن هذا الكتاب ص ١٥ - ١٨ وقد نقل صاحب كتاب (آداب التقييندية) هذه الآداب ص ٤٩ وما بعدها وكذلك فعل صاحب دلالة السائرين ص ٢٤ وما بعدها السير إلى الله ص ٥١٩ وتحفة المالك ٤٥٩ والوجه المقابل لصفحة ٤٥٩ (في المخطوط)

ثمرات الذكر :

يؤدي الذكر إلى التزام الطاعات وتجنب المعاصي، بل يسلم الذاكر إلى حضرة الله، فيضحى الحق سمعه وبصره وكل قواه، فينبثق العلم في نفسه، ويزايله الشك في أمره، ويصبح باتصاله بالله قويا بعد ضعف آمنا بعد خوف، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل ١٠٠

هذه أوامم تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة، الذين أعوزهم العيش على ما يحبون، وجعلوا الاتصال العلي، الذي يربط بين المعلولات وعالمها، فصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون ١٠٠

الخلوة :

كان المراد بالخلوة اعتزال المرید للناس للتفرغ لذكر الله والانقطاع لعبادته، ولهذا كثرت الخلوات بين جدران الزوايا وخارج جدرانها، روى النابلسي في رحلته إلى مصر أنه لما زار زاوية الدمرداش رأى خارج ضريحه ٥ نحو خمسين أو ستين خلوة ذات أسوار وأنوار، وهي التي تسمى مساجد الأنوار محتلى بها المریدون، وصعد إلى سطح هذا القصر العالي (الزاوية) فوجد هناك رواقا كبيرا يتلألأ نوره وفيه كذلك كثير من الخلوات (١).

ولعل انتشار الزوايا في أرض مصر يساعد على تصور كثرة الخلوات التي عرفها أهل التصوف أيام العثمانيين، بل لم تكن الزوايا وحدها مقر الخلوات، فقد وجد بين المتصوفة من أخلص العبادة لله أو لمنفعة نفسه دون أن تكون له زاوية يقيم فيها مع مرديه . وقد أقام بعض هؤلاء مغاور، يختلون بها للتعبد والذكر . وكان بعض هذه المغاور رحباً ملحوظ التناسق . فكانت مغارة الشريف أبي عبد الله المغاورى منقوشة في الجبل مستوية مهندمة طولها داخل الجبل نحو خمسة وستين ومائة قدم وعرضها

أكثر من عشرة أذرع،^(١) وكانت الخلوات تقام أحيانا في المنازل وتزدان جدرانها بالكلمات المأثورة وقد كانت خلوة جلال الدين البكري بداره قاعة صغيرة جدا بايوانين متقابلين وهي دلطيفة البناء ظريفة الفناء بها النور الساطع والسر اللامع القاطع ، وعلى جدرانها اثنان وعشرون بيتا من الشعر نظمت بتاريخ عام ٩٧٩ هـ^(٢) .

التزامات الخلوة :

وللخلوة التزامات لا تستقيم بدونها ، كأن يعود المرید نفسه قبل دخولها ندره الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم في خلوته ، لأن الجوع يحلل من جسمه الأجزاء الترايبية والمائية . أما الشبع والارتواء فيجلبان النوم ويصرفان عن ذكر الله . ومن الأدب تيقظ القلب في حضرة الله ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب . يقول عمر بن الفارض :

إذا ما بدت ليسلي فسكلى أعين وإن هي ناجتني فسكلى مسامع^(٣)
ومن آدابها صفاء النية والرغبة في الكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره^(٤) وانقطاع المرید عن زوجه وولده وعشيرته وسائر الناس^(٥) ، وإدانة تفكيره في شيخه ، مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التي لن يبرحها إلى يوم الدين كما يقول الشعرائى والمنير^(٦) وإن تفاوت أهل التصوف في ذلك^(٧) ،

(١) رحلة النابلسى ص ١٤٠

(٢) رحلة النابلسى ص ١٣٠ وبيت الصديق لحيد توفيق البكرى ص ٦٢ — ٦٣

(٣) السبوح المحمدية ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٤) على البيومى : خواص سورة الفاتحة ص ١٣ و ١٤ ودلالة السائرين ص ٦٠

(٥) على البيومى : خواص سورة الفاتحة ص ١٤ (مخطوط)

(٦) دلالة السائرين ص ٧٠

(٧) انظر خواص سورة الفاتحة ص ١٣ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٧

و ص ٧٩ والكواكب الدرية ودلالة السائرين ص ٦٩

هذا بالإضافة إلى آداب المريدين نحو الصور والأشباح التي تترامى له، وعلى المريدين ألا يكتفوا عن شيخه ما يراه في أثناء خلوته (١) مما ينشأ عن الجو المعنوي الذي يحيط به نفسه، وهذا فوق شروط الخلوة (٢) ونحوها .

ثمرات الخلوة:

إذا صححت الخلوة أفلحت الرياضة وأتمت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل، منها أن يكشف المريدين عالم الغيب المحجب، ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف في الكون بالهمة فيمشي على الماء ويطير في الهواء ويقنح النيران ويفعل كل ما لا يقوى عليه سائر البشر (٣) أقام المزلاب في خلوته نحو عام يقرأ في الليل ختماً وفي النهار ختماً ثم خرج ينفق من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون في زاويته وقد بلغوا المائة عدداً ويتعهد بالانفاق وجوه البر والخير من تعمیر المساجد وبناء المدارس ومد الأسمطة وغير ذلك (٤) وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء العجزة الذين أعوزتهم القدرة على الضرب في زحمة الحياة، والظفر من الدنيا بأوفى نصيب، فالتسوا في عالم الخيال بتحقيق ما يشتهون ..!

أركان الطريق:

قالوا إن العصر العثماني قد أقبل وللطريق في مصر أركان أربعة لا يستقيم بغيرها، ولا يتولى المشيخة واحد من أهلها إلا إذا توفرت فيه خصائص هذه الأركان - التي تهيأت لأرباب الطريق قبل العصر العثماني في عرف الداعين إليها - وهذه الأركان هي: تلقين الذكر، إدخال الخلوة، إرخاء العدة (٥)

(١) أنظر عبد القادر العبدروسي: تكميل النور السافر ص ٢٣٨ والجبرتي ج ١ ص ٣٤٠

(٢) دلالة السائرين ص ٦٢

(٣) كتب الطبقات والمناقب حافلة بهذا النوع من الكرامات .

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧

(٥) الشعرائي: الجوهر المصون ص ١ (مخطوطة)

— وهي الزيادة المدلاة من العامة — وإلباس الخزقة . وهي عرقية وجبة ورداء (١) ، أو طاقية من القطن (٢) ، أو هي الأثر قيصا أو رداء أو جبة أو حمامة . . . وللشيخ الذي يقوم بهذه المهام الأربعة شروط تخرجه في عرف المنطق عن نطاق البشر (٣) . . .

هذه هي الأركان الأربعة التي هيأها الوهم لأرباب الطريق ، وفي الحق لقد كان لهذا الوهم ما يبرره ، فقد فشى الدجل واستشرى داؤه وكثر أذعياء التصوف واستفحل أمرهم ، وقد بلغ عديد الطوائف التي هدتنا المصادفة الى معرفة أسمائها نحو الثمانين طائفة . لكل منها معسكرات في القرى والأقاليم ، وهذا خلا الذين ادعوا التصوف مستقلين عن الفرق وشيوخها . . . ومن الخير الآن أن نبسط الحديث في هذه الطوائف وليكن ذلك في الفصل التالي :

(١) انظر قواعد الصوفية ص ٢٠ و ٢٣٦ — ٧ والجوهر الصون ص ٣ و ٤ ودرر

الفواس ص ٧٢

(٢) المناب الكبرى لمحمد المبيج ص ٢٧

(٣) المناب الكبرى ص ٦٥ — ٦٦

الفصل الثالث

في الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية — حال الطرق في وقتنا الحاضر —
الطرق أيام العثمانيين . احصائية ببعض أسمائها —
ميزات الفرق — تلاشي الفروق بين الطوائف

نشأة الطرق الصوفية :

يرى الأستاذ ماكدونالد أن المسلمين قد أثقلهم الجزع من الله الذي تخيلوه في صورة المستقم الجبار، وضاقوا بالحياة لأن الفناء يدركها والشر يملأها، وتصوروا الخير الأبدى في الآخرة وحدها فمالوا إلى الزهد في طلب الدنيا والإعراض عن مباحها، مخافة أن ينزل بهم غضب الله، وانطلق بعضهم هائماً على وجهه لا يعرف لنفسه مقصداً ولا لحياته غاية، وكان هذا أظهر آيات الصوفي الصادق يومذاك، ثم استسلم الصغار لقيادة من يكبرونهم سناً وخبرة، فتألفت جماعات صغيرة تضم تلامذة يلتفون حول شيخهم الموقر، وبذلك ظهر نظام الإخوان في الإسلام وأنشئت الخوارج — في غير مصر — منذ القرن الثاني للهجرة (١). وكان كبار الناسكين والأولياء يجمعون حولهم طوائف من الاتباع (الدرأويش) يحملون اسمهم، ومن أقدم هذه الفرق: القادرية التي أسسها عبد القادر الجيلاني سنة ٥٦١ والرفاعية التي أنشأها أحمد

(١) وقيل في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (انظر ص ١٠٨ في كتاب الحياة الروحية في الاسلام لزميلنا الدكتور محمد مصطفى جلى)

الرفاعي + ٥٧٦ والشاذلية التي نسبت إلى الشاذلي + ٦٥٦ والأحمدية التي أنشأها أحمد البدوي + ٦٧٥ والنقشبندية التي أنشأها محمد النقشبندی + ٧٩١ والمولوية التي أسسها الشاعر الفارسي المعروف جلال الدين الرومي + ٦٧٣ هـ. ولا تزال هذه الطوائف وغيرها من الفرق التي نشأت بعدها قائمة إلى يومنا الحاضر. وثمة فرق اندثرت بعد أن قامت بفترة من الزمن، فابن سبعين كان له أتباع يحملون اسمه بعد مماته ولكن الزمان قد عفى عليهم فيما يلوح.

وكما ادعى المتصوفة أنهم ينحدرون من سلالة أتقياء المسلمين — ولاسيما العشرة الذين بشرهم النبي بدخول الجنة — فقد وجد من يدعون أنهم ينتسبون إلى الخلفاء الأول، وفي مصر من هؤلاء سلالة أبي بكر الصديق ولها نفوذ على شتى الطرق الأخرى كما أشار ماكدونالد^(١).

وقال علي مبارك إن أغلب الطرق منسوب إلى أربعة من كبار الأولياء : عبدالقادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي، فإن لكل منهم طريقة واحدة خاصة ثم تعددت الطرق بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بالوساطة ونسبت إلى الآخذين عنهم لتفرعها عن الأصل — أجدالسيادة الأقطاب الأربعة — وتعددت الفروع حتى بلغت الأحمدية ستة عشر فرعا وفي البرهامية فرعين. «وقامت طرق أخرى مستقلة عن الأقطاب الأربعة كالسعدية والنقشبندية والشاذلية التي تفرعت إلى أربعة عشر فرعا تفرع أحدها مرة أخرى (الخلوتية) إلى أربعة فروع^(٢) ولكن الأستاذ «ابن» يذكر السعدية على أنها فرع من فروع الرفاعية^(٣).

وفي طبقات الشرنوبلي + ٩٩٤ أحد متصوفة العصر العثماني قصة خيالية طريفة أوضح فيها كيف اقتسم هؤلاء الأقطاب الأربعة الأرض فيما بينهم فكان لكل قطب ربعها، وقد صور في القصة النزاع الذي قام بينهم عند اقتسام الأرض

1. D. B. Macdonald : Muslim Theology (1903) page 177 (١)

(٢) الخطة التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ (٣) ابن Lane ص ٢٤٨

وتدخل الله وملائكته ورسوله وأوليائه للفصل في قضيتهم ، ثم كيف ارتدوا جميعا بعد النزاع أصدقاء واخوانا (١).

ولعل ما أسلفناه في هذا الفصل وما قبله يبرر الظن بأن تأسيس الطرق كان أمراً مردّه إلى شخصية الشيوخ ومهارتهم ، فقد يتسبب الشيخ إلى إحدى الطرق الأربعة أو غيرها فيجذب إليه كثرة من الأتباع والمريدين يحملون اسمه في حياته ، فإذا مات خلفه ابنه أو أحد مريديه أو أقاربه كما عرفنا من قبل ، وتسلست الخلافة واستقلت طريقتة ، وحمل أهلها اسمه بعد مماته ، وقد تفرغ عن طريقتة فيما بعد طرق أخرى بأسماء جديدة - كما أشار على مبارك وكما سنعرف بعد قليل .

ولسنا نعرف التاريخ الذي قامت فيه الطرق الصوفية في مصر على وجه التحقيق ، والراجح عندنا أنها نشأت بعد قيام الخوانق والربط والزوايا التي أسلفنا الحديث عنها في الفصل الأول ، ويؤيد هذا ما عرفناه الآن من أن نشأة الفرق في الإسلام كانت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وفي هذا التاريخ نشأت الخوانق في مصر كما عرفنا من قبل ، وأكبر الظن عندنا أن مصر لم تسكد تشرف على العصر العثماني ، حتى كانت تضم كثرة من الطوائف الصوفية نرى أسماءها تتردد كثيرا في كتب المخضرمين من كتاب العصر ، وفي طليعتهم الشعرائي .

مال الطرق في وقتنا الحاضر :

والآن نحاول تأريخ بعض الجوانب في الطرق الصوفية التي كانت قائمة في مصر إبان العصر العثماني فنحصى أسماءها ونحدد مميزاتها ونكشف عن علاقة شيوخها بالبلاد النائية عن مكرم ، ولما كان ميدان هذا الحديث مغلما حالك الظلام ، وكان الكثير من الأمور تراثا يرثه الخلف عن السلف ،

(١) طبقات العبرنوبي لمحمد البلقيني من ص ٣٩ إلى ٤٧

فقد آثرت الاستعانة على توضيحه بذكر تمهيد موجز بين حال الطريق في يومنا الحاضر :

الطرق الصوفية القائمة اليوم في مصر خمس وأربعون طريقة^(١) لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع ، ثم خلفاء في البلدان والقرى^(٢) لكل منهم مريدون يسلكون على طريقة الشيخ ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب ويعينهم وفق ما يقتضيه هواه ، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم على أكمل وجه يقتضيه الشرع^(٣).

قد هداني انصالي ببعض كبار شيوخ الطرق في وقتنا الحاضر إلى أن الفوارق التي تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم ، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم في أشخاص شيوخها . سألت صاحب السباحة السيد عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق السالف في مصر : لماذا كثرت الطرق ولم يقتصر شيوخها على طريقة واحدة .. ؟ فقال ولماذا كثرت في الدين المذاهب ولم يقتصر شيوخه على مذهب واحد .. ؟ قلت إن الفقهاء في كثير من المسائل على خلاف جوهرى أدى إلى وجود المذاهب المختلفة ، قال لعل أكبر الفوارق بين الطرق أن بعض شيوخها قد آثر العزلة عن الناس والابتعاد عن مشاغلهم محتليا بنفسه لينصرف إلى العبادة ويتفرغ إلى ذكر الله — وهؤلاء هم الخلوتية ومن سار سيرتهم . وآثر البعض الآخر ألا يقنع بعبادة الله بل يتصل بالناس ليتولاهم بالنصح والإرشاد

(١) من احصائية أمديني بها صاحب السباحة المرحوم السيد عبد الحميد البكري شيخ المشايخ السابق .

(٢) المادة التاسعة من الباب الثاني من لائحة الاجراءات الداخلية ص ١٣

(٣) وضع سباحة السيد توفيق البكري شيخ المشايخ السابق مع فريق من رجال التصوف كتابا دينا أسماه «التعليم والارشاد» ليستعين به مشايخ الطرق وخلفاؤهم على إرشاد المريدين .

ويرفع عنهم ما هم فيه من غي وضلال ، وأولئك هم الشاذلية ومن سار سيرتهم .

وإني لأذكر عند كتابة هذا شيخ الطريقة الحفنية (الحفناوى) + ١٨٨١ وأذكر ما رواه عنه الجبerty من أنه أخذ الطريقة الخلوتية عن السيد مصطفى البكرى ومع ذلك فقد كان قطب رضى الديار المصرية ولا يتم شىء فى الدولة إلا بأذنه .. (١)

والمطلع على لائحة الطرق الصوفية فى وقتنا الحاضر يتبين من موادها أنها ألغت أكثر الفروق التى كانت تميز الفرق بعضها عن بعض منذ القدم كما سنعرف بعد قليل . هذا حال الطرق فى وقتنا الحاضر فإذا كان حالها أيام العثمانيين ؟

اهمائية بالطرق أيام العثمانيين (٢) :

هدتنا المصادفة الى العشور على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عدداً ، فقد روى صاحب المناقب فى معرض الحديث عن الشعراى أنه أخذ الطرق « كلها » عن مشايخه وهى ست وعشرون طريقة هى طرق الرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهانية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والمدينية والفردوسية والخلوتية والحمدانية والطيفورية والشطارية والخضرية والأحمدية والعزيرية والسعودية والمصاحفة والطيلسان والرداء والمترى وإرخاء العدبة (٣) .

(١) الجبerty ج ١ ص ٣٠٥

(٢) وازن بين هذه الاحمائية وما يذكره الأستاذ « لين » Lane فى كتابه السالف الذكر من طرق صوفية فى مصر ، وما يورده الأستاذ ماسينيون فى مادة Tarika فى دائرة معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion & Ethics عن الطرق الصوفية فى الاسلام .

(٣) المناقب الكبرى ص ٦٦

والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ما قام في مصر إبان العصر الذي عاش فيه الشعرائي، فإن في الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر في هذا الثابت، تذكر منها الآن ما لم يذكر في ثبوت المناقب السالف. ذكر الشعرائي في أكثر من موضع في لطائف المنن فرقا منها: المطاوعة بالشرقية والصعيد (١) وفي قواعد التصوف يذكر طوائف البسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية (ولعلها البرهامية) والملامنية والحيدرية .. (٢)

وفي العصر العثماني وجدت فرق تصادفنا اسمائها في غير كتب الشعرائي منها ما رواه الجبرتي عن أصحاب البدع كجماعات العفيفي والسيان والعربي واليسوية (٣) وأخرى رواها في مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية (٤) والشعبية (٥) ثم الشناوية (٦) والشعرانية (٧) والمولوية (٨) ثم البرهامية والقدرية (٩). وذكر عبدالغني النابلسي في رحلته إلى مصر فرقا

(١) الشعرائي : لطائف المنن ج ١ ص ١٢ و ٢٣٤

(٢) . : قواعد التصوف ص ١٧٥ - ١٧٦

(٣) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٤) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت الوفاية للسيد توفيق البكري ص ١٩

(٦) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩ والنابلسي في رحلته ١٣٣ و «لين» ص ٢٤٩

(٧) الجبرتي ج ٢ ص ٢٢٦ (ترجمة لشيخ سباجتها الشيخ عبد الرحمن الشعرائي سنة

١٢٠٥ هـ وذكرها الأستاذ لين ص ٢٤٩

(٨) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٦

(٩) (والراجع أن للراد بالأولى « البرهامية » وقد كثر تحريفها واختلف المؤرخون

في اسمها فالسيد توفيق البكري (٢٧٣ من بيت الصديق) والسيد عبد الحميد (في الاحصائية السابقة الذكر) والشعرائي أحيانا (١٢ و ٣٣٤ ج ١ لطائف) يذكرونها « البرهامية » وصاحب المناقب الكبرى يذكرها البرهانية (ص ٦٦) . أما الجبرتي (ج ٣ ص ٦) وعلى مبارك (الخطط ج ٣ ص ١٣٠) والشعرائي (الميود المحمدية ص ٢٨١) فيذكرونها البراهمية والأصح فيما نعلم « البرهامية » والراجع أن الجبرتي يريد بالقدرية طائفة القادرية المروفة .

أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرداشية^(١) والبكتاشية^(٢) والكشنية^(٣).
وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية^(٤) (ولعلها جماعة
العفيفي التي ذكرها الجبرتي من قبل) .

وذكر على مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة
هي : المرازقة والكناسية والانباية والمنايفة والجمودية والسلامية والحلبية
والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) والبيومية والتسفيانية والشناوية
والعربية (ولعلها جماعة العربي السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية
ويذكر الأستاذ زين ، طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية^(٥) .

وقال إن الرفاعية لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هي البازية والملكية
والحبيبية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخا أما البيوت فيجمعها
شيخ واحد ، وأما القادرية فلا فروع لها ولا بيوت^(٦) . وأما البراهمة (أي
البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرانية (ولعله يريد الشرنوبية المنسوبة
إلى أحمد عثمان الشرنوبي صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٨٩٩٤ هـ)
وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هي الجوهرية والقاسمية والمدنية
(ولعلها المدنية التي رواها صاحب المناقب) والمكبية والهاشمية والفروسية والتهامية
والخندوشية والإدرسية والقاروقجية ، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هي

(١) رحلة النابلسي ١٣٣ و « زين » ص ١٤٩ (٢) رحلة النابلسي ص ١٠٣

(٣) رحلة النابلسي ١٠٦ ويرى على مبارك (في خطه ج ٣ ص ١٢٠) أنها تنسب إلى

إبراهيم سنة ٩٤٠ هـ

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٨ (٥) الأستاذ « زين » ص ٢٤٩

(٦) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ . وقد ذكر العيد توفيق في « بيت المعدني »
ص ٣٧٣ فرعين لهذه الطائفة هما الغارضية والقاسمية وذكر الأستاذ « زين » أن الخطبة
فرع من فروع الرفاعية كما قلنا منذ حين .

السمانية والعفيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إلى السيد مصطفى البكري^(١) وقد تفرع عنها أربع طرق هي الحفنية (المنسوبة إلى الحفناوى + ١١٨١ هـ) والسباعية والصاوية والضييفية^(٢) .

والظاهر أن الدر داشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية (المتفرعة عن الشاذلية) فان عبد الغنى النابلسى يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمخالجته الكيمياء فنفر عنه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمر داش حتى استقر شيخا للخلوتية في الديار المصرية^(٣) . ويتص صاحب تكميل النور السافر على أن محمد كريم الدين الخلوقي قد تلقى الخلوتية عن دمر داش المحمدي + ٩٣٣ هـ^(٤) . ولا ينبغي أن ننسى البكرية التي تزعمت الطريق فيما بعد .

وقد حاول السيد توفيق البكري أن يؤرخ الطرق الصوفية القائمة في العالم الإسلامى كله ، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ نشأتها كانت تحمله على الاكتفاء في تأريخ أكثرها بأن يقول « منسوبة إلى فلان ، أو موجودة بمصر الآن^(٥) » وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التي تحدث عنها على مبارك وإن كان الراجح على الظن أن أكثرها كان قائما في العصر العثماني ، فقد كتبت الخطط التوفيقية بعد هذا العصر بأقل من قرن كان سلطان الصوفية فيه قد أخذ يضمحل — وإن كان ذلك لا يبرر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضمحل السلطان

(١) هذا رأى على مبارك والراجح أنه غير صحيح فالطريقة الخلوتية كانت قائمة في مصر قبل مصطفى البكري وكان زعيمها في مستهل العصر العثماني دمر داش المحمدي وتلاه تلميذه محمد كريم الدين الخلوقي .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠

(٣) رحلة النابلسى ص ١٣٩

(٤) تكميل النور السائر ص ٧٥٣ (ويرى صاحب طبقات الشاذلية ص ١٣٦ أنه مات سنة ٩٣٩ هـ) ولعل الأول أصح .

(٥) بيت الصديق ص ٢٧٤ — ٢٨٦

الذى كان لأهلها فان عددها في السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من احصائيتين
نراهما في مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة في الزوال
بمرور الزمان .

مميزات الفرق :

الخصائص التي تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لا تكاد تذكر، وأولها
ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة، فأما عن الأول فقد
عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى
الأسمر كما يقول علي مبارك « والأستاذ لين، (١) أو الأسمر والأبيض كما
يقول السيد توفيق، وعرفت القادرية بالزى الأخضر وإن قال الأستاذ لين
أن يبارقهم وعمائم بيضاء (٢) وعرفت بالزى الأخضر كذلك السعدية (٣)
ويقول علي مبارك إن اعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم
وزيهم الذي يميزهم هو الفاروق، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب
المعتاد قراءتها ليس لها علم وزيهم الخاص هو التاج (٤) وكان التاج من مميزات
الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر (٥)

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفيلاً بتمييزهم، فان الزى الأخضر
مثلاً تنفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية بفرعها وكذلك نقول في
الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع. وكان أولاد

(١) « لين في كتابه ص ٣٤٨ يقول أن رايات الرفاعية سمراء وعماماتها سمراء أو
اللون الأزرق القاتم

(٢) « لين » ص ٢٤٩

(٣) بيت الصديق ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٨٨ — الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠

و« لين » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ .

(٥) تكميل النور السافر ص ٧٥٣ .

نوخ صفارا يرتدون جميعا طرايطير تزينها من القمة خصل من الخرق ذات
الألوان المختلفة ، ويتقلدون سيوفا من الخشب ويمسكون سوطا يسمونه
«فرقة» (١)

فأما وجه الخلاف بينها في طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثرنا عليه بين
ثنايا السطور بما ذهب أشتانا في بطون كتبهم ، إذ لم نهتد إلى مصدر عرض
لوجوه الخلاف بينها بإسماب ولا ايجاز .

والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها— كما يقول ذابن ، فلكل طائفة
ورد أو حزب أنشأه شيخها وحرص عليه أتباعه في حياته وبعد مماته، يرددونه
في الأوقات التي حددها لهم ويتلونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد
منهم ، لأن مدد الشيخ في ورده كما يقول الشعراي ، ولهذا كان من أعظم ما
يقع فيه المريد من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذي رتبته
صباحا ومساء ، وقد حتموا على المريد إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينهي
شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فان كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه
أمام إخوانه والاشتغال بالعلم ودراسة الدين لا يصلح قط أن يكون عذرا
يحتجى به من قصر في حضور مجالس الورد (٢) بل لقد اعتبر بعضهم التغيب
عن مثل هذه المجالس سببا يبرر طرد الشيخ للمزيد الذي يقدم عليه (٣) ، وقد
جرت العادة بأن يعتز الشيخ بورده ، فلا يأذن لأحد ممن يسلكون على يده
أن يقرأ ورد غيره ، فمن ذلك أن الشيخ محمود الكردي قد سلك على طريقة
القصيري ولكنه رأى الحفناوي + ١١٨١ هـ في رؤيا وقيل له هذا شيخك ،
فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية ، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة

(١) «ذابن» ص ٢٤٩ .

(٢) قواعد الصوفية ص ١٦٤—١٦٦ .

(٣) دلالة السارين ص ١٢٦ .

أوراد شيخه «القصيرى». فمات به في هذا شيخ شيخه «السيدمصطفى البكرى»، وكان الكردي قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بارشاد المرادين وتزيتهم، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى، فطلب اليه البكرى أن يستخير الله، ولما استجاب لمطلبه رأى في منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره، وقال القصيرى للرسول: أليست طريقتى على طريقتك، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك...؟ فلماذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى...؟ فقال البكرى: يا رسول الله، رجل سلك على أيدينا وتوليننا تربيتته، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا...؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل في أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة... ١١ ورأى الكردي في رؤيا وقعت له في الليلة التالية، أن أبا بكر الصديق يشير عليه باتباع السيد البكرى، ورأى بين السماء والأرض ورده وقد كتب بحروف مجسمة من النور، فأنشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك^(١).

على أن الأحزاب فيما نرى لا يميزها إلا اختلاف واضعيف لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه، وهى فى الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليبلغ الثمانين— كما فى نرى حزب الشناوى^(٢) أو الثلاثين كما نرى فى حزب الشعرانى^(٣) أو الثلاث مرات كما فى حزب الجارحى وغيره^(٤) بل لقد هدتنا المصادفة الى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله— ما عدا خاتمته— من حزب الخصوصية للسادة الوفائية^(٥) أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى، فما ندرى التاريخ الذى وضع فيه حزب

(١) الجبرتنى ج ٢ ص ٦٥ — ٦٦ ومن الواضح أن القصة مردها إلى حالة الكردي النفسية أثناء يقظته، فى إعجابيه بالفنناوى ومخاوفه من القصيرى واعتقاده فى البكرية... الخ

(٢) مجموعة الأحزاب ص ٣٤ (مخطوط)

(٣) مجموعة لأحزاب ص ٢٨

(٤) مجموعة الأحزاب ص ٣٣

(٥) مجموعة الأحزاب ص ٢٣ ثم ص ١٧٨ — ١٨٠

الوفائية هذا — ونلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزبين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكري (١) ومحمد أبي الحسن البكري (٢) وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى في بيت السادات البكرية والوفائية (٣) ووجه التمايز بين الأحزاب لا تكاد تظهر في غير الصياغة اللفظية. ولهذا فإن أظهر الفروقات بين الأحزاب فيما يلوح لنا هو اختلاف منشئها.

ويلى هذا في وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العشور على بعضها في بطون كتبهم، منها ما رواه الجبرتي عند الكلام على أهل البدع كجماعة العفيفي والسماني والعربي واليسوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم في ذكر الله فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والمواالات، ومنهم من يقول أيانا من بردة المديح للبوصيري، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي. وأما اليسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبال بعضهم صفيين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويتلوون ويتصنون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم

(١) مجموعة الأحزاب من + ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٣

(٢) مجموعة الأحزاب من + ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢٥٣

(٣) تنظر مجموعة الأحزاب السالفة الذكر، (فهرس رقم ١ المطبوع بدار الكتب في

التصوف والعلوم الدينية).

وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة تباين الأخرى، (١).

ويمتاز فقراء الخلوئية في ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي، ولهم في ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أزرخوا هذه الطريقة (٢) أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها تردد الأسماء السبعة على نمط مخصوص وفي فقرات متقطعة والأسماء الستة الأولى في الأذن اليسرى وهي: لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين ثم: الله - هو - حق - حي قيوم - ثم الاسم السابع في الأذن اليمنى وهو قهار - وقد أبان الدردير الطريقة التي تلقنها بها من الحفناوى المعروف (٣).

ولقد كان للسادات الدمرداشية والخلوئية والشناوية طريقة في ذكر الله، فقد رويناها عن عبد الغنى النابلسي وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض، وذكروا الله في رقصة يسمونها الهوية قائلين هو هو هو (٤) وكان بعضهم يركبون أياديهم إلى الوراة أمام رؤوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفييل والتلوى على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك. كما يقول محمد بن صفى الدين الحنفى (٥).

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله، حتى إذا طاب لهم الذكروا جدوا واضطربوا واستأقظوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض بل لا يستطيعون حرا كما حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيخهم، ومن كرامات بعضهم في هذه الحال

(١) الجبتي ج ٣ ص ٤١

(٢) الطريقة الصاوية ص ١٦ وما بعدها

(٣) الطريقة الصاوية ص ٣١ وما بعدها

(٤) رحلة النابلسي من ص ١٣٣ إلى ١٣٥

(٥) الصاعقة المحرقة ص ٢

إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى في أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم منفذ لذلك .. (١)

ولعله العرق الناشئ عن الجهد، قد لوثته قذرة البشرة أو الدم الذي ينبثق من جروح تنشأ عن عنف الحركات ...!

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز في عبادتها بذكر الله بصيغة يادائهم، فقد قال الشعرازي في ترجمة عبد العال المجذوب: «ورأيت مرة وهو صاعد كوم بلده فقلت في سري ياترى هل هو أحمدى أم برهامى فصاح: يادائهم يادائهم يشير إلى أنه برهامى (٢)» .

ويرجح الدكتور عفيفي القول بأن الملامتية لم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إتهام أهل الطرق المتأخرين، ولكن كانت لهم صفات وآداب تكفي في التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى من عاصروهم أو عاشوا بعدهم (٣) .

وفي السهروردي (٤) والمقريزي (٥) تفرقة بين الملامتية والقلندرية جاء فيها «أن الملامتي يعمل في كتم العبادات والقلندري يعمل في تخريب العادات واللامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه تسترا للحال حتى لا يفتن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله ومالا يعرف ولا يعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله، والظاهر أن حال الملامتية لم يتغير كثيرا في العصر العثماني عما كان عليه أيام المقريزي، فالشعرازي يقول إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور (٦) . وإن كان قد ذكرهم في كتاب آخر بين الفرق التي لا تتقيد بمظاهر الكتاب

(١) النصره الالهية للطائفة السعدية

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦١

(٣) أبو الملائكة: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٤

(٤) عوارف المعارف ص ٤٣ و٤٤ (على هامش ج ٢ من الأحياء)

(٥) خطط المقريزي ج ٤ ص ٣٠١

(٦) البحر المورود ص ٢٨١

والسنة^(١) وإن كان ابن عربي « يرفعهم — في فتوحاته — إلى مقام في الولاية لا يذانيهم فيه أحد ، فيما يقول الدكتور عفيق .

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون في حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون الكؤوس وأولاداً يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنوهم من الخلف تيمناً وبركة ، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رؤسهم أو على جنوبهم « ملاحف وسراويل ، فإذا انطلق الفقراء في الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كؤوسهم وكان لموكبهم ضجة عظيمة ، وقد كانوا يتخذون « أباريق ، يملأونها بالماء ويحملونها في أيديهم كلما ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين ، وسبجا كبيرة من الخشب أو العظام أو نحو ذلك ، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواقي من السعف وطرايطير يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها^(٢) .

ويعبر الجبرتي عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأَشَاير^(٣) والمراد بالأشَاير كما يقول على مبارك جموع كثيرة من أهل الطرق يسرون من منازلهم ليلاً وبأيديهم الشموع وهم رافعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد ، ولبعضهم عادات من الخلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة^(٤) .

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين ، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التي تقوم على طعن النفس بالمدى في حالة الغيبوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدرداد

(١) قواعد الصوفية ص ١٧٥ (مخطوط)

(٢) فتوى الشيخ على الصعدي (مخطوط)

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٨٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٤) المخطوط التوفيقية ج ٣ ص ١٣١

الأفاغى وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه (١) وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمتها على فاعليه ..

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر ، وكانت طريقتهم فى الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلى ركعتين بنية التوبة والإجابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلاً القبلة جاثياً على ركبته بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصقاً ركبته ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المرید بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فأنما ينكث على نفسه ... ثم يأمر المرید بأن يقول : أستغفر الله — أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ، تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسى عما نهى الله ، ورضيتك شيخاً لى ومرشداً لطريقة الرفاعى — فيقول له المرشد : وأنا أقتك مریداً بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم مریداً فى هذه الطريقة . أما طريقتهم فى تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث تردد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين ، وإن رأوا مد الصوت فى أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح — تحت الثدي اليمنى .. حتى يقردها ، لفظة الجلالة فى القلب الكائن تحت الثدي اليسرى باصبعين فإذا أتمها المرشد وضع جبهته على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والإخلاص والبركة .. ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو الطريقة بهذا الصدد مع ذكر أورادهم الخاصة بهم والأدعية التى ألفوا تلاوتها (٢).

أما الطريقة النقشبندية فإن طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المرید بين يدي شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيبين له الشيخ محل القلب

(١) الأستاذ « ابن » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، الغارة الإلهية فى الانتصار لسادة الرفاعية

ص ٣٦ و٣٣ والكتاب كله منسوب على منكرى هذا النوع من الكرامات .

(٢) القواعد المرعية فى أصول الطريقة الرفاعية .

الصنوبرى الشكل الكائن تحت التدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمريد يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الاخلاص ثلاث مرات ويهدى مثل ثوابهما إلى صحيفة النبي وصحيفة إمام الطريقة محمد الادريسي المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المريد أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه اليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقنه ما يناسب استعدادهم من أذكار نراها منشورة في الكتب التي تناولت آداب هذه الطريقة (١) ومن هذا نرى أن الفوارق في هذا الصدد شكلية تافهة .

وفي كتاب الأستاذ لين، وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية في المولد النبوي وغيره من موالد كبار الأولياء .

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية في هذا العصر ، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع للفقير بين عدة طرق ، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذي يبررون به هذا المسلك . فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسيني + ١١٨١ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية (٢) وجمع على البيومي + ١١٨٣ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية (٣) وجمع الشعراني + ٩٧٣ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيما سلف ، وجمع الدردير + ١٢٠١ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية (٤) .

تهنئة الفروع بين الطوائف :

وما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطاً في وجودها ما نراه من التطور الذي آلت إليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها ، فإن لأنحة الطرق الصوفية في وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيذاً لله ، صريحاً قياماً أو قعوداً مع

(١) آداب النقشبندية ص ٤٠ — ٤١

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٣٢٩ وطبقات الشاذلية ١٤٣

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٥ — ١٥٦

الخشوع والوقار^(١) وهذا التحديد قد أفقد العيسوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر ميمز لها كما روينا عن الجبرتي وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة الى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفي فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لأئحة الاجراءات الداخلية^(٢) وكذلك نقول في الرفاعية التي عرفنا الآن أعظم خصائصها، فإن اللائحة السالفة الذكر تقول: يبعد عن الطرق الصوفية « كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والهوام ودوس الأنعام بالأنعام ومحوها والذكر بهيئة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغانى المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار في الأضرحة ونحو ذلك^(٣) وفي ذلك ما يسلب الخلوئية والدمرداشية والشناوية وغيرهم ميمزا خاصا بهم في طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغنى النابلسي وغيره من قبل.

ولعل شعور أهل التصوف بضآلة الفارق بين طريقة وطريقة، هو الذي حملهم على أن يضعوا في لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة « يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة في اسمها واصطلاحها^(٤) فكان الخلاف الوحيد الذي يبرر استقلال طريقة أو قيامها هو الاسم والاصطلاح. بل إن وجود لائحة تسير عليها جميع الطرق وتحديد طرق العبادة على النحو الذي أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكبر ميمزات الفرق بعضها عن بعض. وقد أسلفت رأي صاحب السباحة شيخ مشايخ الطرق السابق في هذا الصدد.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولا نقول إن اللائحة التي وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء...؟

(١) لأئحة الاجراءات الداخلية المادة الثالثة من الباب الخامس ص ١٨

(٢) المادة الرابعة من الباب الثاني ص ١٢

(٣) المادة الثانية من الباب الخامس ص ١٧

(٤) « الخامسة » الباب الثاني ص ١٢

أليست تقول إن التصوف لا مقصد له غير العلم بالشرع والعمل به (١) . فما هي دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك ؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق التي تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها ، فكيف لا يصعب البحث عن المميزات التي كانت للطوائف منذ مئات السنين ... ؟ وأي طوائف ... ؟ هي التي هددتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها ، فكيف لا يتعذر على الباحث معرفة الفروق التي تميز كلا منها .. ؟

والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التي بلغت هذا العدد الرهيب رئيس عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل في مشاكلها .. ؟ ذلك ما نتناول الحديث عنه في الفصل التالي :

(١) المادة الأولى من الباب الخامس من لائحة الإجراءات من ٢٧

الفصل الرابع

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية

بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان في نشأتها بمصر ومبلغ الخطأ في مزاعمه —
رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه — نشأة هذا القرب في مصر
قبل العصر العثماني — تلاشى القرب في العصر العثماني .

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية في مصر حتى بلغ عديد أسمائها التي هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة في القرى والأقاليم، واستبد نفوذها بهوى الألوفا من الأتباع والمريدين، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة. أودان بالولاء لهم حكام البلاد وعلماء الدين وعامة الشعب جميعا، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة في توحيد الزعامة التي تخضع لها هذه الطرق، حتى تأمن شرها وتتقى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض البلاد... ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس واحد يتخيرونه، ليتكلم باسمهم ويفصل في مشاكلهم وينظم علاقاتهم .

ومشيخة مشايخ الطرق في وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملسكى، شيخ السجادة البكرية (والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى بين المشيختين) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت التصوف في مصر وأقدمها جميعا، فهو منحدر عن أبي بكر الصديق، وتاريخ نشأته في مصر يرجع إلى الفتح الإسلامى كما يقول على مبارك^(١) ويؤكد

السيد توفيق البكرى (١). وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن يجتمع مشايخ الطرق في القطر المصري في هيئة جمعية عمومية بديوان محافظة مصر تحت رئاسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيساً للمجلس ، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية (٢) وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل في منازعاتهم الخاصة بالطرق ، والحكم في الشكاوى التي تثار في هذا الصدد ، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية (٣). هذا مظهر التوحيد في رئاسة الطرق الصوفية في يومنا الحاضر . فهل توحدت رئاسة الطرق الصوفية في مصر إبان العصر العثماني ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق في مصر ، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأتها قبل العصر العثماني ، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون ؟

رأى هرهبى زبيراه ومناقشة مزاعمهم :

قال جرجى زيدان ، ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها ، فكانت تمكث بسبب ذلك الفتن ؛ فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان ... وما زالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع الهجرى ، فعملت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا ، قال الشعراى عنه (ولو قلت إنه أعلم أهل زمانه لم أبعث عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير

(١) بيت الصديق ص ١٩٠

(٢) المادة الثالثة من لائحة الطرق الصوفية ص ٣ ، ٤

(٣) المادتان الأولى والثانية من لائحة الطرق الصوفية ص ٣

أبو السرور البكري ، وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولا تزال إلى الآن في البيت البكري الصديقي بمصر ، (١) .

وهذا كلام سطحي ينطوى على أخطاء تزيد على الثمانية فيما يلوح . فلنشرح هذا قليلا :

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مغالطين ، لأنها تفرض قيام الزوايا في مصر قبل خانقاه سعيد السعداء - وذلك غير صحيح فيما نعلم - لأن هذه الخانقاه قد استحالت إلى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسمائة للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التي ذكرها المقرئ في خطه - وبلغت الست وعشرين عدا - ليس بينها زاوية واحدة نشأت في مصر قبل القرن السابع الهجري ، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهملها في تأريخه للزوايا . ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التي كان يثيرها أهل التصوف في هذا العصر ، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة لا خطر لها . كان التصوف في جملته إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية ، لم تتحول بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن يكون بهذا ماثرا للفتن ومصدرا للخطر . ولما أنشئت أول خانقاه جعلت للواردين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا ، وجل الزوايا والربط والخواق التي عرضنا للكلام عنها في الفصل السالف ، قد أقام فيها الأعاجم والأحباش وغيرهم من نزلاء مصر . وقد ظل عدد الدراويش المتجولين في شوارع مصر من الفرس والأتراك أكبر من عدد المتجولين من الدراويش المصريين إلى ما بعد انقضاء العصر العثماني - كما أشار إلى ذلك الأستاذ لين ، (٢) - ولا ننظن أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة في هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، بيت الصديق ص ٣٧١ - ٣٧٢

وردد هذا الرأي زميلنا الدكتور محمد مصطفي حلمي في كتابه « ابن القارض والحلب الالمى »

ص ١٥ - ١٦

(٢) في كتابه The Manners & Customs, p. 252

وترهب فتنهم ، فمن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجي زيدان عن استقلال
الزوايا أو خطورة الفتن قبل خانقاه سعيد السعداء .

والفقرة الثانية من كلامه تنطوي كذلك على مغالطتين أخريين : فأنها تنص
على أن صلاح الدين قد « أنشأ » خانقاه سعيد السعداء وسمها دويرة الصوفية ،
وأدق من هذا أن يقال إنه حولها إلى خانقاه ، فقد كانت دارا معروفة منذ العصر
الفاطمي . وثاني الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخانقاه
شبه تقدم على غيره من المشايخ (أي مشايخ الطرق التي تحدث عنها في فقرته
الأولى) والراجح أن شيخ الخانقاه كان يسمى شيخ الشيوخ ، وأريد بهذا التعبير
الشيوخ المقيمون في الخانقاه ، إذ كان كل فقير منهم شيخا لأنه يدرس الدين
وينقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه ، ولم توجد في الوقت الذي أطلق
عليه هذا اللقب خوانق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا
اللقب شيخ شيوخ الخوانق والربط والزوايا الأخرى .

أما الفقرة الأخيرة فتنطوي على أربعة أخطاء : لأنها تنص على أن رأسه
الصوفية قد توحدت في القرن التاسع ، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلي
من حديث ، وتزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكري قد تولى هذه الرأسه
في القرن التاسع ، وأنه والد أبي السرور البكري ، مع أن محمد شمس الدين
الذي عاش في القرن التاسع (+ ٨٤٧ وهو الخنفي)^(١) لم يكن أباً لأبي
السرور البكري (ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧)^(٢) فان أباه هو السيد محمد
أبو المكارم زين العابدين أبيض الوجه ، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤ هـ
على ما يروى على مبارك^(٣) وهو الشهير بالبكري الكبير في كتب التاريخ
والطبقات والمناقب ، وهو الذي قال فيه الشعراني إن الناس قد أجمعوا على أن

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٤٨٩ بيت الصديق ص ٢١٣

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦

(٣) بيت الصديق ص ٧٤ ، الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢٦ والكواكب السائرة

ج ٣ ص ١١٢ ولكن البديروسي يقول إنه مات سنة ٩٩٣ هـ (النور السافر ص ٤١٤) .

ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علماً من مصر ولا في مصر مثله (١) فاذا عدنا إلى الذين ترجموا لهذين الرجلين والتمسنا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان ، رجح عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه ، فان كتاب التراجم في هذا العصر وما بعده ، كانوا أسخياء في خلع الألقاب على من ترجموا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على لقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجموا حياته ، ولدينا من عرضوا لترجمتهما - الشعراني والمناوي ومحمد أبو السرور البكري وعلى مبارك وصاحب النور السافر. ومؤلف الإعلام بالإعلام بيت الله الحرام والسيد توفيق البكري... الخ وليس في كلام واحد منهم ما يؤيد دعوى الأستاذ زيدان (٢). وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين نصوصاً تشهد بأن الزعامة قد تنازعا غير هذين الرجلين في عصرهما.. اقول الشعراني عن السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه ، ليس دليلاً على أنه كان شيخاً للمشايخ ، بل تشهد بسعة علمه في عرف الشعراني ، وسنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويتوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ .

بحج
رأى السير توفيق البكري ومناقشته : هذا الكلام السطحي الذي لا ينضج فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط في خطأ آخر ، قد صادف قبولاً عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكري الذي يرويه على علته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند إليه في تأريخ البيت البكري ويؤثر ما جاء به على ما ذكرنا عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات . فتترجمو القرون التاسع (السنخاوى) (٣) والعاشر (الغزى والبيدروسى والشبلى) (٤) والحادى عشر

(١) بيت الصديق ص ٧٥ .

(٢) بيت الصديق ص ٧٣ - ٧٨ أمثلة لذلك .

(٣) الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع (تسعة أجزاء) .

(٤) الكواكب السائرة بمناب أعيان المائة المباشرة (ثلاثة أجزاء) والنور السافر و

أخبار القرن العاشر ، السنا الباهر بتكميل النور السافر .

(المحبي) (١) والثاني عشر (المرادى) (٢) إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرتي وابن اياس وأبي السرور البكري والشعراني بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمناوى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم ، لم يشيروا قط إلى وجود شيء اسمه مشيخة المشايخ في البيت البكري أو غيره من بيوت التصوف في مصر . ولكن السيد توفيق البكري يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث : مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف (٣) . ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من « حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة المشايخ الصوفية ، ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ في عرفه « قديم الزمان » الذي استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب .

على أن السيد توفيق وإن كان يروى رأى جرجى زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكري وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه ، وإنما تبرع بخلقه على بعض من عاشوا في مصر منذ القرن الثاني عشر الهجرى ، والغريب أنه ضمن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر ، بل بخل به حتى على الذين أثرت الضجة التي أسبغناها الآن من أجلهم ، من محمد شمس الدين البكري (٤) ، وأبي السرور البكري (٥) ومحمد شمس الدين الحنفى (٦) بما يشهد بضعف ثقته في مزاعم المرحوم جرجى زيدان ، وإن لم يصرح بذلك .

فلنعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ في دعواه :

-
- (١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر (أربعة أجزاء) .
 - (٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (أربعة أجزاء) .
 - (٣) بيت الصديق ص ٣٦٦ (٤) بيت الصديق ص ٣٦٦ .
 - (٥) بيت الصديق ص ٧٣ (٦) بيت الصديق ص ٧٠ .
 - (٦) بيت الصديق ص ٢٠٤ وما بعدها .

نلاحظ أنه خلغ اللقب على أربعة من أهل القرنين الثاني عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف (١) والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف (٢) والشيخ أحمد بن عبد المنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف (٣) والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف (٤). فلاحظ أن السيد توفيق يضع في عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ فإذا أنعمنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم رأينا يقول في ترجمته الأولى « هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام تولى السجادة البكرية التي من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر في المعقول والمنقول وعلوم القوم توفى سنة ١١٢٥ ودفن بزاوريته » ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذي استقى منه كلامه كما فعل في أكثر التراجم التي ضمنها كتابه ، ولهذا دلالة ومغزاه . ويروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبد المنعم البكرى ، نص ما ذكره الجبرتي في ترجمتهما دون أن يزيد عليه كثيرا ولا قليلا ، وما يقوله الجبرتي عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التي تبرع السيد توفيق بخلعها عليهما في عنوان الترجمتين من غير مبرر . ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير (٥) نص ما يقوله الجبرتي كذلك فإذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب ، بل يقطع وجه الشك في أمرها فيقول « ولما توفى ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاهما بعده باجماع الخاص والعام مضافة لتقابة الأشراف فحاز فخارا المنصبين

(١) بيت الصديق ص ٤٠

(٢) بيت الصديق ص ١٦٠

(٣) بيت الصديق ص ١٤٠

(٤) بيت الصديق ص ١٣٨

(٥) قال علي مبارك في خطه ج ٣ ص ١٢٦ ان الكبير لقب يطلق في كتب التاريخ والطبقات والمناقب على محمد أبي المكارم زين العابدين أبيض الوجه المتوفى سنة ١١٩٦

وكمل له فضل الشرفين ، ولم يقم في ذلك إلا نحو ستة ونصف وتوفى ، فلو أنه تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتي أو أشار إليها . وكذلك يقول في السيد محمد البكري الصغير + ١٢٠٨ والذي وضع السيد توفيق في رأس ترجمته لقب شيخ المشايخ ، ثم أورد نص الجبرتي فيه من غير نقض ولا زيادة ، فإذا فيه « السيد محمد البكري أفندي الصديقي شيخ سجادة السادة البكرية ونقيب الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادتين ، (١) وكذلك الحال في السيد خليل البكري + سنة ١٢٢٣ هـ (٢) .

ومن هذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنده بلقب شيخ المشايخ ويضعه في عنوان تراجمه ، وليس في التراجم قط إشارة تبرر وضعه .

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شيء كثير من اطمئنان اليقين ، أن العصر العثماني قد انقضى بقرونه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف في مصر رئيساً فذا لهم ، يوحد كلمتهم ويفصل في مشاكلهم .

نشأة اللقب قبل العصر العثماني :

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان ١٠ منذ القرن السادس للهجرة ، أي قبل دعوى جرجي زيدان بثلاثة قرون أو أربعة ١٠ بيد أن المعنى الذي يحمله كان يختلف عن المعنى الذي قصده به الأستاذ زيدان والسيد توفيق . قال المقرئ : فكانت « سعيد السعداء أول خاتناه عملت بمصر وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر في ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمئة واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب فلقب كل شيخ خاتناه « بشيخ الشيوخ ، (٤) ويقول في

(٢) بيت الصديق ص ١٣٢-١٣٣

(١) بيت الصديق ص ١٣٧

(٣) خطه المقرئ ج ٤ ص ٣٧٣

خانقاه سرياقوس وقرر السلطان في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الاقصر اوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء ، (١) وكان ذلك عام ٧٢٥ هـ .

والظاهر أن المقرئى أراد أن يقول إن شيخ خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرتا بتنازعان هذا اللقب إلى أن زحفت المحن وتلاشت الألقاب في مستهل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الخوانق التي كانت قائمة بمصر في هذا العهد .

وقد أيد القلقشندي كلام المقرئى فقال : إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها ، والأمر على ذلك للآن ، (٢) — وقت كتابة صبح الأعشى .

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ ، لا في مصر وحدها بل في الشام وغيرها ، فقد أورد القلقشندي نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها : فلذلك رسم بالأمر الشريف ... أن يفوض إلى المشار إليه (الشيخ نظام الدين الأصفهاني) مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس — فدى الله روح واقفها ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الاسلامية المحروسة على عاداته في ذلك ، وقاعدته ومعلومه ، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه ، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لاديوان المواريث معه في ذلك

(١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٨٥

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٠

حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بأذنه على العادة في ذلك... (١)

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ في مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلي كان مقصوراً على الصوفية المقيمين بخانقاه سرياقوس وحدها. والدلائل التي تحت أيدينا تنفي نفياً باتاً وجود شيخ مشايخ - طوال العصر العثماني خصوصاً - وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل في مشاكلهم على نحو ماذهب السيد توفيق وجرجي زيدان، ولا بأس من أن نسرد بعض هذه الدلائل:

روى صاحب المناقب الكبرى (٢) أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمري فاستغاث أقاربه بالشعراني ووسطوه لانقاذ السجين، فكتب الشعراني بطاقة إلى محمد شاه قال فيها: إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة: أولهم بيت السادات بنى الوفا..... وثانيهم بيت سيدى محمد شمس الدين الحنفى (وهو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ١٨٤٧) (٣)..... وثالثهم بيت سيدى مدين الأشموني (تلميذ الحنفى) (٤) ورابعهم بيت سيدى أبى العباس الغمري (سنة ٩٠٥) (٥).

وفي هذا ما يشير إلى أن الزعامة لم تكن في بيت واحد.

(١) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٥

(٢) المناقب الكبرى ص ٨٤

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ وجاء في طبقات الشاذلية ص ١٢٧ أنه ولد

سنة ٧٥٥ ومات سنة ٨٤٧ هـ

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ إلى ٩٠

(٥) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٧

ويقول المناوى + ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوقي سنة ٩٨٦ هـ « صار هو وشيخنا الشعراني (سنة ٩٧٣) (١) شيخنا (يريد شيخني) الديار المصرية ، وكان بينهما ما يكون بين الأقران (٢) ، ويلاحظ أن الشعراني والخلوقي اللذين كانا يتنازعا ان الرياسة ، قد عاصرهما فيها محمد البكري (+ ٩٩٦ هـ) الذي عزأ إليه جرجي زيدان مشيخة المشايخ في أول أمرها .

ولقد كان الشعراني إذا تحدث عن كبار الشيوخ في القرن العاشر ، قال لهم محمد البكري (الكبير) ومحمد كريم الدين الخلوقي وخليفة الشيخ دمر داش وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين . . . وكل واحد من هؤلاء لو انفرد في مصر وقراها ، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا ، (٣) ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم ، ما أهمل ذكرها الشعراني أو المناوى أو غيرهما .

٠ أما في القرن الحادي عشر فقد روى عبد الغنى النابلسي (٤) المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ أن محمدا أبا المواهب زين العابدين البكري (٥) كان له « حكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية ، وأن نائبه في بلدة الخانقاه

(١) الكواكب الدرية للمناوى ص ٤٠ ، خلاصة الأثر للمصفي ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل النور السافر للشبل ص ٦٥٧ ، مادة Alsha'rani بدائرة المعارف الاسلامية للاستاذ شاخت (وإن كان قد أخطأ في تاريخ ميلاده فجعله سنة ٨٩٧ هـ) وطبقات الشاذلية ص ١٤٢ — ولكن الغزى في كواكب السائرة ج ٣ ص ٢٧٦ قال ان الشعراني قد مات في حدود السبعين وتسماية .

(٢) الكواكب الدرية ص ٥١٩

(٣) بهجة النفوس ص ٨

(٤) روى السيد توفيق أنه مات سنة ١١٤٣ (ص ٤٠ بيت الصديق) وكذلك روى علي مبارك ج ٣ من خطه ص ١٢٥ وروى المحي أنه مات سنة ١٠٣٢ ص ٤٣٣ من ج ٢ خلاصة الأثر وذكر المرادى في سلك الدرر ج ٣ ص ١٣٧ أنه مات سنة ١١٤٣ هـ

(٥) روى الجبرتي أنه مات عام ١١٠٧ هـ وولد عام ١٠٦٠ (ج ١ ص ٦٩) وروى السيد توفيق أنه ولد عام ١٠٥٠ (بيت الصديق ص ٤٠) والأول أرجح وروى المرادى في سلك الدرر ج ١ ص ١٥١ أنه مات سنة ١١٠٧ هـ

كان الميقاتى على ما عرفنا (١) وحسبنا فى الدلالة على أن هذا التعبير لا يفيد استحواذه على مشيخة المشايخ ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكرى لهذا اللقب ، لم يخلعه على السيد محمد أبى المواهب زين العابدين (٢) رغم أنه اطلع على رحلة النابلسى المخطوطة ، واقتبس منها جزءا فى كتابه ، وكذلك لم يشر على مبارك فى ترجمته إلى هذه المشيخة .

وقد تهيأ للشيخ السادات (المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، وترجمة شتى الجبرتى تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه فى أمرها (٣) . وقد أظهر الجبرتى فى هذه الترجمة — التى اطلع عليها السيد توفيق ونقلها فى كتابه عن بيت السادات الوفائية (٤) — أن السيد محمد البكرى الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملا لا حساب له ، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ .

ولعل هذا يفسر لنا نصا خداعا رواه الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى الكبير إذ قال « ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأماير البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل بقوانينهم العادية » (٥) فان ما يشبه هذا السلطان قد تهيأ للشيخ السادات (الوفائى) بعد ممات محمد البكرى حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشيعية بأن يمددوا بالأمراء بضيافته أيام المولد ، فكان شيوخها ومريدوهم يتصاعون لأمره راضين أو كارهين .

وسنعرف فى الباب التالى أنه بلغ من السطوة أن كان يمثل السلطين التشريعية والتنفيذية لابين طوائف المتصوفة وحدها ، بل بين عامة الناس .

(١) رحلة النابلسى ص ٩٠

(٢) بيت الصديق ص ٤١

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٤) المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٥

(٥) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

كذلك كما سنعرف عن « الأقطاب » الذين ظهروا في هذا العصر واستحوذوا على الزعامة في عصرهم ، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء في مختلف بقاع البلاد . . . ١

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة ، سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك ، ولعل أغلب الفترات التي مرت بمصر إبان هذا العصر ، كانت خلوا من هذه الشخصية التي تكره مشايخ الطرق على السعي لمَرْضاتها ، والانقياد لأمرها والسير في ركابها .

بل لقد ورد في الإجابات التي رد بها حسين أفندي الروزنامي على الأسئلة التي وجهها إليه « ستيف » عقب الفتح الفرنسي ، أن أرباب السجاجيد في مصر أربعة ، هم الشيخ البكري وجده أبو بكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام علي والشيخ العناني وجده عمر بن الخطاب والشيخ الخضيرى وجده الزبير ، وأن مقامهم محفوظ ومكاتهم ملحوظة ، وأن المشورة لهم في جميع الأمور . . . ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق (١) وقد أشار الأستاذ « لين » ، إلى أصحاب السجاجيد الأربعة ، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف في مصر (٢) ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا ، فإن الأستاذ « لين » ، قد نزل بمصر بعد انقضاء العصر العثماني بسبعة وثلاثين عاما (١٨٣٥ م ١٢٥٠ هـ) وقد أورد السيد توفيق البكري فرمانا بتولية الوالى محمد علي باشا للسيد محمد البكري عام ١٢٢٧ هـ وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها ، وقد أهمل الجبرتي

(١) مقال سناذ الجليل شفيق غربال بمجلة كلية الآداب المجلد الرابع العدد الأول

سنة ١٩٢٨ ص ٢٥ .

(٢) كتاب الأستاذين السالف ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٣) بيت الصديق ص ٢٦٩

ذكر هذا فرمان (١) ، ولكن نص الأستاذ لين ، يرجح صحة هذا فرمان ، وعلى هذا يكون قول «لين» إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف .

ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن التعبير بمشيخة المشايخ لم يرد في فرمان محمد علي ولا في فرمان الذي تلاه في عهد سعيد باشا عام ١٢٧١ هـ وإن نص فيهما على العمل الذي يقوم به اليوم شيخ المشايخ .

فهذا اللقب حديث عهد ، ونسبته إلى العصر العثماني أو ما قبله نسبة بادية الخطأ ، إذا أريد باللقب المعنى الذي يحمله في عصرنا الحاضر ، ولعل السبب الذي أدى إلى وجوده في العصر الحديث ، مرده إلى الرغبة في القضاء على البدع التي كانت شائعة بين أهله ، وفشو الضيق بأساليبهم بعد أن تفتحت أذهان الناس ونزعوا إلى النقد ، وإذن فقد كانت الفرق في مصر أثناء العصر العثماني مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة - إذا استثنينا فترات تقضت وبين أهل التصوف - رجال أوتوا الشخصية التي تكفل لأصحابها السيادة وتضمن لهم بعد الصيت وسعة النفوذ ، وتبدد المطامع من رؤوس المتنافسين وتستعبدهم بسلطانها فإذا هم خدام أمناء وعبيد أوفياء .

ولكن كيف كان هذا النفوذ ..؟ وما مدى تغلغله في طبقات الشعب وتسلمه إلى هيئات الحكام ...؟ ذلك ما انفصل الحديث عنه في الكتاب التالي...

الكتاب الثاني

نفوذ شيوخ الطرق

أحياء وأمواتا

الكتاب الثاني

نفوذهم أحياء وأمواتاً

ذكرنا فيما أسلفنا بعض ما انتشر في أرض مصر من طرق الصوفية وزواياهم، وعرضنا شيئاً عن الحياة التي عاشوها، والعبادات التي زاولوها، ونريد أن نفصل في هذا الكتاب ما تهيأ لهم - أحياء وأمواتاً - من نفوذ استوعب وجوه الناس وطغامهم، واستبد بعلناء البلاد وحكامها، ونعرض بعض آثار النزاع الذي ثار بينهم وبين بعض الفقهاء ومن جرى مجراهم، لتبين مبلغ قوتهم ومدى تأثيرهم في بيئتهم، حتى يتيسر لنا أن نشرح في الكتاب التالي أثرهم في توجيه الحياة المصرية إبان عصرهم وما تلاه من عصور، على قدر ما تسمح المادة وتسعف الملاحظة.

نفوذ شيوخ الطريق

١ - أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان - تحررم من عرف البلاد ودينها -
مفارقات مصر - تحررم من نظم الدولة وقوانينها - ترمدم على المرة
السائد عند أرباب الطريق .

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان:

حفلت مصر إبان العصر العثماني بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم، وانتشر الشيوخ والأتباع في الريف والحضر، وتغلغل نفوذهم في المدن وشاع في الأقاليم والقرى، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام في صدورهم عرشه، وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين، واستهان بالرأى العام فتخطى أبسط مبادئ العرف، واستعلى على الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه، وبذلك أضحي الفقراء في مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة .. !! وكانت مصر دولتهم في الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون في هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا؛ وأن دولتهم إنما تقوم - كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق الممدود الرحاب - في جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس في شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والأيد، وقد خف إلى زواياهم مئات المريدين وألوف الأتباع، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء، ولازمهم النصر في أكثر المعارك التي أثار عثورها في وجوههم العلماء والفقهاء، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته

وتطبيع جنوده، أو لعالم يحمله تلامذته وطلابه، وما كان الجندى الذى يتمرد على قائده ساعة المحنة بأشد خيانة وأعظم جرما - فى عرف الفقراء - من المرید الذى يسىء الظن بشيخه أو يتردد فى امثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجه وفراق أولاده أو يمنعه عن أداء ما أمر الدين من فروض وواجبات وحثمه من شعائر وعبادات...!

وهكذا قامت فى مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدما. وبالايمان تذود الأولى عن عرشها، وتقر فى القلوب سلطانها، وتخيف خصومها وأعداءها. ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدما وأعظم نفوذا وأقوى سلطانا من دولة بنى عثمان - تلك الدولة التى كانت مطامع الممالك - ولا سيما فى النصف الأخير من العصر العثمانى - تثير فيها القلق والاضطراب، بل لقد كانت فرق الجيش التى جاءت فى ركبها لحمايتها من كل عدوان فى نزاع يكاد يكون دائما، وخراب يوشك أن يكون متصلا وكان الأعراب، فى غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب فى رأسها ويشيعون الفزع فى نفسها. وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقا والخاطر نائية المضجع تنفق وقتها فى تدبير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المكائد، أما دولة الفقراء فقد عاشت فى جو عام بالاطمئنان، قوية بايمان أهلها وحسن ظن الناس بها لانهتز لانكار المنكرين - وما كان أضعف نفوذهم - فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول، ورفرف علمها فى كل مكان دون جهد ملموس، وذلك لأن روح العصر، - بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الامن وظلم الحكام - عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس..!

تحريرهم من عرف البلاد ودينها:

ولدينا من الشواهد ما ينهض دليلا على أن الأولياء كانوا فوق العرف

وفوق القانون — وقبل أن نعرض للكلام في ذلك ينبغي أن نشير إلى أن الأمثال التي تشهد بخروج الفقراء على الدين، تصلح أن تكون شاهداً بخروجهم على العرف كذلك ، فإن الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاءلت حتى كادت أن تزول وتتلاشى ، فإذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر في القاهرة ، لا يعتبر خارجاً على العرف ، وإن عُدَّ خارجاً على الدين ، فإن هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثماني ، لأن الدين قد تغلغل إبانته في العرف حتى كاد الرأي العام في كل شيء أن يكون قائماً على الدين وحده ، وكانت مصر في عزلة عن العالم الأوربي الذي كانت النهضة الحديثة تتمشى في أعصابه وتشيع في كيانه ، فأضحت الحضارة القائمة في مصر حضارة دينية بحتة . فكان الناس لا يعرفون علوماً أسمى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته ، ولا رجالاً أخلق بقيادته في حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله ، وبهذا أصبح زعمائهم في ميدان السياسة وقادتهم في الحياة العامة وأساطينهم في مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق ، وكاد أن يتلاشى الفارق بين وصيحة الدين وصيحة العرف ، وأضحى الخروج على قواعد الدين ، استهانة بالرأي العام وجرحاً لشعور الناس .

والآن نبسط بعض الشواهد التي تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط مبادئ العرف معاً ، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتنانهم لأقدس مواد القانون ، لنرى صدى ذلك كله في نفوس الناس ، ولنعرف مبلغ الصديق في قولنا إن الأولياء كانوا في مصر — إبان هذا العصر — دولة داخل الدولة :

يروى الجبرتي عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفاية عام ١١٨٢ هـ ، أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمان إلى سمعته ونفوذه عند النامس ، بدأ حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة ،

واستيقظ نجشعه وعدم اكترائه برأى الناس في سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى، ويتنازل له في مقابلها عن نظارة وقف الشافعى، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف، نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا. ١١٠٠ بل زاد فطمع في المشهد النفسى والمشهد الزينبى وباقى الأضرحة، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة، على الإيرادات ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم. ١١٠٠، وطقق يطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يحتصون أنفسهم بذلك كله. وأقلمهم (كان) في رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره في طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهية الرفاهية في بيته، واقتناء كل مرضوب للنفس وشراء الجوارى والمالك والعبيد والجيوش والخصيان والتأتق في المأكل والمشرب والملابس وتعاضم في نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور الحيا بالأزهر ليلة الميراج، وكذا الحضور في مجالس وردهم وحصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابرة الأمراء... (١)

وكذلك كان ابراهيم المتبولى . كان يبيع في بدء حياته الخبز، وقد مات أبوه فكفلته أمه وتعمدت بتربيته (٢)، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مرید يقيم طاعما كاسيا على نفقة صاحب الزاوية (٣) ... وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرائى عن رأيه في الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد في الدنيا أول أساس يضعه المرید في الطريق، فان أعوزه الزهد في لذاتها والإعراض عن مباحها أخفق في تصوفه، وكان ما بينيه في الطريق هباء منثورا (٤) ١٠٠

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٢ و ٢٠٤

(٢) الأخلاق المتبوية للشعرائى ص ١٤ (مخطوط)

(٣) لطائف المنن ج ٢٢ ص ١١٩

(٤) الوصية المتبوية ص ٤ (مخطوط)

كان الشيخ على أبو خوده يحب الغلمان ، ويعبت بهم بحضرة آباؤهم بالغاما بلغت مكائهم ! (١) وكان كلما رأى امرأة « حسس بيده على مقعدها » (٢) ، وما أكثر وقائعه معهن . . . (٣)

وكان المجذوب محمد بن أبي بكر المغربي الطرابلسي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتهاافت عليه نساء البلد ، فأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن « أهل الفضل كانوا يحترمونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويجله الأعيان وتنهال عليه الهدايا ولا يرد له الوزراء شفاعة » كما يقول الجبرتي (٤) وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، أجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنوهم من الخلف إذا اشتدت حماسة الذاكرين ، فإن أنكر عليهم ذلك أحد من الناس ، قالوا لاجنح على من مس دبر غلام ، وإنما الجنح على من فعل فيه الفاحشة وحدها . . . وكان وجود الغلمان في حلقات الذكر ومواكبه جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة (٥) .

وكان الشيخ « عبدالله + سنة ٩٣٧ هـ يصحن الحشيش ويبيعه بخرايب الأزبكية فلا يناله من الناس أذى ولا ضرر . . . بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كفت عن تعاطيه . . . III كما يزعم المناوي والغزوي (٦) . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوي أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل ، قائلين إن الغربية بلاد السيد البدوي ونحن من فقرائه ، فكل ما تأخذه حلال لنا . . . وكان « الشناوي » + سنة ٩٣٢ هـ أول من نادى بابطال هذه البدع . . . (٧) وكان النساء اللاتي يتصلن بالفقراء معرضات للزنا ،

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣ (مخطوط)

(٢) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣

(٣) أنظر مناقب العلماء ص ٢٤٤ ب (مخطوط)

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٥) فتوى الشيخ الصعدي على فقراء المطاوعة (مخطوط)

(٦) ارغام أولياء الشيطان ص ٨٨ (مخطوط) ، الكواكب السائرة ج ٢ ص ٢٥٩

(٧) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦

وقد اشتهر فقراء الأحمديّة والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللاتي يأخذن العهد عليهن حتى خصمهم الشعرائي بالذكر في معرض الحديث عن وقائع الزنا التي تحدث من جراء اختلاط الجنسين (١) وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهم المغربية، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراءهم - فيما يقول الجبرتي (٢) - وروى الشعرائي في ترجمة الشيخ عبدالقادر السبكي أنه كان يتكلم بما يستحي منه الناس ولا يرضى عنه العرف، وقد خطب مرة عروسا ورآها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهي في حضرة أبيها، لكي تطمئن على خلوه من البرص وبراءته من الخشونة وغيرها بما قد يستدعي الشكوى بعد الزواج، ثم تناول قضيبه في يده، وطلب إليها أن تمنع النظر إليه، لتطمئن على جسمه ومنظره (٣) ١١٠٠ (٣)

ويصف الأستاذ إدوار لين، هذه الحال ويشرح علتها في عرف الناس فيقول: إن المعتوه أو المجنون في عرف الجمهور، كائن عقله في السماء وجزؤه الكشيف على الأرض - إنه حبيب الله، ومهما ارتكب من الفضائح فإن ذلك لا يؤثر في سمعته عند الناس، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه، ولكن العلة في ذلك عند الناس، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية في عبادة الله، مما أدى إلى العجز عن التحكم في العواطف - والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر، يحفظون في الحبس، أما الذين لا يخشى منهم الضرر، ينظر إليهم الناس على أنهم أولياء الله ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخاييل أو دجالون، يسير بعضهم في الشوارع عاريا كامل العري، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير - حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل

(١) العهود المحمدية ص ١٨٠

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٩

يأذن لهؤلاء الجبشاه أحيانا بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحرارا كاملي الحرية — ولئن كان هذا نادر الحصول إلا أنه لا يعتبر في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة... (١)

هذا رأى د لين ، الذي زار مصر بعد انقضاء العصر العثماني بنيف وعشرين عاما ، ولعله احتاط في التعبير أكثر مما ينبغي ، فإن الحوادث التي روينها عن مؤرخي العصر العثماني — من الجبرتي إلى الغزوي والشعراني والمنأوي — وهم من أهل هذا العصر جميعا — تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نادر الحدوث ، ولعل الأستاذ قد أراد بهذه النادرة فظائهم مع النساء على قارعة الطرق ، وليست الطبقة الدنيا وحدها هي التي كانت ترضى عن هذه الفظائع ، وكثيراً ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء... ١

مفارقات العصر :

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يثير غضبهم ، بل كثيرا ما كان يملأهم رضا واغتيابا — على نحو ما عرفنا في التعليقات التي صورتها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا التمرد على قواعد الدين ومبادئه العرف ، وما كان السر في هذا أن روح العصر ، كان يسمح بالتهاون ويوجب على الناس التسامح ، فان الرأى العام في هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطقوس والرسوم ، وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير ، إذ بينما نرى هذا التهاون المفرغ في حساب من يعتبرون أولياء ، ترى الطالب الذي لا يقع بصره على جرة خمر بين يدي ممالك السلطان حتى يمضى إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعا عن دينه (٢) ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات في رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء ، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح وإلقاء جثثهم في اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفسا ومن المسلمين أدنى من

(١) كتاب الأستاذ Lane ص ٢٣٤

(٢) لطائف اللذني ج ٢ ص ٤٣

ذلك بقليل^(١) ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة، فان أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية^(٢). ونرى كيف يفتى العلماء بإحراق الذمي إذا سب مسلماً^(٣) ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كباراً وصغاراً^(٤) وكيف تصدر الفرمانات بإبطاله في الشوارع والمحال وأبواب البيوت، وكيف تكون الرقابة ويشدد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطعامه الحجر الذي يضع فيه الدخان والنار^(٥) وكيف يحرم شرب القهوة ولا يجوز الاتفاق بشمها كما هو الشأن في ثمن الخور^(٦) ونرى كيف يلام الشبراوي لأنه أفتى بإباحة الحج للنصارى إلى بيت المقدس، وكيف يخرج الشعب والأزهريون اليهم فيرجمونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصاراً للدين^(٧) على نحو ما يفهمون - ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنباطي في الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمشون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم ويحطمون أوانيها ويضربون شاربها ولا تهدأ لهم نائرة حتى يفتى علماء آخرون بإباحتها^(٨) ونرى كيف يرضون عن قتل المرأة العاهر جزاءً وفاقاً^(٩) ونرى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشاً ورعونة وينحط قدر الشيخ البشيشي عند الجبرتي ووالده من أجل ذلك^(١٠) وأمثال هذه الحوادث التي تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصيا العدد. وإن كان هذا التعصب لا ينفى انحلال الأخلاق عند أهله - على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان «روح العصر» يميل على الناس التعصب في أحكامهم ويحملهم على فداء

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٧٣ (٢) الجبرتي ج ١ ص ١٥١

(٣) » ج ٢ ص ٩٦ (٤) » ج ١ ص ٤٢١

(٥) » ج ١ ص ١٣٧ (٦) » ج ١ ص ١٦١

(٧) » ج ١ ص ١٩٥ (٨) أنظر كتاب عمدة الصنوة في حل القهوة

(٩) الجبرتي ج ٣ ص ٥١ (١٠) الجبرتي ج ٢ ص ٢٠٦٢

عقائدهم بالروح وما ملكوا ، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالتهاون في ظاهر الدين أو تخطى قواعد العرف ، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للأذى وقادها إلى مهاوى الهلاك - وكان هذا معنى الدين في رموس الناس إبان هذا العصر - أما الأولياء فقد كانوا في عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف - وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف ، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاعتباط ، لأن الأولياء في عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية ، فجاز لهم ما حرم على غيرهم ، يهلون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشيء من فروض الدين وشعائره ، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشيء من نواهيه ، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته .. فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى من الناس ، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردمهم عن غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل .

وكان جمهرة الناس في مصر تخاف سلطان الأولياء الروحي وتخشى إن أساءت إليهم أن ينالها أذاهم ويصيبها «تصريفهم» ، فكفت عن سوء الظن بهم وأستنكار أفعالهم ، وذلك وحده كفيلاً بتخليص الأولياء من قيود «العرف» وتحرير شهواتهم من عقائد الدين ، وقد بلغ من جرأة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون في بعض الأحيان ما يثير سخط الناس ، فكان «أبو خوده» يأمر عبيده - وكان من غواة العبيد - أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم ، حتى إذا ازدادوا سخطاً عليه هط بهم .. كما يظن الشعراني^(١) ولو صحت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافاً بالمتكرين واحتقاراً لسخطهم ، ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن المصادر التي أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء

(١) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣

الأولياء ، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث في معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم .. ولم يملها عليهم حقد ولا حسد ولا غير ذلك مما يجوز على الحق ويغير معاله .

نحرهم من نظم البروتة :

وما كانت استهانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استهانتهم بعرفها ودينها ، فقد كانت أولى الأغراض التي حملت الأتراك على غزو مصر ، الطمع في خيراتها والرغبة في ابتزاز أموالها ، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن يجبي من الضرائب أعظم قدر يمكن — وكان الناس لا يمانعون في هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال ، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل في القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية^(١) . ولم يكن الإصلاح والعمل على رقي الشعوب من عمل الحكومات في عرفهم — فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغي أدائه ، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء في أكثر الأحيان من أخذ الضرائب^(٢) . قال الشعراني إن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاويته من ظلمة الحكام في مصر والريف ، فلا يعارضه ولا يعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحمايته^(٣) . وقال الجبرتي في معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها ، أنه كان يرأسل ويكتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأعلام عوائدهم المقررة في الدفاتر ، بل يرون أن أخذها منه من الكبار ، وكذلك دواوين المكوس المبنية على الإجحاف ، فكل ما نسب له

(١) شفيق بك غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ص ١٤ ، الحركة القومية لرافعي ج ١ ص ٣٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٦٢

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ ، المناقب الكبرى ص ١٠٧

فيها فهو معاف^(١)، فان تعنت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان في أمره، و رسم ، السلطان باعفاء أوقفه من دفع الضرائب، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى لذرية الشعرائي بعد مائة^(٢) .

بل لقد كانت الدولة تمتد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز في زواياهم ، فمن ذلك ما يرويه الجبرتي عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه ، إذ حدث الوالي في ذلك . وكان محمد علي باشا المعروف بالمعزتي المتوفى سنة ١١٩٠ هـ ، فكانت الوالي الدولة في هذا الشأن ، وسرعان ما ورد الأمر بإطلاق خمسين كيساً لمصرف العمارة من خزينة مصر ، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لا يكفي عمارتها ، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كيساً أخرى ، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التي في حوزته من الالتزام من المال الميري الذي يدفع إلى الديوان في كل عام ، فأجيب التماسه^(٣) ، وفي دار الكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التي أصدرتها الدولة التركية لرفع المظالم التي كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوفاية^(٤) .

والغريب أن يحدث هذا في أواخر العصر العثماني - أي في أيام الاضطراب التي فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغى الجنود ، وأرهقت الضرائب الجهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة ، وكثرت الاتاوات التي كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس ، وبينما كان الضنك والظلم

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) المناقب الكبرى ص ١٠٧

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، بيت السادات الوفاية ص ١٦ ، طبقات العاذلية ص ١٠٨ وكان تحويل الزاوية الى مسجد سنة ١١٩٦ هـ كما جاء في هذه الطبقات .
(٤) أنظر « فرمان رفع المظالم عن كفر طرشوب الكائن في مصرف الوفاية » وآخر « بمنع التعرض لبعض أوقف على زاوية الوفاية » و « شكوى من بعض علماء الأزهر إلى قائم مقام مصر بمنع من يتعرض للسيد أحمد البكري في نظر وقف زاوية الوفاية » و فرمان سنة ١١٩٦ من ديوان مصر برفع المظالم عن جهة زفتى جوادة . . . الخ الخ .

يتمشى في البلد طولا وعرضا ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي في حوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاورها ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم (الترك) في طلب الدنيا ويلتمس لهم أفضل الدين ، العذر في ذلك فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا في بلاد الروم فيخف إليه فارغ القلب من محبة الدنيا (١) ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يعيشون الوسطاء للسعي في تحقيق المطالب ١٠٠ وقد فاخر الشعرائي بأنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا يرضى به هو انا بالدنيا ومتاعها (٢) .

وكان البكري الكبير المتوفى سنة ٩٩٤ هـ ملحوظ المكانة بين الحكام ، فكانوا يهادونه ويكاتبونه ، وللسلطان سليمان خان مزيد عناية به ، حتى أنه أطلق المرتبات الخاصة له ولذريته من بعده ، وكذلك فعل شريف مكة وسلطان فاس (٣) . ١٠٠ وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم وتخشى بأسهم وتهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانونا بنفي كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيادتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيون لشفاعتهم — بالغا ما بلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة — وقلبا يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة في هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعته عند الحكام والأمراء ١٠٠ وبذلك تعطل تنفيذ القانون في البلد ، وصبح الفقراء وأكثر من يلوذ بهم في أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة ١٠٠ وان كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم .

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم ، وترسم

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٣

(٢) د د ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠

(٣) بيت الصديق ص ٧٦ ، ٧٧ ثم قارن هذا بما ورد عن الشعرائي في المناب

الكبرى ص ٩٦

الحدود والمعالم في حياتهم الدنيا ، ولا دخل للدولة في أمرها . قال الجبرتي في ترجمة محمد أبي السعود البكري . + ١٢٢٧ ، واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم ، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشار كالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم ،^(١) والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق في القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والاتباع^(٢) وفي دفترخانة السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجورى شيخا للجامع الأزهر (سنة ١٢٦٣ هـ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم . وقد جاء في هذا الصك ما نصه :

« وإذا رفع اليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكري كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وإن الأمر في المبهات .. لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد^(٣) ، .. . وكان البلد خلوا من القوانين التي تصون الحقوق وترعى العهود وتحفظ الحريات وتذود عن الحرمات . ١ .

ولا ينبغي أن يقال إن هذا الشاهد الذي روينا قد وقع بعد انقضاء العصر العثماني بخمسين عاما ، فإن ذلك حجة لنا لا علينا ، إذ كان الناس إذ ذاك في عصر اسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا إلى التفكير في شئون المدينة الغربية التي صحبت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون في غزوته ، ونمت واشتد بأسها في عصر اسماعيل ، وانشغل أكثر المستنيرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكش سلطانها عما كان في أيام العثمانيين ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٢) جرجي : زبدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٠٢

(٣) بيت الصديق ص ٣٤ - ٣٥ .

في التقاضى أمام أظهر شيوخهم بقوانينهم الخاصة ، سائرين في ذلك على ما جرى عليه العرف منذ القدم ، وان قولهم « فيرد الى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة ، لذو دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع في يده السلطتين القضائية والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه . . . لقد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم - كما يروى الجبرتي - وأخذوا في السخرية من أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطاولوا بالنبا حتى اتصل بالسادات فأرسل في طلبهم جميعا وعزرهم بالضرب والاهانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه في شيء بل يوافقوه ، وكذلك فعل بأحد أعظم المباشرين من الأقباط ، توقف معه في أمره فأحضه ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو اذ ذاك أمير البلدة ، ولما شكوا الى مخدومه ما فعل به ، قال له وماتريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ، (١) . . . وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما في عهدهم ، فيضربهم بالجر يد المحمص على أرجلهم . . . وكان إذا أراد الايقاع بشخص وخشى عاقبة ذلك ، مهد الطريق سرا قبل الايقاع به ، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالايقاع والضرب جهرا أمام الناس (٢) . . . وكان البلد من غير حكومة أو قانون ، . . .

التمرد على العرف عند الفقهاء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذي جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان . فان التصوف لا يستقيم بغير الزهد في الحياة والإعراض عن مباحها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم ، والعيش في جو بعيد عن الأغراض الدنيا والنزعات الأرضية ، ولكن الذي يثير عجب الانسان من

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٢ .

هؤلاء الفقراء ، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب ، وقد يفعلون هذا كله جهاراً أمام الناس ولا يرون فيه سُبَّة ولا معرة ، مما أدى بالمؤلفين في هذا العصر إلى الاكثار من تحذيرهم من الوقوع في هذا الشر ، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الخشونة والتعشف (١) .

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدسون في زاويته ، ويتزايد عددهم بين الحين والحين ، وينفضّون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصاب الحرص نقيها ، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتمج بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ - في الجملة - يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الطيِّبة حقاً من حقوقهم يستحوذون عليه إن شاءوا ويتنازلون عنه إن أرادوا .^١ وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش في كنفه (٢) . والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن التماس الأعذار لمن ينعم منهم بالملبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المرید لا يجوز له ذلك العيش في ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات .^١ وقد روى الشعراني حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلاً : فلولا أن الشيخ أقام البرهان على طعامه اللذيذ بالكرامة ، لفازته تلك المرأة وهي منكرة عليه (٣) . . .^١

ومن هذا نرى أن أرباب الطريق في هذا العصر قد تمردوا على عرف البلاد وتحرروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التمادي في التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان ، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق في مصر

(١) أظفر في تفصيل ذلك ، كتابنا عن الشعراني/إمام التصوف في عصره

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١١٩

(٣) العهود المحمدية ص ٢٣١

كانوا دولة داخل الدولة . . ؟ وفي الحق لقد كانت دولتهم غريبة في تاريخ الدول ، لأنها أعطت أهلها الكثير من الحقوق والامتيازات ، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا . . ! فان الكثيرين منهم كانوا لا يحملون أنفسهم حتى مشقة الدعوة للزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة ، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا . ! فهل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة . . ؟ إن من واجبنا أن نسهب في بيان هذا السلطان الذي أتاح لأهله أن يحطموا الأغلال ويتحرروا من القيود ويملأوا الدنيا بهذه الإباحة المطلقة ، في عصر تثقله القيود والسلاسل والأغلال ، فلنتتبع مظاهر هذا السلطان عند مختلف الطبقات وشتى الهيئات ، وسنرى من معجزاته ما يشير العجب . ولنبدأ ببيان مظاهره عند الشعب :

بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها — تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ — القطبانية ونفوذ أهلها في مصر — آفاق نفوذهم في مناطقهم — بعض مظاهر نفوذهم عند المريدين — عند الحكام —

دنيا الصوفية الروحية وعلمائها :

وفي الحق لقد ضاقت العالم الاسلامي بالحياة الدنيا وكره ما تنطوي عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانتهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند نفر من أهلها ، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التي نعيش في رحابها ونكرع من آثامها وشرورها . وكان طبيعيا بعد أن أقام هذه الدولة في مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام ، فصنفهم بطريقة تعسفية في طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال . . . وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة في هذه المملكة الباطنية ويسّرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم (١) . . .

وقد عرفت مصر في العصر العثماني من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما القطب والأولياء بوجه عام ، وقد ضاقت الشعب المصري بدنيا الفاقة والظلم ، فانساق بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلني إلى الله — ولما كان الأولياء في هذا قد أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الأتباع والمريدين ، فقد تهيأ لهم

(١) كارادي ثور في مادة Wali بدائرة المعارف الاسلامية ، الأستاذ أحمد أمين بك في ضمي الانسلام ج ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، نيكلسون في Mystics of Islam ص ١٢٣ وما بعدها ، المناوي في طبقاته الصغرى من ص ٨ الى ١٢ وغير هؤلاء كثيرون .

سلطان روجى ونفوذ دنيوى معا . . . ١

تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ :

انتشر الأولياء في أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها ، وافتسموا مناطقها فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف في أهلها ويستغل غلاتها ، فيقيم الولايم في بيوت ملاكها ويطالبهم بالأتاوات ينظم منها موالد الأولياء - وكان الناس يخفون إليهم سراغاً كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ، ويستجيبيون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل في اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله . . والمنطقة التي تخضع لنفوذ الولى تناسب في سعة مساحتها طردياً مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه . وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه في منطقته والعمل على توسيع دائرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وكان يطمع في أغلب أحواله في أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين له وحده (١) وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الرعامة لواحد لا ينافسها عليها أحد ، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمغادرته بلاد العجم ، سمع هاتفاً يأمره بالسفر لينفع الناس في مصر ، فظنه شيطاناً وأهمل أمره ، بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة ، فقال يوسف : اللهم إن كان هذا وارد حق منك فأقلب هذا النهر لبنا أعرف منه بقصعتى ، وتقول الرواية إن النهر قد انقلب لبنا . . فأيقن أن الهتاف الذى سمعه وارد حق لا شك فيه . . فلما أقبل على مصر وجد الشيخ حسن التستري ، وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد ، فقال له يوسف : إن الطريق لا تكون لأكثر من واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الإلهية ، فإما أن أتصدر أنا وتكون وزيرى وخادمى ، وإما أن تتصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك ، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته ، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه

في ذلك وهو على قيد الحياة . . . وأظهر في الطريق العجائب ، ودانت له الملوك
وخضع لنفوذه الأمراء (١) . . .

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق ، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون
المشيخة دون أن يبايعهم أولياء الدائرة ، ويدخلوا في طاعتهم كما كان ينبغي ،
وكانوا يجلسون للمشيخة وفي بلدهم من هو أقدم منهم هجرة في الطريق
فلا يعباون به ، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له ، وطلب الإذن منه
بارشاد المرشدين نيابة عنه ، إن أحسوا في أنفسهم بأنهم أعلم منه (٢) ، ولقد
أدى بهم هذا الادعاء إلى أن يجور بعضهم على حقوق بعض ، ويعتدوا على
مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ما ليس لهم فيه حق . ولكن الأولياء
كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يجب أجدم أن
ينفضنوا من حوله ويلتفوا حول غيره ، ولعل هذا جائز ومحمّل في رأى
المنطق وحكم العقل ، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق في هذا العصر كانوا
يطمعون في أن يقتصر على صحبتهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم
بقصد التبرك والتمين ، ولهذا نرى « الدردير العدوى » يحذر الأشياخ من شر
ذلك ، ويقول إن المرید الصادق المحبة . هو وحده الذى لا ينبغي له أن يزور
ولياً ولا صالحاً من أهل عصره إلا باذن شيخه ، ولا يحضر مجلساً غير مجلسه
ولا يستمع الى أحد سواه . . . أما الذين يتلقنون الذكر بقصد التيمن وحده
فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته ، ومن طمع في ذلك كان غير صالح لأن
يكون شيخاً في طريق الله (٣) . ونرى الشعرانى يقول إن أشياخ عصره قد
ضلوا حتى عز عليهم التمييز بين من يحبهم مكتفياً بهذا الحب ، ومن يطلب
التربية على يدهم ، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع
بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى اليه قمحاً وأرزاً وعسلاً وذهباً ، وأقبل

(١) المهود الحمدية ص ٢٠٥ .

(٢) قواعد الصوفية ص ٢٥١ (مخطوط)

(٣) السيد محمد البكرى : السير الى الله ص ٥١٨ (مخطوط)

عليه إقبالا عظيما ، فقال الشيخ : إن كنت تصحبنى فلا تصحب فلانا ، فنفرت .
نفسه من هذا التضييق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا
مريدا ، ثم مضى الى الشعرائى واجتمع به ، فظن الشيخ الأول أن الشعرائى
هو الذى حرصه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العداء من
أجل ذلك^(١) . وما كان الأشياخ ليطمعوا فى امتداد نفوذهم إلى هذا الحد ، لو
أن الشعب كان على استعداد للإعراض عنهم لو تجاوزوا حدودهم - ولعل
رواية الشعرائى لا تنقض ما نقول ، فليس يبعد أن يكون الشعرائى - بما
عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه - هو الذى حول شيخ
العرب عن شيخه الأول ، ولولا ذلك لوضع شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ
واستجاب لرأيه ..

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولى إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته
التي تخضع لنفوذه ، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يبغضون من لم يكن
من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم فى بلده لغير شيخه ،
ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فيأضنه بالاحتقار ، كما ظن الواحد منهم أن
من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه^(٢) وما كان المريدون وحدهم
هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ
إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم ، وأدركت
الكراهية نفوسهم حتى حذر الشعرائى الشيوخ من شر ذلك ، وأشار على
من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة
الإخلاص ، فيشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساءه هذا فقد
أعوزه الإخلاص لطريقه^(٣) .

(١) بهجة النفوس والأخلاق ص ١٦٨ (مخطوط)

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١٠٣

(٣) العهود المحمدية ص ١٢٩

كان اعتداء الولي على منطقة غيره من الأولياء عدواناً بالغاً وامتثالاً لحرمة الطريق ، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا ولياً أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعاً وأمضى نفوذاً وأرحب سلطاناً، خضعوا له وساروا تحت رايته ، فإن أجمعوا على الإذعان له ، عرضوا عليه «القطبانية» ودانت له الأرض بما رحبت ، وخضعت له الرقاب بما حملت . . وكان وحيد عصره . . .

القطبانية ونفوذ أهلها في مصر :

والقطبانية التي جرى العرف بأن تكون لوحد فذ لا تتجاوزها ، قد ظفر بها في مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر . . . أصابها محمد الحفناوي الخلوئي المتوفى سنة ١١٨١ هـ الذي « دانت لطاعته الرقاب ، وأخذ اليهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها ، وأنقذ من ورطة الجهل مهجاً من غي نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له في كثير من قرى مصر - قبل أن يكون قطباً - نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ، ولم يزل أمره في ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولي من أهل عصره إلا أذعن له . . . وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى . . . ، وأكثر فيه الشعراء من المديح ، ويموته «ابتداءً نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية ، لأن «الرحى لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه ، (١) .

بل لقد كان الولي إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأبى القطبانية إذا عرضوا عليه . . . فن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفي البكري الذي « أوتي مفاتيح

العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه في مشارق الأرض ومغاربها ،
وأخذ على رؤساء الجن العهود ، وعم مدده سائر الورود ، فان قطبانية المشرق
قد عرضت عليه فأباها (١) ١١٠٠

وبلغ من خطر القطبانية في العالم الاسلامي أن أشيعت عند المغاربة عن
الزبيدي + ١٢٠٥ في مصر - وهو صاحب الشرح الوافي لإحياء الغزالي (٢)
وتاج العروس في شرح القاموس وغير ذلك - فكان إذا وفد أحد هؤلاء
المغاربة إلى مصر حاجاً ولم يصله بشيء ، لا يعتبر حجه كاملاً .. وكانوا أيام
الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء ، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء
من علماء بلده وأعيانه ، فان ظفره بقطعة ورق ولو بمقدار الأتملة فكأنما
ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالنخلة ، ورأى حجه مقبولاً ، وإلا فقد
باه بالخيبة والندامة وأحاطة باللوم أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم
ميعاده (٣) ..

ومن الخير أن نشير إلى أن الكتاب في هذا العصر كانوا يسرفون في
إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم ، على سبيل التمجيد والتعظيم ، ولم يكن
صغار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلون إلى هذا الإسراف ، وكان الناس
- في مصر - يزعمون أن الأقطاب أربعة - وقال بعضهم بل اثنان - وقد
عرض للحديث عنهم الأستاذ « لين » Lane وصور فكرة المصريين عنهم بشيء
التفصيل (٤) .

على أن الأولياء كانوا في مصر يعلنون استقلالهم إذا لم تجد القطبانية من
هو أهل لها ، قال الجبرتي معقبا على بركات الحفناوى : إن البلاد قد نزل بالبلاد

(١) الجبرتي ج ١ ص ١٧٢

(٢) أتحاف السادة المتقين بهرح أسرار احبباء علوم الدين بسيد محمد بن محمد الحسيني
الزبيدي الشهير بمرتضى - طبعة مصر في عمرة أجزاء وطبعة المنرب في ثلاثة عشر جزءا .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) لين E.Lane في كتابه السالف ص ٢٣٦ وما بعدها .

المصرية والججازية والشامية بعده ، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد أقطار الأرض ، وهذا هو السر الظاهري ، وهو ولا شك تابع للباطني ، وهو القيام بحق ورائة النبوة وكال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مباني التقوى . لأنهم آمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ،^(١) وظاهر من نص الجبرتي أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد عمات الحفناوي لما أصاب البلاد الإسلامية هذا البلاء . . . ولعل هذا الرأي يخالف ما اتفق عليه جمهرة الباحثين في القطبانية ، إذ انعقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة من ولي يتولاها ويقوم بأعمالها^(٢) .

آفاق نفوذهم في مناطقهم :

كان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثرت حوله عديدهم ، وسدوا طريقه وانهاوا على يديه وقدميه تقبيلا ولثما ، ومن كان خروجهم إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد البكري ، كما يقول صاحب الكواكب السائرة^(٣) . بل لقد روي صاحب النور السافر في ترجمته أن الشعراء من فيضلاء مصر المتمكنين في علوم اللغة وقواعد الشعر ومذاهب الإنشاء ، كانوا يقصدون إليه بقصائدهم المليئة بالمدائح ، وأنه كان إذا قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره ، تقدم الناس لتقبيل يده والتبرك بدعائه والتمنن بالقرب من موضعه ، وكان الازدحام يقع بينهم حتى ليسقط بعضهم تحت أقدام الناس - وكان يحيط به جماعة من جنود السلطان التركي وغيرهم يخلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى الازدحام ، وربما أخذ أحدهم بيده الشريفة وهي ممدودة لتقبيل الناس

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٥ - ٣٠٦

(٢) مادة Wall في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) الكواكب السائرة ج ٣ ص ١٠٨

لطول زمن مدها لهم إذ كان يمدّها لهم بعد درسه نحواً من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية في الازدحام عليه إلى أن يصل إليها ، كما يقول صاحب النور السافر^(١) ، بل لقد كان وجود الفقير في مكان قفر كفيلاً بتعميره وجذب الناس إليه ، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولداً قد اشتد به الظماً حتى قتله ، فهاله ما سمع ومضى إلى المكان الذي مات فيه وحفر في الأرض بئراً وأقام زاوية له فسرعان ما تهافت عليه الفقراء وعمرها لهم بيوتاً على كسب من زاوية ، فأضحى المكان الفقريّة عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يهودون إليها من هذه البلاد^(٢) ، وكان أبو النجاة الفوى « إذا سافر إلى بلده د فوه » ثم عاد إلى مصر ووصلت مركبه إلى بولاق لإذهب الناس أفواجا يتلقونه كأنه سلطان ، ويكون ذلك يوم عيد عندهم ، كما يقول المناوى^(٣) .

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين ..!! فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيومى ١١٨٣ م مريدين وأتباعاً له . أو منهم من صار من السالكين .! وقد كان يوثقهم أحياناً في أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد ، وتارة يضع الطوق في رقابهم أو يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية .! وكان إذا ركب إلى المشهد الحسينى فى جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصى والأسلحة فى موكب له روعته وجلاله^(٤) ، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى ، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير فى ركابه .! وقد ارتقى بعض

(١) النور السافر ص ٤١٥ - ٤١٦ وقد ذكره فى وفيات سنة ٩٩٣ هـ أما أبو السرور البكرى وعلى مبارك والغزى فقد ذكروه فى وفيات سنة ٩٩٤ هـ (ينظر بيت العبدى ص ٧٤ نقلًا عن أبي السرور البكرى ، المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦ ، السكواكب السائرة ج ٣ ص ١١٢) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

(٣) السكواكب العرية ص ٤٨١

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٣٤٠ ، طبقات الفاذلية ص ١٤٤

هؤلاء اللصوص التائبين حتى صاروا من أعيان جماعته^(١) . . .
ومعنى هذا أن الشعب كان لا يعبأ بماضى الفقراء الذين يحسن الظن بهم،
ويؤمن بصدق ولايتهم ، ولعل هذا ليس أغرب من أن نقول إن حاضرهم
كان لا يعنى الناس في أكثر الحالات . ١

سار على البكرى + ١٢٠٧ هـ عاريا في الأسواق يهذى في حديثه
ويخلط في كلامه ، فيؤول الناس هذيانه تأويلا يلائم أحوالهم ويتفق مع
أغراضهم ، واستغل أخوه سذاجة الناس فنعه من الخروج إلى الشوارع
والأسواق - مكشوف الرأس والسواتين كما كان يفعل في أغلب أحواله -
وحبسه في بيته وروج له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس
على الإسراف في الإيمان به والمسارة إلى تقديم الهدايا والتذور إليه حتى
أثرى أخوه من ورائه ، وقد بلغ من اعتقاد الناس في هذا الدرويش أن تبعته
أمرأة ولزمته في الشوارع والأسواق ، فسرعان ما آمن الكثيرون من الناس
بصدق ولايتها ، وأشاعوا أن الشيخ قد لحظها وجذبها ، فأضحت من أولياء
الله الصالحين ، ثم ارتقت في درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع في زى
الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس . . . ومنهم من اقتدى
بهما « ونزع ثيابه وتمنجل في مشيته » فقيل إن الشيخ قد جذبته أومسته فصار
وليا . . . وكثر أتباع هذا الرجل المعتموه حتى كان إذا مر بشارع ملاءه ضجيجا ،
ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع . . . وكانت المرأة
تصعد أحيانا على درج عال وتفحش في القول فيزداد إيمان الكثيرين بها ويقبلون
يدها تيمنا ببركتها . . . ومروا بهم ذات يوم بيت جندى يسمى « جعفر
كاشف » فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب -
ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله ، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس
وأطلق الشيخ إلى حال سبيله . ثم أخذ يضرب المرأة والمجاذيب حتى طير

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦ .

الولاية من رموسهم ورد الرشد إلى عقولهم، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فإنه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين، ولبثت على هذه الحال حتى إذا جددت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فاذا هي «شيخة على فقرادها»، يحسن الناس الاعتقاد فيها، ويؤمن النساء بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد - بعد مماتها - وقدمت إليها الهدايا والندور (١) . . . ١١٠

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق في الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيمهم «إذنا عاما على عموم الطرق ويأذن لهم في أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم في أمر عموم أهل الطرق . . .»، كما يقول صاحب طبقات الشاذلية (٢) .

وكما كان هذا هو الشأن مع الأئمة والمشعوذين فقد كان مع المستيرين، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات في يده السلطتين: التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعي المذنبين والأئمة في رأيه، ويفرض عليهم العقاب الذي يشاؤه، وينفذه على مرأى من الناس ومسمع من الحكام، فلا يغضب لذلك أحد. والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد . . . ١

ولم يتوافر له هذا النفوذ عند عامة الناس وطغاهم فحسب، بل كان له سلطان ممدود الرحاب على ذوى المكانة الملحوظة من رفقاته وجلسائه الذين كانوا لا يتكلمون معه إلا بميزان، وملاحظة الأركان، ويتأدبون معه في رد الجواب وحذف كاف الخطاب ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ، بل كلها حتى في الآثار المروية والأحاديث النبوية، وغير ذلك. من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة حتى إن السيد حسين المزلأوى الخطيب كان ينشئ خطبا يخطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا

(١) الجبرتي ص ١١٣ و ١١٤ ج ٢ و ٨٤ و ٨٥ ج ٣ وطبقات الشاذلية ص ١٥٣

و ١٥٤ (مع سناجة في تمليل الظواهر)

(٢) طبقات الشاذلية ص ١٧٢

فيها بالمشهد الحسيني ويزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب وغفران الذنوب حتى أتى سمعت قائلاً يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات^(١) . . . او كذلك كان شأن هذا الرجل المادى الوصولي منع أعظم المدرسين في ذلك الوقت ، قال الجبرتي كذلك « وبالغوا في تعظيمه وتقبييل يده ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا في صلواته وجوائزه وخصول الشهرة لهم ، وزال الخمول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر ، وزاد هو أيضا وجها ووجاهة بمجالستهم وبلغ به أنه لا يقوم لا أكثرهم إذا دخل عليه ، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه ويقول عند مشاهدته يا مولاي يا واحد ، فيجيبه هو بقوله يا مولاي يادائهم يا على يا حكيم ، فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين جبا على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه ، وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . . . الخ^(٢) . بل حسب هؤلاء الشيوخ نفوذ عند الشعب ، مرضاته عما كانوا يرتكبونه من الزنا بالنساء والقسق في الغلمان ، وتعاطي المخدرات واستيلائهم على أموال الناس ، وحرصهم على الدنيا باسم الزهد في الدنيا والاستهانة بشهواتها والرغبة في الاتصال بالله . . . ١.

...

بعض آيات نفوذهم عند المريدين :

أوجب شيوخ الطريق على المريدين آدابا شملت إرادته وطمست شخصيته ، ورفعت الشيخ في نظره إلى مرتبة الله ، بل تجاوزت به هذه المرتبة . . .^(٣) فن

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٥ ، بيت السادات الوفاية ص ٢١

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٣) أنظر كتابنا عن الشعرائي في الفصل الذي عقده على علاقته بالمريدين

ذلك ما يراه السيد محمد البكرى الكبير + ٩٩٤ هـ في رسالة له يصرخ فيها بأن من واجب العبد - أى المرید - أن يذكر أنه بين يدي أستاذه « في كل نفس من أنفاسه »^(١)، ولكنه يصرح في رسالة أخرى بأن الله قد جعل أسبابا يصل بها عبده إلى حضرته الربانية ، منها مراقبة الحق وتذكر العبد أنه بين يدي الله في « سائر أوقاته أو غالبها .. ١١ »^(٢).

بل أوجب الشيوخ على المرید أن يستجيب لأوامرهم ولو قضت بعضياته لله وتمرده على قواعد دينه ، بأفطار رمضان أو الإهمال في إقامة الصلاة .. ١١^(٣) ومثل هذا يقال فيما أباحه الشرع وحرمه الشيخ ، لأن الترقى لا يكون بالاستمتاع بالمباح من اللذات ، بل بالزهد فيما أحل الله من وجوه اللذة ، والتزام الجانب الوعر في السلوك إلى الله .^(٤) واتباع نصائح شيخه - بالغنا ما بلغ وجه الإجحاف بها وقلة الذوق فيها .. ١٠^(٥) بل إن السنة المروية عن رسول الله - فيما يدعون - لا تهرر اعتراض المرید على شيخه في أمر أو نهى .. ١٠^(٦) وإذا أشرك المرید بشيخه شيخاً آخر ، كان كمن يشرك بالهة .. ١١^(٧) إلى آخر هذا الهدر الذي نشأ في آثار هؤلاء الشيوخ .. ١٠

بعضه آيات نفوذهم عند الختام :

وقد استبد سلطان هؤلاء الشيوخ بنفوس الملوك والسلاطين والأمراء ، فتنافس هؤلاء في الاتصال بهم والظفر بمرضاتهم وإصابة الطبيبات من دعواتهم ، واستغلال نفوذهم عند الشعب في اكتساب مرضاته عن جور هؤلاء الحكام : فمن ذلك أن كان الولاية يتقربون إلى بعض هؤلاء الشيوخ ويتخذونهم أصدقاء

(١) هداية المرید ٤٦٠ (مخطوط)

(٢) تحفة السالك من ٤٥٨ (مخطوط)

(٣) السير إلى الله من ١٠١٩

(٤) الشتران : قواعد الصوفية من ٢٥٧

(٥) فارق المصدر السالف من ١٢٦ و ١٣١ و ٢٠٧

(٦) المصدر السالف من ١٣٠

(٧) المصدر السالف من ١٥٤ و ١٥٥ فارقن الجبرتي ج ٢ من ٦٥ — ٦٦

وندماء (١) ويتردد نواب مصر وقضاة عساكرها وحكامهم على الدر داتس
+ ٩٥٤ هـ ويلتمسون تقبيل يده فلا يلقى لهم بالا (٢) ، بل كان الأمراء
والسلاطين في بلاد العالم الاسلامي يحسنون الظن بالسيد البكرى + ٩٩٤
ويكاتبونه ويهادونه ويلتمسون عنده النصيح والإرشاد ، ويستجيب لشفاعاته
ولاة مصر ونوابها ، ويختلف لزيارته الوزير سنان باشا كل يوم جمعة ، ويقبل
يده ويأتمر بأمره وينتهي بنهيه (٣) . وكثيراً ما كان الأمراء يساهمون في
إقامة أضرحة الأولياء وتنظيم موالدهم المملأ بالفساد من الزنا بالنساء
واللواط بالغبان ونحوه (٤) ، وكان نساء الأمراء يحسنن الظن بالدجالين من
هؤلاء ويغمرنهم بالهدايا والنذور - كما كان شانهن مع المخبول على البكرى (٥)
صاحب الضريح والمزار القائمين في الرويحي بالقاهرة إلى يومنا الحاضر .
ولم يكن هؤلاء الحكام في موقفهم من شيوخ الطريق - صادقين كانوا
أودجالين - يمتازون عن طعام الناس كثيراً أو قليلاً ، وأحاديثهم التي
تشهد بهذه السذاجة أكثر من أن يحصيها العد ، فن ذلك أن الوزير علي باشا
ابن الحكيم قد اشتد به الضيق في إحدى رحلاته ، فرأى في منامه احمد البكرى
+ ١١٥٣ ، فلما استيقظ اشتد إيمانه بولاية هذا الرجل ، فاذا زاره الشيخ
تلقاه الوزير باحتفاء بالغ ، وخر على الأرض وأخذ يقبل قدميه ، ويطلب إليه
أن يأذن له في زيارته بين الحين والحين ، وراح يرسل إليه الهدايا بغير حساب (٦) .
بل كان الأمير إذا تعنت مع أحد هؤلاء الشيوخ ، ثم أصابه شر ، نسبوا ،
ما أصابه إلى الشيخ المبيض ، واشتد إيمان الأمراء بولايته . وهذا النوع من

(١) أنظر مثلاً « الحقيقة والمجاز » لتالبس ص ١٤٧

(٢) الهجى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ٣ ص ٢٥٤ والحقيقة والمجاز

ص ١٠٠

(٣) توفيق البكرى : بيت الصديق ص ٧٦ - ٧٧ وانظر ص ١٧٨ عن ابن المواهب البكرى .

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٢٥ عن موقف الأمراء من العقيق .

(٥) الجبرتي ج ٧ ص ٨٤

(٦) الجبرتي ج ١ ص ١٦٣ وبيت الصديق ص ١٦٠

الشواهد يملا كتب الطبقات والتراجم ، وإن كان الكثيرون منهم يرون أن التصريف بالمقدرة الالهية - وهو القدرة على العزل والإيذاء والتكبل - لا يكون لغير واحد من أولياء الله ..

فلم يكن غريباً بعد هذا أن يلتمس الحكام معونة هؤلاء الشيوخ زلنى إلى الله من ناحية ، وضماناً لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إليهم عند المحن والأزمات ، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام ، أو فى الانتصار على الخصوم والأعداء ، روى الجبرتي أن إبراهيم بك قد مضى إلى البكرى + ١٢٠٨ هـ والعروسي + ١٢٠٨ والدردير + ١٢٠١ - حين أقبلت إلى مصر الحملة التأديبية التركية بقيادة حسن باشا الجزائرلى القبودان - وأنه أخذ هيبكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جداً ،^(١) . وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف فى مصر إبان عصرهم^(٢) . وإن جمع العروسي والدردير بين الفقه والطريق .

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكرى ، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام فتح نابليون ، كانوا - فيما يقول الجبرتي - يلوذون به ، ويجمعون فى بيته ، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة^(٣) .

وقد بلغ من نفوذ الشعرائى عند الحكام ، أن كان يسعى لتعيين القضاة.

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١١٨

(٢) اقرأ تراجمهم فى الجبرتي ج ٢ ص ٢٦٦ - ٧ للأول و ٢٦٧ - ٢٧٠ للثانى

و ١٥٧ - ١٥٨ لثالث وقد ذكرت طبقات الشاذلية ترجمة قصيرة للعروسي ص ٩٥٩

(وحددت تاريخ وفاته خطأ بعام ١١٠٨) وترجمة أخرى للدردير ص ١٥٥ - ٦

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٩٢ . وبيت الصديق ص ١٣٢

والمحسنين وشيوخ العرب في وظائفهم^(١) كما كان الحفناوى تطب رضى الديار المصرية ، ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه ،^(٢) .
وقد كان هؤلاء الشيوخ ، يعملون من جانبهم على إيهام هؤلاء الحكام بفسطوتهم وسعة نفوذهم ، لأن هذا يعلى من شأنهم في نظر الناس ، ويكثر من أتباعهم ، ويدبر عليهم المال الطائل ، ويحقق لهم السمعة الطائفة ، فكان الشيخ يقول لتقيب زاويته : إذا أقبل الأمير الفلانى لزيارتى ، فقل لى على مسمع منه إن الباشا قد أرسل اليكم السلام مع أحد أفراد جماعته ، وهو يطلب اليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم . فإذا سمع الأمير ذلك ، نقله إلى سائر الأمراء فيعلو شأنه عندهم ، ويكثر ترددهم على زاويته ، ويقوى اعتقادهم فى ولايته . . .^(٣)
وكان الشيخ السادات + ١٢٢٨ هـ يلتمس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء ، فكان يدعوهم إلى زيارته فى بيته ، ثم يوعز إلى فقراء الطرق الأحمدية والسعدية والشعبية بأن يمرؤا بمواكبهم تحت داره ، حتى يدرك الحكام مبلغ نفوذه عند أرباب الطريق . . .^(٤) .

...

ومن الأرزاق التى أجراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحسنين ، عاش هؤلاء الفقراء فى ترف ورخاء — لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق — ولكنهم كانوا يدعون أنهم ينفقون من الغيب ، لأن الصادقين من شيوخ الطريق ، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات ، ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا^(٥) . والرزق إنما يكون مما يفتح الله ، فإن العبد إذا صدقت نيته ، وأخلص فى عبادة ربه ، أدناه الله من

(١) الشعرائى : البحر المورود ص ٢٢٣

(٢) الجبرئى ج ١ ص ٣٠٥

(٣) الشعرائى : لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٤

(٤) الجبرئى ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت الشعراء الوفاية لسيد توفيق البكرى ص ١٩

(٥) الشعرائى : تنبيه المغترين ص ٢ و ٣ ب (مخطوط) .

حضرته ، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه ، حتى ليرتفع فوق
نواميس الطبيعة وقوانينها ١١٠٠

ووجه الغرابة في هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخي ذلك
العصر ، وفاتت حقيقته ذوى الحجى منهم ممن سبقوا عصرهم بأزمان طوال ،
فالجبرتي يؤرخ لمحمد القليني الأزهرى + ١١٦٤ هـ فيقول إنه كان من أصحاب
الكرامات والمآثر ، منها أنه كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد
ولا ملك ولا وظيفة ، ولا يتناول من أحد شيئا ، وينفق إنفاق من لا يخشى
الفقر ، وإذا مشى في السوق تعلق به الفقراء ، فيعطيهم الذهب والفضة ، وإذا
دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه ، ١١٠٠^(١) ويقول المحبى في ترجمة أحمد بن
سلام المصرى ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء ، ويجب الفقراء ولا
يقبل من أحد صدقة مطلقا ، بل كان في غالب أوقاته يئرى متصدقا ، وليس له
وظائف ولا معالم ، وعلى ذلك كان في أرغد عيش وأطيب نعيم ، ١١٠٠^(٢) ويقول
الشعراني عن الشيخ الدويب ، إنه - حين وافته منيته - خلف مائة ألف
دينار ، لا يعلم أحد مصدرها ، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا في جاهها ١٠٠٠^(٣)
ومرد الأمر كله - فيما نرى - إلى الأرزاق التي يجريها الأمراء ومن
إليهم من المحسنين خفية عن الأنظار ، وهو تقليد حبذه الإسلام وحض
المحسنين على اتباعه ، ومن هدايا الملوك ومن إليهم عاش هؤلاء في وفرة من
الرخاء ، وتيسر لبعضهم أن يبز الملوك في مظاهر الجود والسخاء ، كما كان حال
الحفناوى + ١١٨١ هـ^(٤) والدردير^(٥) والسادات والشعراني^(٦) وغيرهم .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٩٦

(٢) الهبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٧٥

(٣) الشعراني : العليقات الكبرى ج ١ ص ١١٩

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٩٢ والدردير في «الطريقة الصاوية» ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٧ - ٨ (وهو بصرح قصة حجه وبناء زاويته من صلات

سلطان المغرب) .

(٦) في كتابنا عن الشعراني تحليل ما وقع له في هذا الضدد .

ومن الانصاف أن نقول إن هذا النفوذ الذى تهباً لشيوخ الطريق عند
حكام البلد ، كان يمثل سلطة الشعب أمام هؤلاء الطغاة ، وبهذا تجلت إرادة
الامة حتى فى أسود الأيام التى سجل فيها التاريخ استكانتها لاستعباد الحكام .
وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئاً آخر ، هو رد الظلم والكف
عن البنى ودفع العدوان ، ذلك أن شيوخ الطريق كانوا حلقة الاتصال بين
الشعب المظلوم وحاكمه الجائر ، وكان وساطة الشيوخ مجابة وشفاعاتهم مقبولة
فى أكثر الحالات .

وهذا بالإضافة إلى أن الأرزاق التى أجراها على شيوخ الطريق الأمراء
ومن اليهم من الحكام ، كانت تنفق فى أكثر الحالات على الشعب المنكود
الذى أرهقهم هؤلاء الحكام بضرائبهم الجائرة الظالمة ، ابتزه هؤلاء أموال الشعب
عنوة واقتداراً ، وردوا جانباً منها إلى شيوخ الطريق هدايا وأرزاقاً ، أنفقت
فى الترفيه على أصحاب هذه الأموال . . .

على أن شيوخ الطريق قد دفعوا ثمن علاقتهم بالحكام ، انتصاراً لظلمهم
وتأييداً للجائر من تصرفاتهم ، فآدى هذا إلى إضعاف روح الترد على هؤلاء
الظلمة ، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين (١) .

(١) فى كتابنا السالف الذكر ، فصلنا الحديث عن هذا فى فصلين عقدهما على

٢ - نفوذهم أمواتا

جلال الموت - الأميون من مدمى الولاية -
العلماء من مدمى الولاية - نظرتهم لى من أخذ
العهد على موتى الأولياء - الطوائف التى سلكت
الطريق على موتى الأولياء .

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم، واستأثر بالأميين والمستنيرين، وكلما تقدم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة فى ذلك، فان الشعوب - والمتأخرة منها بوجه خاص - تؤمن بالأضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد جيل، ولا يتدخل العقل فى تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر. وللموت حرمة ورهبة، تفضى بالناس إلى الاسراف فى تقدير من تخطفهم من الصالحين، والاشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الأتقياء... والصادق من شيوخ الطريق، بالغاً ما بلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين، ولكنه اذا أضحي فى ذمة الله، سكت عنه خصومه وحساده، وكف المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت حرمة الموت سوءاته، واكتفى الناس بتناقل حسناته عملاً بالقول المأثور: اذكروا محاسن موتاكم. ومن ثم يعلو اسمه بعد موته، وتتسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الأميون من مدمى الولاية:

وقد عرفت مصر أثناء العصر العثماني طائفة من جهلة الشيوخ ومشعوذهم الذين اتخذوا الولاية وسيلة للظفر بالدنيا وأداة للعيش الهنىء، وأحسن الكثيرون من الناس الظن بهم والاعتقاد فى ولايتهم، وعاش إلى جانب هؤلاء المنكرون لهم الساخرون بهم، فلما أصبح هؤلاء الشيوخ فى ذمة الله، خفت صوت المنكرين وتلاشت صيحة الساخرين، وخر الناس جميعاً ساجداً أمام حرمة

الموت الرهيب ، وشيدت ضرائح هؤلاء الأولياء وارتفعت قبابها وأقام العلماء والكبراء موالدهم في كل عام ، وساهم فيها خاصة الناس وعامتهم ١١٠٠ وقد كان في طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثماني في مصر على البكري + ١٢٠٧ (١) الذي أشرنا إليه من قبل ، إذ كان رجلا محبوبا يمشي في الأسواق والشوارع عاريا مكشوف الرأس والسواتين في أغلب حالاته ، أو يلبس قيصا وطاقية ويسير حافي القدمين يخلط في أحاديثه ، فيتبعه الأطفال والصغار وطعام الناس ويسرون وراهه بين منكر عليه ومصداق لولايته ، ولكن أكثر الناس قد مالوا إليه ، وصحت عندهم ولولايته ، كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ، كما يقول الجبرتي ١٠٠ وكان له أخ صاحب دهاء ومكر ، فبدا له أن يستغل إيمان الناس بولاية أخيه ، عسى أن يكسب من وراء لولئته ، فحجر عليه وحرّم عليه مغادرة البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القبطانية ... إلى غير ذلك من وسائل التضليل ، فأقبل الرجال والنساء على زيارته والتمنن به وسماع ألفاظه والانصات إلى خبطه وتأويلها بما في نفوسهم ، وأفاضوا عليه الهدايا والتذورات وخصه بالكثير منها نساء الأمراء والأكابر ، حتى أئثرى أخوه واغتنى ووفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل أبو العظيم ، ولبث على هذا حتى مات سنة سبع بعد المائتين والألف من الهجرة ، فدفنوه بمعرفة أخيه في مسجد الشرايبي على كئيب من مسجد الرويعي من غير مبالاة ولا اكتراث . وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاما ، ورتب له المقرئين والمداحين وأرباب الأشار والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه في قصائدهم وكانوا كما يقول الجبرتي « يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويفرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه في عبايهم وجيوبهم » قال البدر الحجازي شاعر العصر في بعض مقطوعاته :

(١) سمى البكري نسبة إلى سوقة البكرية التي كان يقطن بها .. فهو لا يمت بصلة إلى أسرة البكري المعروفة .

لينا لم نعش إلى أن رأينا كل ذى جنة في الناس قطبا
علمهم به يلوذون بل قد اتخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا وله يهرعون عجماء وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصنامهم تبتغى بذلك قربا
إلى أن قال في قصيدته الحافلة بالأخطاء :

كل ذا من عى البصيرة والويد ل لشخص أعمى له الله قلبا
والحجازى حسنا ينظر ما خالف الشريعة صنعا
وهرع لزيارة هذا الدعى المخبول النساء والرجال ، محملين بالنذور والشموع
وضروب المأكولات . وصار ذلك المسجد مجمعا وموعدا (١) .

العلماء من معنى الولاية :

وإذا كان هذا موقف المصريين من رجل جاهل معتوه كعلى البكرى ، فليس
غربيا أن يشتد بهم الإيمان برجل جمع بين العلم والتصوف كالشيخ عبد الوهاب
بن عبد السلام العفيفي + ١١٧٢ هـ . فقد كان هذا الرجل عالما على طريقة
أهل عصره ، وقد اشتهر بينهم بصدق الولاية وصحة الكرامة . وقد سحت
السما مطرا غزيرا بعد ثمانه بست سنوات ، فتهدم قبره وامتلأ بالماء ، فتحرك
في القبر سره وأخس أبناؤه ومريدوه بذلك ، فخفوا لنصرته سراعا .
شادوا له قبرا على كثب من عمارة السلطان قايتباى ونقلوا اليه عظام الفقيد ،
وعقدوا على القبر قبة وأقاموا له مقصورة تضم مقاما عليه عمامة كبيرة ، فأضحى
قبر الميت مزارا عظيما بعد ست سنوات بلى فيها جسمه ونخرت أثناءها عظامه .
ثم أنشأوا إلى جواره قصرا عاليا — عمره محمد كتنخدا أباطة — وجعلوا حوله

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥ ، ج ٢ ص ١٩٣ وفي طبقات الغاذية ص ٦٠٣

— ١٥٤ — رواية أخرى قائمة على التمجيد والثناء .

رحبة متسعة تحيط بها الأسوار لتكون موقفاً للدواب من خيل وحمير يفد على ظهورها زوار المقام ، وضحوا في سبيل ذلك الكثير من قبور أكابر الأولياء وأقذا العلماء الأولين والمحدثين من المسلمين والمسلمات . . ثم ابتدعوا لهذا المزار المصطنع موسماً وعيداً يقام كل عام ، ويفد اليه الناس عند إقامته من شتى البلاد - بحريها وقلبيها - وينصبون كثيراً من الخيام والسرادق والمطابخ والمقاهى ، ويختلف اليها خاصة الناس وعامتهم من فلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والألعاب والراقصات والبغايا والحواة وأصحاب القردة وغيرهم حتى يضيق عنهم البستان وتمتلئ بمجموعهم الصحراء ، وهم يطئون القبور بأقدامهم . . ويوقدون النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون وبلعون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمر ليلًا ونهارًا ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر . .

وما كان العوام وحدهم الذين يسوقهم الجهل إلى تقديس الجثث التي أبلاها الزمن ، وإن العلماء ليساهمون في إكبار الموقى من هؤلاء الشيوخ وتقديس ذكراهم ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامّة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة ولولم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلاً عن كونهم يفعلونه (١) ولقد وصف الأستاذ « اين » E.Lane انتشار الأضرحة في قرى مصر وإقبال المصريين على زيارتها وإشم عتباتها وتقبيل نوافذها وحوائطها ومقاصيرها ، وتقديم النذور إليها وإقامة الموالد لها ، وشرح ذلك كله في كتابه الذى وصف فيه رحلته إلى مصر بعد انقضاء العصر العثماني بيضع عشرات من السنين (٢) .

نظرهم الى ممة أئمة المرمر على موتى الأولياء :

هذا موقف الناس من الأولياء إذا طوتهم القبور ، . وإن الانسان ليعجب

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ وطبقات الشاذلية ص ١٥٧ .

(٢) Lane, Manners and customs of Modern Egypt p. 244-6

لهذا السلطان الذى بلغ من قدرته على الاستبداد بهوى الناس أن كان يحمل بعضهم على التلمذ على يد من أصبحوا فى ذمة التاريخ...كم عرف تاريخ التصوف فى العالم الإسلامى من فرق وطوائف تعيش على ذكرى أولياء طواهم الرمس منذ ستين طوال . ولم يقدر لواحد من هؤلاء المريدين أن يرى هذا الولى أو يسمع عنه من عاصروه... وقد شاع فى مصر إبان العصر العثمانى هذا النوع من الولاية : يدعى المشيخة واحد من عامة الناس ويزعم أنه قد أخذ العهد على البدوى أو الرفاعى أو الجبلى... أو أى من هؤلاء الأولياء الذين لم يسعد برويتهم والاستماع عليهم ، ولكن سحرته سمعتهم التى تتطير فى العالم الإسلامى كله... وسرعان ما يلتف حوله أرباب الحرف وغيرهم من سذج الناس .

ثم يعيش هذا الشيخ وهؤلاء الأتباع والمريدون على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم الولى الكبير الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه.. لأنهم ليستمدون منه السر ويستلمونه الولاية ويستعينون به على إتيان الكرامات ، ويستمطرونه الرحمة ويكادون أن يستغفوا به عن الله.. وإن سلطانهم لقوى لا يخشى بأس منكر ولا ساحر ، فلا يعبأون بمن طعن فى تصوفهم أو اتهمهم بالجهالة أو الشعوذة ، أو الخروج على ظاهر الشرع ، فنى شيخهم الأكبر فى قبره غناء وأى غناء.. ولقد كان التلمذ على يد شيخ طواه القبر جائزاً حتى فى عرف من أنكروا على هذه الفرق تصوفها من غير شيخ حتى.. لأنهم يستقنون فى هجومهم من أخذ الطريق على ولى كبير غير مطعون فيه — كالسيد البدوى مثلاً — وفى هذا الاستثناء ما يبرز قيام هذه الفرق فى نظر أهلها .

قالوا إن الأموات فى البرزخ قد صارت وجهتهم إلى الآخرة وظهورهم إلى الدنيا فلا يعنهم خرابها ولا يههم عمارها إلا إذا كانوا شيوخاً حسنت ولايتهم ووجب الاقتداء بهم ، كالأئمة المجتهدين وأصحاب الرسل . فإن

الاقتداء بغير هؤلاء اقتداء ناقص ، لأن لكل إنسان أمراضاً لا تعرف بغير المشافهة مع شيخ حتى يدل مریده على كيفية الدواء^(١) ، ثم إن المشيخة ليست تركة تنال بالميراث ، وإنما هي ثمرة الصبر والرياضة والمجاهدة والجد والاجتهاد^(٢) . على أن الصالحين من الموتى أولياء قد أوتوا القدرة على تربية الصادقين من المريدين ، وهم في البرزخ - كالسيد أحمد البدوي - فإن مریده يسمعون صوته منبعثاً من قبره كما وقع ذلك للشيخ محمد الشنواي - ٩٣٢ هـ على مسمع من الشعرائي حين زاره في رسمه واستشاره في السفر إلى مصر فأذن له وقال « سافر وتوكل على الله » ويزعم الشعرائي أنه سمع ذلك بأذنه الظاهرة وكذلك كان عز الدين الأصفهاني يجتمع في المنام بشيخه أحمد الرفاعي ، فيأمره هذا وينهاه ويربیه ويشير عليه بما ينبغي اتباعه في حياته ومن صح له هذا المقام جاز له ألا يتلبذ على يد شيخ حتى مكثياً بشيخه الميت . على أن من واجب المريد ألا ينصاع للأوامر التي يسمعها من شيخه في قبره إلا إذا عرضها على علماء الشريعة ، مخافة أن يكون الناطق بها شيطاناً لا ولياً . على أن الذين يشترطون هذا الشرط يقولون إن صحة الاقتداء بالموتى من الأولياء وامتثال أوامرهم ونواهيهم لا يستلزمان رؤية صورهم الظاهرة ، ويقولون إنا اقتدينا برسول الله وصحابته والأئمة من بعده ، وما اجتمع واحد منا بأحد منهم . وما منع جمهور العلماء من ذلك^(٣) . . . وهكذا كان أهل التصوف جميعاً ، على اعتقاد في صحة الاقتداء بالموتى من الشيوخ ، وإن رأى بعضهم أن ذلك لا يجوز لغير كبار الصالحين من الأولياء ، ولا ينتفع به إلا الصادقون من المريدين والأتباع .

الطوائف التي سلكت الطريق على موتى الأولياء :

وقد حفلت مصر في العصر العثماني بهذه الفرق التي عاشت حالة على الموتى

(١) الشعرائي لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٩

(٢) قواعد الصوفية ص ١٧٣

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٩

من الأولياء ، كفرق الأحمدية والبرهامية والمطاوعة والرافعية . . . وكانت تضم ألوف الأتباع المرادين ، فأكسبها هذا سلطاناً واسع النطاق ، وهون من شأن الحملات التي أثار عثورها خصومهم ، واستفز حفيظة بعض الشيوخ - من أمثال الشعراني والخواص والجارحي - وحملهم على الطعن فيها والخط من شأنها . . . قال الشعراني إنه لا ينكر على هذه الفرق إلا ما خالف صريح الشرع أو الإجماع^(١) ، وأنه يحسن الظن بهذه الطرق جميعاً ، ولا يحكم على فقراء هذه الفرق التي أسلفنا ذكرها بأنهم خارجون على الشريعة لمجرد إشاعة تطاير حولهم ، بل لا بد له من أن يرى بعينه حتى يستطيع أن يحكم حكماً تظمن إليه نفسه ، فان في كل طائفة من الفقراء الصالح والطالح ، فلا ينبغي أن يشمل الحكم كافة فقرائها ، لأن في ذلك غيباً على الصالحين فيها^(٢) .

والظاهر أن الذي حمل الشعراني على الرفق في هجومه على هذه الطوائف هو مذهبه في تملق الناس وبجاملة الفرق ومسالمة الخصوم ولا سيما إذا كانوا أقوياء^(٣) . فان رأيه فيهم كان سيئاً ، وقد ظهر ذلك في فقرات أخرى ذهبت أشتاتاً في مختلف مصنفاته ، منها قوله على لسان أحمد الزاهد : إن الملامتية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرافعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة في عصره لأن أفعالهم يكذبها طريق أشياخهم من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة^(٤) . ويقول في مهاجمتهم إن كثيرين من الفقراء الذين لم يسلكوا على يد شيخ يتركون حرقهم ويدورون في الزوايا كلاً على الناس والاخوان يأكلون من الصدقات « وأوساخ الناس ، بعد أن كانوا يقتاتون

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤

(٣) انظر شرح هذا في كتابنا عن « الشعراني إمام التصوف في عصره » .

(٤) الشعراني : قواعد الصوفية ص ١٧٥

من حرفتهم^(١) ، وأن بعض فقراء الأحمديّة والبرهامية قد قنعوا بلبس الزى وجعلوا فروض الوضوء وشروط الصلاة ، ومثل هؤلاء ليسوا شيوخاً بإجماع المسلمين . فقد أدرك الشعرائى للأحمديّة والبرهامية شيوخاً كانوا على الكتاب والسنة^(٢) وقال إنه يكثر من إرشاد هؤلاء الفقراء إلى التلمذ على يد شيخ من الأحياء ، يريهم وينصحهم بالألا يكتفوا بالسوك على يد الأموات من الأولياء^(٣) ، وروى المناوى عن أبى السعود الجارحى أنه كان يرميهم بقصور الهمة ولا يأخذ العهد على من تلمذ لهم من قبل . . . الخ^(٤) .

وإن هذا الطعن كله لينيه بما كان لهذه الفرق من نفوذ وما توافر لها من سلطان ، ولعل من الانصاف أن نقول إن هذا الوهم الذى سلطته حرمة الموت على الناس كان إذ ذاك أمراً طبيعياً لا يدعو إلى دهشة ولا يثير عجباً ، لأنه وليد عوامل كثيرة تضافرت على وجوده وتعاونت على بثه فى نفوس الناس ، فمن ذلك ما ساد العصر من شعور دينى عميق كان يحمل الناس — خاصة وعامة — على الإيمان بقداسة كل ما يلصق بالدين من طقوس ورسوم وما يرتكب باسمه من بهتان وضلال . ثم هذه الجهالة التى تملكتم رءوس الناس وأضعفت من تفكيرهم فى ظواهر الحياة وجرتهم إلى الخلط والاضطراب كلما عمدوا إلى تعليل إحداها حتى جعلوا العلة الأولى ، سبباً مباشراً لكل ما نرى فى الحياة من شر أو خير . ثم هذا الضنك الذى كانوا يعانونه ويقاسون ضيقه ، وذلك الجزع الذى ملأ هذا العصر الذى كانت فيه بيوت الأمراء فى تشاحن وانقسام حتى لانكاد نطلع إلا على وثبة من حزب على حزب أو فتكة من أمير بأمير^(٥) . ولا شك أن ذلك كله كان كبير الأثر فى قلق الناس وجزعهم من عدالة الأرض ، والتماسهم الإنصاف فى رحاب السماء ، ومادام الإيمان بالله قد عمر نفوسهم ، والجهل قد عشنش فى رؤوسهم ،

(١) البحر المورود ص ٢١٦ — ٢١٧ (٢) قواعد الصوفية ص ١٧٦

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٤ (٤) النكواكب الدرزية ص ٤٧٨

(٥) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٢ .

والضنك قد أخرج صدورهم ، والخوف قد أنقض ظهورهم ، فإن إيمانهم بأولياء
الله بعد الممات يصبح أمراً طبيعياً محتوماً لا مندوحة عنه ولا مفر منه ..

عرضنا فيما سلف من فصول هذا الكتاب مظاهر النفوذ التي تهيأ لأرباب
الطريق — أحياء وأمواتاً عند شتى طبقات الشعب ومختلف هيئاته ، وعرفنا
كيف استعبدوا السادة واستبدوا بالطغاة وأذلوا الجبابرة وأخضعوا الخصوم
وانتصروا على الحساد واستولوا على أموال الأثرياء ... ونريد الآن أن
نعرف الأسباب التي هيأت لهم هذا النفوذ الواسع عند مختلف الهيئات .

اسباب انتشار التصوف

صلاحية مصر لانتفاره — الترف في معيضة أرباب
الطريق — سقوط التكاليف الديلية عن مدعى
الولاية — حالة مصر تحت الحكم العثماني —
حب الأثرانك للدروشة

صلاحية مصر لانتشار التصوف :

يقول الأستاذ لين « Lane » ، إن العرب قوم شديدو الإيمان بالخرافات ، وليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين ، وكثير من خرافاتهم الشائعة بينهم يؤلف اليوم جزءاً من دينهم ، لأن القرآن قد قال بها وأيد وجودها . . . ١١ وأظهر هذه الخرافات جميعاً هو الإيمان بالجن والعماريات^(١) . ثم أسهب الأستاذ في شرح هذا النوع من الإيمان عند المصريين ، وعقب عليه بشرح نوع آخر من الإيمان الخرافي ، هو الإيمان بقداسة الأولياء رغم ما كانوا عليه من خبل أو جنون أو دجل .

ويعتينا من النص السالف أن نلاحظ إطلاق الكلام فيه إطلاقاً لا يحده قيد ولا شرط ، لأنه يقرر أن العرب بطبيعتهم أهل خرافة ، وأن المصريين بفطرتهم عباد أوهام ، وربما انتهى بنا هذا التقرير إلى الدعوة العريضة التي حمل علمها في مستهل القرن الماضي رينان « Renan » ، وأشياعه ، يوم فرقوا بين الشعوب في قدرتها على الفكر والنظر ، بدعوى الاختلاف في حظهم من الطبيعة السامية والطبيعة الآرية . . . ١٠ على أن النظرة التي أملاها التعصب في القرن الماضي ، قد أخذت تذوب وتتلاشى في القرن الحاضر أمام الأبحاث العلمية التي يقوم بها مؤرخو الفكر البشري ، ولا سيما من أهم منهم بدراسة الفلسفة الإسلامية .

(١) كتاب الأستاذ لين Lane ص ٢٢٨ .

والرأى عندنا أن انتشار الخرافات في شعب من الشعوب يتناسب طردياً مع شيوع الجهل ، عكسياً مع انتشار العلم ، وإذا فشت الجهالة في شعب وأصابته الفاقة وأدركه الضنك وثقلت عليه الحياة ، كان هذا الشعب أصلح البيئات لشيوع الخرافات وانتشار الأوهام . وقد توافرت في المصريين إبان العصر العثماني هذه الصفات : ملأت الجهالة رؤوسهم وأنقضت الفاقة ظهورهم ، وأخرجت المظالم صدورهم ، فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التي ثقلت على كواهلهم ، وأقوى مظاهر الخيال الذي يميل إليه هذا النوع من الشعوب ، ما كان له اتصال بالعقائد الدينية ، لأن التدين يغذي هذا النوع من الإيمان الخرافي ويقويه في نفوس أهله . فرد الأمر في هذا الإيمان إلى الظروف التي أحاطت بالشعب المصري لا إلى طبيعته .

هذا فيما يتصل بالدجالين من مدعى التصوف ، فأما المستنيرون فقد كان سبيل الاطلاع على كتب السلف من أهل التصوف ميسراً لهم ، فالغزالي — على وجه الخصوص — كان ذائع الصيت في العالم الإسلامي كله ، وقد انتشرت تعاليمه وشاعت مؤلفاته في التصوف وغيره ، وتناولها الكتاب بالشرح والتلخيص والاعتراض والتأييد ، وحسبنا أن نعلم في هذا الصدد أن كتاب الوجيز قد كتب عنه سبعون شرحاً بعضها في ستين أو ستة عشر مجلداً^(١) ، وقد ساهمت مصر بنصيبها في هذا الميدان ، ومن مظاهر الاشتراك في فهم تعاليمه إبان العصر المملوكي أن محمد بن علي العجاوني — ٨١٣ هـ — قد قام

(١) الزبيدي ج ١ من أبحاث السادة الثقلين ص ٤٣

وقد وضع كتاب الأنوار القدسية ، وخص فيه « الفتوحات المسكية » لابن عربي ، وخص به العلماء الأكابر ، إذ « ليس لغيرهم منه إلا الظاهر » ثم اختار منه كتاباً سماه « الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر » في جزئين ، « ووضع اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر » في جزئين ، حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكشوف والبيان وعقائد أهل الفكر والاستدلال ، وأقام هذا الكتاب كله على أقوال ابن عربي في الفتوحات وغيرها من آثاره ، ووضع كذلك « سواطع الأنوار القدسية فيا صدرت به الفتوحات المسكية » ، وهو — فيما نعلم — لا يزال مخطوطاً ، و... الخ . . .

بتلخيص كتاب « الإحياء » وكان شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وقام أخوه باختصاره في كتاب وصف الشيخ زين الدين قطلوبغا الحنفي المصري + ٨٧٩ هـ كتاباً أسماه « تحفة الإحياء فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء » ثم وضع الجلال السيوطي + ٩١١ مختصراً آخر « للإحياء » وكان السيوطي طائر الشهرة قوى النفوذ بين معاصريه ، وجاء الشعراي فوضع رسالة في كلمة للغزالي هي « ليس في الامكان أبدع مما كان » واطلع الشعراي على كتب ابن عربي وتأثر بها تأثراً أدى به إلى أن يصبح « بوقاً » لابن العربي يردد في كتبه آراءه بين الحين والحين ^(١) . ثم جاء « الزبيدي » في أواخر العصر العثماني + ١١٠٥ هـ فشرح الإحياء في عشرة أجزاء كبار ^(٢) ، وقراء الجبرقي وغيره من مؤرخي العصر يعرفون أن كتاب الإحياء للغزالي والرسالة القبطية وعوارف المعارف للسهروردي كانت شائعة منتشرة بين المستنيرين .

ومن الخير أن نعقب على هذا الكلام الجميل ، بذكر ظواهر أخرى كانت من أعظم البواعث أثراً في شيوع التصوف بين الناس :

كان الفقراء أرواح بالاولاً أكثر طمأنينة من الفلاحين في حقوقهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم ، فقد كانوا كما أسلفنا من قبل في أمان من تطبيق القوانين ، ومنجاة من ضغط الرأي العام ، واستعلاء على أبسط مبادئ الدين ، وقل من الحكام من سوى بينهم وبين سائر طبقات الشعب في جمع الضرائب وأخذ الأتاوات وإزعاجهم بالعدوان بين الحين والحين ، كان الشعب يتن ولا سيما في فترات الظلم إبان هذا العصر — من شدة الضنك والاعتداء على الحرمات وامتهان الحريات على أيدي فرق الجند التي كانت لا تجد لها رادعاً يردعها عن هذا الغي ، وكان الحكام — في الكثير من

(١) انظر كتابنا عن « الشعراي إمام التصوف في عصره » ص ٥٩ - ٦٣
(٢) طبعة مصر — أما طبعة المغرب فتقع في ١٣ مجلداً (ومن الصعب على المصري قراءتها للاختلاف في رسم الحروف بين المصريين والمغاربة .

الأحايين — إذا اهتموا بعلاج هذا الفساد عجزوا عن الضرب على أيدي
الأميين والمعتدين ، فلهجوا إلى الشعب الذي يتن ويشكون هذا العدوان ،
وطالبوه باخفاء نفسه عن المفسدين ، وشددوا النكير على من لا يستجيب
لهذه الأوامر^(١) ، وما أكثر حوادث العبث بالمشايخ بخطف عمائمهم
والاستهتار بالناس والاستهانة بالحرمان بخطف النساء والصبيان من
الطرق ليلاً ونهاراً^(٢) . وكان التجار — في فترات الظلم — لا يأمنون على
بضائعهم وأموالهم من العدوان الذي يتوقعون نزوله بهم بين الحين والحين .
وقد كان من عادة الفرق العسكرية إذا فتحت بلداً شاركت أهل الحرف
في مكاسبهم ، فيمضى الجندي منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه في المحل
ويصبح شريكه في أرباحه... حتى ثقل على أهل البلدة هذه الفعلة لتكلفتهم
مالاً ألفوه ولا عرفوه^(٣) . وكان التاجر لا يكاد يستقر في متجره حتى يسمع
الناس يتصايحون ويتسابقون في العدو ، فسرعان ما يحسبها فتنة قد شبت
نارها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فراراً... وكثيراً ما كان يتضح له بعد ذلك ألا
فتنة ولا قتال ، فيعود إلى محله فيفتحه^(٤) . وكان الفلاح في قريته معرضاً
لنوع آخر من الفزع والجزع ، كان القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه
بدفع الضرائب والأدوات ، فان عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه^(٥)
وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالاً : بالمقارع والكسارات وعصر الرأس
وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق
 ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس^(٦) وما إلى ذلك من ضروب القسوة
البالغة ، وكان المباشرون — ولا سيما في بداية الفتح — كالمملوك يتصرفون

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٤٩ ، ابن اياس ج ٣ ص ١٥٠ و ١٨٣

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ١٤١ و ١٨٣

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤ (٤) الجبرتي ج ٢ ص ١١٩

(٥) الرافعي في الحركة القومية ج ١ ص ٣٠ (٦) المناقب الكبرى ص ١٣١

في أمور الدولة بما يشاءون وليس على يدهم يد،^(١) وما كان الولاية والكشاف والأعراب وقطاع الطرق ومناصر اللصوص هم وخدم الذين يقلقون بال الفلاحين والتجار بين الحين والحين ، فقد كان الأغنياء والفقراء ينزلون بضياقتهم فيبادر هؤلاء بإعداد الطعام الفاخر لهم ، وتهبئة الجو الصالح لضياقتهم ، ويتحملون في سبيل ذلك ما لا قبل لهم باحتماله^(٢) ، بل كان التقصير في أداء هذا الواجب يعتبر عند الناس فضيحة^(٣).

أما المجاورون في الزوايا فقد كانوا — حتى في أغلب فترات الظلم الفادح — في نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم ويخشون سلطانهم الروحي ، ويؤمنون باتصالهم بالله فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضاء منهم ، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصديه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال .

الترف في معيشة أرباب الطريق :

وكان للفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك ، لا يجهدون أنفسهم في احترام عمل يكسبون قوتهم من ورائه ، بل كانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهدد والتجرد لعبادة الله . ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتأفة من شئون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، وقد وصف مؤرخو العصر — من الجبرتي وابن اياس والشعراني ومن إليهم — حال المصري تحت الحكم العثماني ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك ، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر

(٢) ودع الفقراء ص ١ ، ٢ ، ٢٠٠

(١) ابن اياس ج ٣ ص ١٨١

(٣) البحر المورود ص ٣٠٤

اليسر والهناءة . فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يشير الدهشة ويدعو إلى العجب (١) .

سقوط التكاليف الريفية عن معنى الولاية :

كان من العوامل التي أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأي القائل بأن الولي يسقط عنه كل ما أمر به ، ويحل له أن يفعل كل ما نهى عن فعله ، والأصل في الرأي أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى في الولاية . فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية ينقذهم من تكاليف الدين ، وينجيهم من فروضه وواجباته ، ويتيح لهم التمتع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات — وكان طبيعياً أن يشيع مثل هذا الرأي بين ناس قد انحلت أخلاقهم في عصر شابه الذل وتمشى فيه الضنك وساده الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس — فنزع بعض الناس إلى الحرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأي العام على حرية الناس ، بالتماس الحرية في رحاب التصوف ، وإدعاء الولاية التي ترفعهم عن سائر البشر ، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضاع العرف ومقتضيات التقاليد .

ولعل انحلال الأخلاق في هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية ، ولا عجب في أن تنحل أخلاق قوم يشتد في نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فإن تاريخ الأديان يقول إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمي إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه ، ونزعة ترمي إلى التهاون في تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنباً إلى جنب في العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد . II وبهذا وجد انحلال الأخلاق في مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره

(١) انظر في تفصيل ذلك الفصل الثاني من كتابنا من « الشعراي » . وقد أدى الترف الذي ينعم به المريدون ومن لا يهتم من مجاورى الزوايا وروادها ، إلى إقبال الناس على اعتناق التصوف والافادة من ثمراته .

من تعصب شديد ، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقى شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة^(١) وشيوع الشذوذ الجنسي من هشق المرء والغلمان ، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعرائى عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهى تخادع زوجها وتستغل غفلته^(٢) . وقد كان هذا الداء شائعا فى هذا العصر ، فقد انتشر الزنا بحليلة الجار أو من غاب زوجها ، حتى لم يسلم منه أحد ، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع فى الزنا فليحلف بالله على ذلك ، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم^(٣) .

ومن أمثلة النوع الثانى ما رواه عبد الغنى النابلسى عن إمام مسجد السنانية بيولاى فقد حضر النابلسى مع زين العابدين البكرى + ١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن فى خطبته وصلاته ، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسى وابتسم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه ، فلما انتهت الصلاة معنى الخطيب إلى زين العابدين فى زاوية الكشنية وأخذ يتشفع عنده « فى أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها ، فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يتسم لكثرة لحنه فى خطبته وصلاته . فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التى هى مناه ، ثم عدل عن ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون^(٤) ولو أن تعاظم الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته ؛ لالتبس هذا الامام عذرا للحنه غير

(١) كان الأفيون غير شائع بين المصريين وإن شاع بين الأتراك فى مصر وقد فشى

الحشيش بين المصريين كما يقول كلوت بك فى «لحة إلى مصر» ج ٢ ص ٥٢٥

(٢) اليهود الحمديّة ص ٢٧٩

(٣) اليهود الحمديّة ص ٣٤٧

(٤) عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والحجاز + ١٠٧ - ١٠٨

هذا العذر ، والجبرتي وابن إياس خير من تحدثا من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوذة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر (١) .
والأمثلة على النوع الثالث (الشدوذ الجنسي) كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، فكثيراً ما ترى في كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يعشق الغلمان سماحه الله (٢) وقد عرضنا بعض مظاهر هذا النوع من قبل .
وليس أدل على شيوع الشدوذ الجنسي بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعه بك طهطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشرًا بين أهلها .
كان انتشاره هو الشيء الطبيعي وغير الطبيعي حقا ألا يكون شائعا بين الناس (٣) .

هذا الانحلال في الأخلاق قد ساعد الناس على التهافت على دخول الطريق وادعاء الولاية ، وعاون على تمهيد السبيل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة ، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل ، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء ، ويتساموا بأنفسهم عن تضليل الناس .
وينبغي أن نشير الآن إلى أن العوامل التي أسلفناها لم تكن وليدة العصر العثماني وحده ، فقد قامت في مصر وعظم أمرها قبله ، وازداد خطرهما واستشرى داؤها إبان العصر العثماني ، وذلك متفق مع رأينا الذي أعلنه من قبل حين قلنا إن التصوف الذي قام في مصر إبان العصر العثماني ، كان امتدادا طبيعيا للتصوف الذي شاع في مصر قبيل ذلك ، وأن الخلاف لم يكن في نوع تياراته بل كان في قوتها أو ضعفها ، وسنزيد هذا الكلام وضوحا فيما يلي من حديث .

(١) في ابن إياس ج ٣ ص ١٣ ، ٨٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ،

١٩٨ أمثلة لتأييد ذلك .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٧٦

(٣) الذهب الأبريز لرفاعة طهطاوى .

مقالة مصر تحت الحكم العثماني :

ساعدت الحالة في مصر تحت الحكم العثماني على نمو التصوف وازدياد انتشاره ، والرغبة في تأييد هذا الرأي لا تمنعنا من التصريح بأن الحالة في هذا العصر كانت فيما نرى امتدادا طبيعيا للحالة قبيله ، وأن الخلاف بينها كان فيما شمل التيارات من قوة أو ضعف . . لا نقول إن الحكم في العصر العثماني قد ساء ، ولكننا نقول إنه ازداد سوءا فترتب على ازدياد سوءه فيه نتائج ، كان من أكبرها خطرا ما اتصل بالتصوف وموقف الناس إزاءه ، إذ أدى بهم شعورهم بنمو سوءه في الحكم الجديد الى مضاعفة الرغبة في دخول الطريق واعتناق التصوف . . ولكن هذه الآراء كلها أحكام عامة لا يحسن بنا أن نمر بها دون أن نحاول التدليل على صحتها :

إن الشعوب إذا مرضت بالفاقة والجهالة تناسب رضاؤها عن الحكم تناسباً طردياً مع رخاء العيش وصيانة العقائد الدينية في عهدهم ، فالحكام الذي ينجح في تحقيق اليسر لهم ويصون تقاليدهم الدينية من عبث الاستهتار ، يكون أحب الحكام إلى نفوسهم ، وأدناهم إلى عواطفهم ، ولو امتنن حرياتهم واحترم كرامتهم وداس كافة حقوقهم وحرمتهم ، فاذا نظرنا إلى الحكم العثماني بهذا المنظار وقارناه بالحكم المملوكي في نهايته ، قلنا إن المصريين قد ساء لهم حكم المناليك في أواخره ، ثم ازداد استيائهم في أيام العثمانيين سوءاً بالنا ، فلنشرح هذا في إيجاز .

فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، اضمحلت ثروة البلاد باكتشاف رأس الرجاء الحسن وتحول التجارة عن مصر ، وخويت خزانة بيت المسلمين في عهد الغوري حتى رشق جامع الضرائب بالحجارة في شوارع القاهرة^(١) وبلغ من شدة العوز أن اختار الأمراء بعد مماته طومان باي ، ليخلفه فامتنع عن قبول

(١) دولة المماليك في مصر ص ١٦٧

ذلك وألح في الامتناع حتى استعان الأمراء عليه بأحد كبار الأولياء - هو أبو السعود الجارخي - فجمعهم به وجعلهم يقسمون على المصحف أمامه بأن يطيعوه وبهذا تولى «طومان باي» السلطنة على مصر^(١) ولكنهم خشوا بأيامهم وتخاذلوا عن نصرته في رد العدو الزاحف حين أعلن إفلاس الخزانة وعجزها عن مدهم بالمال الذي يتطلبه القتال^(٢) وكان الشعب يشعر بصدى هذا الإفلاس في معيشتة .

وأما من حيث الحرص على تقاليد البلاد الدينية فقد عجز الحكم المملوكي عن القيام بهذه المهمة في أواخر أيامه ، فقد كان الناس يجاهرون بارتكاب المعصية ، فاذا حرم عليهم ذلك وحثم على اليهود والنصارى ألا يبيعوا الخمر والبوزة والحشيش ، لم يمثل لأمره أحد منهم ، ولم ينته الناس عما هم فيه - بالغا ما بلغت القسوة في التهديد بالعقاب^(٣)

كان طبيعيا بعد أن يشعر الناس بعجز الحكم المملوكي عن توفير أسباب الرخاء وصيانة التقاليد الدينية أن يبغضوه ويرغبوا عنه ويميلوا إلى حكم جديد ، فاغتبطوا بالحكم الجديد ولا سيما وقد اشتهر أهله بالجهاد الديني ، وذاع عنهم العمل على نشر الاسلام وبسط نفوذه ، ولكن اغتباطهم لم يدم طويلا ، لأن الحكم الجديد قد أثبت منذ وطئت قدمه أرض مصر أنه أعجز من الحكم القديم عن ارضاء الناس بتوفير اليسر لهم ، وحماية عقائدهم من عبث العابثين . فن ناحية الحياة الاقتصادية ، ازدادت أحوال الناس ضيقا لأن الحكومة الجديدة كان عليها - كما عرفنا في الكلمة التمهيدية للرسالة - أن ترسل للسلطان خراجا يبلغ الستمائة ألف ريال وهدايا بنحو ستمائة ألف أخرى عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود في مصر وما يتقاضاه الوالي الذي كان يشتري الولاية على مصر بمبلغ يتراوح بين الأربعمائة ألف والخمسمائة ألف

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٦٩

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ٨١ - وقد أراد أن يترضام بالقليل فرموه في وجهه ص ٨٤

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ٨٥

ريال . ولما كان الأتراك يعتبرون مصر مزرعة تدر عليهم المال والخير الوفير فقد كانوا يقصدونها بين الحين والحين لتحقيق لهم مطالبهم ، وقد تباروا في نهبا منذ اليوم الذي وطئوا أرضها ، وقد عرفنا هذا في الفصل التاريخي الذي مهدنا به لهذا الكتاب .

وأما من حيث الحرص على التقاليد الدينية فإن الحكم الجديد قد عجز كذلك عن أداء هذه المهمة ، فكان ينادى بإبطال بيوت الحشيش والخمر والتنيز والبوزة ويحرم الزنا ويقتل كبيرات البغايا من أمثال « أنس » ثم يطالب العثمانيون بإعادة ذلك ويتعصبون مصريين على إجابة مطالبهم فلا يلبث ملك الأمراء حتى يستجيب لهم ويقر بأن « أولاد « أنس » لا يعارضون فيما يفعلون من جمع « بنات الخطا » كما كانت تفعل أمهم ^(١) وقد عرف الناس هذه الاستهانة منذ استولى « سليم » على البلد ، فقد شاع بينهم أنه حين طلع القلعة رأى خيمة المولد فباعها للبغارية بأربعمائة دينار ، وباعها هؤلاء قطعاً للناس ، مع أن قايتباي قد أفق في صنعها عشرين ومائة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك حتى كانت من عجائب الدنيا ^(٢) وقد كان العثمانيون في الجملة يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس ، وغالبهم لا يصوم رمضان ولا يقيم في المسجد صلاة - حتى صلاة الجمعة إلا قليلاً وكذلك كان أمراؤهم ووزراؤهم كما يقول ابن إياس ^(٣) . وبلغ من عدوانهم على الناس وحرمتهم أن كانوا يخطفون النساء ويفسقون بهن على قارعات الطريق والناس تنظر إليهم وتكظم الغيظ منهم ، وغير ذلك من ضروب الشذوذ الذي كان نادر الحدوث قبل العصر العثماني .

على أن المقارنة التي أسلفناها خير وافية لأنها تشمل فقرتين قصيرتين ، وقد أوردناها لتوضح حالة الجمهور النفسية في أواخر العصر المملوكي وأوائل

(١) ابن إياس ص ١٩٧ ، ١٩٨

(٢) ابن إياس ص ١١٢ ، ١١٣

(٣) ابن إياس ص ١٣٤

العثماني ، ولنعرف موقفه من الحكم الجديد على وجه الدقة ، وينبغي أن نقول في معرض المقارنة بين العصرين أن المماليك كانوا يرتقون العرش بحمد السيف ، وأنهم كانوا بحكم مهارتهم في فن الفروسية أقدر على حفظ الأمن والفصل في قضايا الناس من الولاة العثمانيين الذين كانوا يشترون الولاية بالمال ، وكان الفائز بها منهم أقدر جميع الطامعين فيها على ابتياعها ، وأن المماليك كانوا لا يعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر حتى كان الكثيرون منهم يفاخر بأنه مصري ، وسماه بعض المؤرخين بالأمراء المصريين ، ولهذا أثره في عطف الحاكم على شعبه ، وكان عصرهم في الجملة أقل ضنكا وفاقة من عصر العثمانيين فان رأس الرجاء ، لم يكن قد كشف بعد ، وكانت التجارة تدر عليهم أموالا طائلة ، ولم تكن هناك دولة أجنبية تطالبهم بالخراج أو الضرائب ، فكان حكم المماليك في الجملة آثر عند المصريين من حكم العثمانيين الذين طغت فرقتهم العسكرية على الحقوق وامتهنت الحريات واستهانت بالحرمان ، وهي المنوطة بحفظ الأمن وصيانة الحقوق ، فكان الفتح الجديد نكبة لا حيلة للمصري حيا لها ، فشعر بأن الأرض قد خلت من سنده ينصره فراح يلتمس العون في رحاب الأخرى وأحس بأنه غير آمن على نفسه وماله وولده ، وأنه لا يملك في الدنيا شيئا نفيسا ولا تافها ، فزهد في الدنيا ومال إلى جنات الآخرة التي يحميها حرس الله ويشرف عليها بعدله ولا تغفل عنها عينه ، وتمكث للإنسان فيها طمأنينته ، أما ملوك هذه الأرض وطلقاتها فسيعرفون يوم الدين كيف تذلل الرقاب العاتية ، وتعلو رؤوس الضعفاء وتشمخ أنوف الفقراء ويتملك من كان بالأمس ذليلا . . .

ومن طبيعة الفقر أن يحمل أهله على الإيمان بالله والاعتقاد في رحمته ، وتاريخ الأديان يقول إن الذين استجابوا للرسالات الأنبياء وخفوا لنصرتهم سرعاً هم الفقراء والمعوزون والمحتاجون ، وقد كان تسعة أعشار الإمبراطورية الرومانية يرزح تحت نير الفاقة فاستجاب للمسيحية حين دعاها الداعي إلى اعتناقها دون تمهل ولا إبطاء . . .

ضاق الجمهور المصري بحاله فلاذ بالدين وزهد في الدنيا ومتاعها ، واشتد ميله إلى المسرفين في الروحية وعظم حبه للزهدة والقانعين بالتافه من شئون العيش . فكان المتصوفة في عرفه أقرب إلى الله من الفقهاء - أصحاب الوظائف وأرباب الزلفى عند الحكام - وبهذا ازداد التفافه حول الدراويش وعظم إيمانه بكل من ادعى الولاية وأسرف في التظاهر بالتصوف .

على أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الحكم العثماني في مصر قد صلح حاله بعد بداية الفتح ، ولكن ذلك - على فرض صحته - لا يغير من رأينا كثيراً ولا قليلاً ، فإن الاضطراب الذى صاحب الفتح في بدايته ، قد ساعد على اطراد نمو الدروشة واستمرار انتشارها ، فكان غير طيبى أن يرتد هذا التيار الجارف بعد حين ، وإذا كان علماء المنطق يقولون إن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، فإن علماء الاجتماع ليعرفون بطلان هذا الحكم عندما يطبقونه على الكثير من الظواهر الاجتماعية ، فكثيراً ما تصادفهم ظاهرة من الظواهر ، ويعرفون العلل التي أوجدتها ووجهتها في تيارها ، ثم يرون أن العلل التي كانت السبب في وجودها قد تلاشت واختفت ، ولكن الظاهرة التي نجمت عنها ما لبثت سائرة في مجراها ماضية في تيارها لا ترتد عن طريقها حتى يدركها الضعف فيوهن من سيرها وينتهي بها الوهن إلى الزوال ، فهي تسير مدفوعة بالقصور الذاتي . . . وقد يستغرق هذا الانحلال من الزمن أجيالاً طويلاً تمر بعد زوال العلل التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة . . .

هب الأتراك للتصوف :

كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم ، ولئن كان الولاية قد قربوا العلماء واعتمدوا عليهم بعض الاعتماد فيما يتصل بالشعب من شئون الحكم ، فذلك لأنهم أوفر علماء من أرباب الطريق .

فأما موقف الحكام العثمانيين وجنودهم من المتصوفة فقد أعلنه الجبرتي عندما عرض للكلام على عمارة التنكية المجاورة للقصر العيني المعروفة بتكية البكتاشية ، إذ قال إن الذي قام بتجديدها بعد خرابها رجل من الدراويش قابل حسنى باشا وهو في هيئة الدراويش وطلب إليه العون فاستجاب لمطلبه وساعده على تعمیرها من رشوات مناصب المكوس التي توسط لأربابها هذا الباشا ، وقال الجبرتي إن الذي حمله على هذه المساعدة أن الأتراك «يميلون لذلك النوع - أى الدراويش - فصار صاحب الخانقاه من أخصائه لأنه من أهل عقيدته» (١) .

والمعروف أن الجنود على شجاعتهم في ميدان الوغى يستعبدهم سلطان الأولياء الروحي ، فيؤمنون بالأساطير والخرافات ، لأن القتال شدة تحمل صاحبها على الاعتقاد في الله والإيمان بما وراء المادة ، وقد كان الجند في مصر على هذه الحال . روى المناوي في ترجمة ابراهيم الكاشني العجمي الذي دخل مصر في دولة بنى عثمان ، ومات سنة أربعين وتسعمائة . أن الجند تهاقتوا عليه وعظم اعتقادهم فيه حتى صاروا يقتتلون على شرب الماء الذي بقي من غسيله في الحمام . وقد خافت الدولة من سلطانه وخشيته من تفكيره في الاستيلاء على مصر وأخذها من يد السلطان فقررت نفيه إلى بلاد الروم مدة من الزمان . فلما عاد إلى مصر طرد أغلب الجنود عنه امتثالاً لأمر السلطان (٢) . وقد بلغ من تهاقت الجنود على الطريق أن كان بعضهم يأخذ الحال فيجذب ويصبح فإذا هو ولي من أولياء الله « وفرح ، المجدوب أصدق مثال لطولاه» (٣) وقد روى المحبي في ترجمة محمد المرزناقي - ١٠١٤ أنه اشتهر بالتموينات فراج حاله عند الأروام « بسبب اعتقاد المتقدمين منهم ونال بسبب ذلك وظائف ومعاليم كثيرة» (٤) .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٤ (٢) الكواكب الدرية للمناوي ص ٤٧٢ ب
(٣) الكواكب الدرية للمناوي ص ٥٠٩ ب (٤) خلاصة الأثر للمحبي ج ٤ ص ١٥٨

وقد روى المحبى والنابلسى فى ترجمة شاهين الدر داش + ٩٥٤ أن نواب مصر وأمرامها كانوا شديدى الاعتقاد فى ولايته (١) وأنهم كانوا يلتمسون تقبيل يده فلا يلتفت اليهم ولا يعبأ بهم (٢).

وقد روينا الكثير من أمثال هذه الحوادث من قبل، وكلها تشهد بمدى اعتقاد الحكام العثمانيين فى أرباب الطريق، وليس ينفى هذا أن حكام مصر قبل العصر العثمانى كانوا - فى الأغلب - أتراكا، فالفارق كبير بين تركى يعين فى الأستانة حاكما لمصر ويفد عليها تركى العقل والروح واللسان، وتركى يفد على مصر مملوكا صغيرا فيتأقلم فى أرضها ويعيش فى جوبها ويتعلم لغتها ويصبح تركيا فى أصله مصرىاً فى روحه وعقله ولسانه.

وليس من شك فى أن وجود العثمانيين حكاما لمصر قد شجع الكثيرين من دراويش الأتراك على الهجرة إليها والإقامة فى أرضها، ولسنا نعرف على وجه الدقة متى تكونت فى مصر الفرق التى تنحدر من أصل تركى، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحكم العثمانى فى مصر لم يكن معدوم الأثر فى التصوف وطرقه ..

أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انتشار التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، وهى تغنيا عن السبب الذى التمسهُ الأستاذ د. لين، وأشرنا إليه فى مستهل الحديث عن هذا الموضوع، لأن الطبيعة البشرية واحدة فى أصلها، وإن كان من المسلم به أنها تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهى فى كل حالاتها تتأثر بالبيئة التى تعيش فيها، وتتغير بتغير هذه البيئة - اجتماعية وجغرافية معا .. فن الخطأ أن يقال بعد هذا إن الشعوب تختلف فى طبقاتها وتتفاوت فى الفطرى من ميولها ونزعاتها ..

حسبنا هذا من أسباب انتشار التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى، ولنعرض بعد هذا إلى الإبانة عن الحملات التى كابدها شيوخ الطريق لمعرفة أثرها فى دولتهم التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل :

(١) الحقيقة والمجاز للنابلسى ص ١٠٠ ب (٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٥٤

الفصل الثاني

١ - الإنكار على أرباب الطريق

حالات الناس : موقف المنكرين من الجنود والحكام
— النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق — الحق في
صدور العلماء — بعض مظاهر العملية — التناسب
الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق —
بعض مظاهر الحقد النظرية — تصوف الفقهاء الذين
انصروا لمشايخ الطرق — بعض مظاهر حب الفقهاء
لأهل التصوف — موقف المتصوفة من الفقهاء —
استمرار النزاع إلى اليوم — حالات أرباب الطريق
على إخوانهم في الطريق — بعض مظاهر المقاومة
العملية ضدهم — بعض مظاهر المقاومة النظرية .

أبنا فيما أسلفنا كيف كان الفقراء دولة داخل الدولة ، يميزهم عن سائر
الناس عرف وقانون ودين .. و عرفنا شيئا عن واسع النفوذ الذي تهبأ لهم
عند شتى الطبقات ، وكفل لهم السيادة على جميع الهيئات ، وأذل أمامهم
جبايرة وطغاة كانوا لا يعرفون في الحياة الدنيا مذلة ولا هوانا ، وهياً لهم
استعباد الأتباع استعبادا يقره الدين لخير الله على عباده .. ولكن هذا
أسلطان الواسع النطاق المبسوط الرحاب كان كثيرا ما يصادف المنكرين له
الساخرين بأهله ، وقد كان ذلك طبيعيا في شعب يكثُر دجالوه وتفشوشعوذتهم ،
ويظهر فيه الأدعياء سافرين من غير حجاب ، لا يقنعون بالاعتداء على
الحريات ، والعدوان على الحرمات ، بل يستمرثون العيش على حساب الأغنياء
والفقراء معا ، ولا يتورعون عن الظهور بمظهر الحياة المترفة أمام الناس كما
أبنا فيما سلف . وإن كان علينا أن نسارع بعد هذا إلى التصريح بأن

المنكرين وإن كانوا كثيرين - فيما نظن - فإن سلطانهم كان ضعيفا وجرأتهم على مقاومة هذا الضلال كانت كسيحة تعوزها القدرة على النهوض والحركة . ولعل هذا كان ما أغرى الدجالين بالظهور أمام الناس سافرين لا يستردهم حجاب ، ولا يوارى استهتارهم بالدين والعرف نقاب ...

ومن الدلائل الشاهدة بظهور المنكرين في هذا العصر ، أن أبواب الطريق فيه قد أكثروا من الدعوة إلى احترام التصوف والتحذير من الإنكار على أهله ، وقد حفلت كتبهم بالإلحاح في الدعوة إلى التصديق بالكرامات والتسليم بمزاعم الأولياء ، والإسراف في تصوير المصير السيئ الذي ينتظر المنكرين ومن سار سيرتهم .. وهذا كله عميق الدلالة على أن دولة الفقراء كانت مهددة بضروب من المعاول تحاول هدمها وتسعى إلى تحطيمها - وإن كانت المعاول ضعيفة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق الوعر كما أشرنا الآن .

وكان الذين يحملون معاول الهدم في أيديهم فئات من : (١) الناس (٢) والجنود والحكام (٣) والفقهاء وحملة الشريعة (٤) بل أهل الطريق كذلك . فلنتناول مظاهر هذا النهجم على دولة الفقراء مظهرا بعد مظهر .

محملات الناس :

حسبنا عن حملات الناس ما تشهد به النصوص التي وردت متناثرة في آثار أهل العصر ، فمن ذلك قول الشعرائي عن أدعياء الطريق من الدجالين : وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى - فلان الآخر عمل شيئا .. أكانهم لا يسمون له بما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهوتها والتلذذ بمطامعها وملبسها ومناكحها والسعى على تحصيلها حتى أتى قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلاني . ؟ فقال : إن كان الشيخ شيئا فأنا الآخر شيخ ، فانه يجب الدنيا كما أحبها ويسعى في تحصيلها كما أسعى ، بل هو أشد مني سعيًا على الدنيا لأنه يسافر الى الروم (بلاد الترك) في طلبها وأنا لم أسافر وربما أكل الدنيا بصلاحه وأنا لم آكلها بصلاحي فأنا أحسن منه حالا ،

فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبني ،^(١) ويقول في كتاب آخر ، وقع لبعض المغفلين أنه جهز بنته فاحتاج الى طرحة ولحاف وليس معه مال فأتى التاجر بكيس فيه شعر من رأس شيخه رهنا على الثمن ، فسخر به التاجر وقال له : لو أتيتني بأردب من شعر شيخك ما أخذته بمجديد . فكث أهل السوق يضحكون على ذلك ويستخرون به مدة طويلة ،^(٢) .

وفي كتب المناوي والمحبي والشعراني والجبرتي كثير من الحوادث التي تشهد بوجوب هذا الانكار عند كثير من الناس ، فمن ذلك ما يرويه المناوي والشعراني عن ابراهيم عصفير + ٩٤٢ من أنه كان ينام مع النصراني فلما سئل في ذلك قال : نمت مرة بجامع الأزهر فسرقوا عمامتي ونعلي ولي عشر سنين أنام عند الرهبان ما سرقوا لي شيئا . مع أنه كان كثير العطب لمن يؤذيه كما يقول مترجمو حياته^(٣) . . .

وروى المحبي ، عن ابراهيم النبتيني ، - من أهل القرن الحادى عشر الهجرى - أنه أقام بجامع اسكندر باشا نحو عشرين عاما كان الناس طوالها يستخفون به ويتناولونه بالسب والتهمز . حتى كان بعضهم يطرده من المسجد مخافة أن يلوثه بقذارته^(٤) .

وقد صور الجبرتي موقف الناس من مدعى الولاية عند ترجمة على البكرى + ١٢٠٧ والمرأة التي لازمته فقال : وإذا جلس الشيخ في مكان وقف الجميع وازدحم الناس للفرجة عليه وتصعد المرأة على دكان أو علوة وتكلم بفاحش القول ساعة بالعربي وساعة بالتركي والناس تنصت لها ويقبلون يدها ويتبركون بها وبعضهم يضحك ومنهم من يقول (ساخرا) : الله الله . وبعضهم يقول

(١) قواعد الصوفية ص ٢ (٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٦
(٣) الكواكب الدرية ٤٧٢ ، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٢ ، تكميل النور
الساخر ص ٤١٣ ، المخطوط التوفيقية ج ٦ ص ١٧
(٤) المحبي : خلاصة الأثر ج ١ ص ٦٢

دستور يا أسياىى وبعضهم يقول لا تعترض بشىء (١) .
هذا بعض ما كان يقع من الناس بصدد الإنكار على هؤلاء الأدياء
موقف المنكرين من الجنود والحطام :

أشرنا من قبل الى اعتقاد الجنود فى ما وراء الواقع وإيمانهم بالله تعالى
وأوليائه ، بيد أن المنكرين للولاية قد ظهروا بينهم وكانوا قساة الأكباده مع
من لا تعجبهم ولايته . وكثيرا ما أدى إنكارهم له الى ضربه أو قتله دون
اكثرات ولا اهتمام .

روى الجبرتي عن على البكرى السالف الذكر أنه مر بموكبه بمنزل جندى
إسمه جعفر كاشف فقبض على الشيخ وأدخله الى داره ومعه المرأة وباقي المجاذيب
وأطعمه وطرده الناس عنه ثم أطلق سراحه أما المرأة والمجازيب الآخرون
فقد أئتمهم طعنا وأمطرهم ضربا حتى طير الولاية من رء وسهم وردهم الى الرشد
فاستغاثوا معلنين التوبة فأطلقهم الى حال سيلهم إلا المرأة فانه أرسلها الى
المارستان مع المجانين (٢) .

وروى عن العليمى + ١١١٠ هـ أحد الأدياء أن الناس كانوا يحسنون
الاعتقاد فى ولايته ويجمع عنده النساء والرجال وتنشأ عن اختلاطهم مفسد
عظيمة ، فاستاء الجنود لذلك وانطلقوا اليه وانهاوا عليه بسيوفهم حتى أجهزوا
عليه ، وقد قال فيه حسن الحجازى شاعر العصر نظما جاء فيه :

ونساء مع رجال جالسات بالبديه
سلط الله عليه بعد هذا حاكيه
قتلوه مع ثلاث بحسام صالتيه
طول ليل ونهار أجل فسق تبغيه
لثلاث بعد عشر من جماد الثانى فيه
وكفى الله البرايا شره مع تابعيه (٣)

وإنا لننس الاستهتار بدعوى الزلفى الى الله فى عبد الرحمن كتحدا ، الذى

ذبح عذرة كان يدعى كبير خدام المشهد النفيسى أن السيدة أوصت بها خيرا حتى كانت تأتي الكرامات أحيانا بما أدى بالنساء الى أن يعتقدن فيها ويرسلن اليها القلائد الذهبية والأطواق والحلى والفسق واللوز وماء الورد والسكر المكرر وغير ذلك . . فدعى الأمير صاحب العذرة اليه وأدخلها الى زوجته بقصد التيمن بها ثم أمر بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها دون أن يعرف - ثم أعلمه بعد الطعام بنبئها وأمره بالانصراف بعد تويخه على أن يضع جلد العذرة على عمامته ويزفه طوال الطريق أصحاب الطبول والأشبار على نحو ما يقول الجبرتي في حوادث سنة ١١٧٢^(١) .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة، وكلها تنبئ عن قيام الانكار في نفوس بعض الجنود والحكام .

النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

الحقد في صدور الفقهاء :

تولى الصدارة بين الناس في هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق ، ورغم ما كان بين الطائفتين من خلاف في وجوه النظر فقد كان الدين سيئلبما إلى ارتقاء الزعامة ، ولهذا كان طبيعيا أن يثور في صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حينما ولحيازة السلطة أحيانا . . وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة في العصر العثماني مظهرين عنيفين : مظهر المقاومة الفعلية التي اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم في لهجة تتراوح بين العنف واللين . فلنتناول المظهرين في إيجاز مبتدئين بالحقد الذي ربض في صدور الفقهاء .

بعض مظاهر المقاومة العملية :

كان العلماء في الكثير من هجماتهم قساة غلاظ الأكباد يتخطون أوامر

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٦٤

الدين ونواهيته بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصومهم بالتنكيل بهم أو تدمير المؤامرات التي تودى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم - وكان اتصاف الرجل بالتصوف - ولو قام تصوفه عن فقهه بالدين - كفيلا في أكثر الاحياء يبعض العلماء له وقسوتهم في معاملته وسعيهم للتنكيل به، وتاريخ التصوف في هذا العصر حافل بالمآسي التي تشهد بالتعصب الديني وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس، ومن أنقطع هذه المآسي اغتيال « عبد الرؤوف المناوي + ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى الى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به :

روى « المحبى » ، أن « المناوى » اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه ، ولما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علماء الشافعية - وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة كما يقول الجبرتي (١) - وهالهم إعطاء هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف . فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب وتأهبوا لانتقاده ، ولكنه شرع فى أقراء مختصر المزنق ونصب الجدل فى المذاهب وأتى فى تقريره بما لم يسبقه إليه أحد . فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه ، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه ، وقد انتفع به جمهور كبير منهم ، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتي « أحمد الزاهد » و « مدين الأشموني » . فأثار هذا الضغينة فى نفوس حساده ودسوا له السم « وتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى ، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستمل منه التأليف ويسطرها ، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته (٢) .

اغتيال الفقهاء المناوى وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعرانى + ٩٧٣ فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى التنكيل به والتشهير باسمه (٣) ،

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩

(٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢

(٣) البواقيت ج ١ ص

وكان الشعراني عالماً من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الاطلاع واسع الحيلة ملماً بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه ، وقد شهد له بذلك كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه . فتكفل هذا الاتهام ببعض العلماء له وسعيهم لتشويه سمعته ، وقد حاولوا نفيه من البلاد بعد أن عز قتلته وإراحة الناس من شره ... وقد كان الشعراني في كافة كتبه يحتم على الفقهاء التفقه في الدين والتبحر في شئونه ، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته - كالبرقيات والجواهر - ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب يناوئه وينفس عليه نفوذه وشهرته ، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه ، وقد ظهر هذان الحزبان في فتنة أثارها عليه في الجامع الأزهر في مصر والحجاز خصومه وحساده .

ثم سكتت الفتنة وخبت نارها ولكن الضغينة ما زالت رابضة في صدور خصومه من الأزهريين تتمثل في وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا الخصم الذي يهدد الدين بالخطر .. وقد أقاموا على بغضه طيلة حياته وتولوه بالنظرات الشدراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو على البدعة وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه في نفيه من مصر وكثيراً ما أدى الحقد ببعض حساده إلى رميه بالجمل في الشريعة والحقيقة معا^(١).

التناسب الطردي بين عقرب الفقهاء وعلم أرباب الطريق :

وعلام هذه الضغينة كلها ؟ لقد كان الشعراني لا يكتب كتاباً إلا أعلن فيه التزامه للكتاب والسنة وبرأته من المارقين من الدين الذين يظنون أن الحقيقة شيء والشريعة شيء آخر ، وما أكثر الكتب التي حفلت صفحاتها

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا « الشعراني » في الفصل الأول من الباب الثاني .

بشرح مذهبه في هذا الصدد .. (١) لا بل لقد كان الفقهاء على حق في مناهضة هذا الرجل وأمثاله ممن يدعون الالتزام بظاهر الشرع ولا يلبثون حتى ينقضوا ما أسلفوه بنصوص أخرى تكشف عن نياتهم .
ولهذا كان الحقد الذي يحمله الفقهاء لأهل التصوف يتناسب في قوته وعنفه تناسباً طردياً مع علم المتصوفة عكسياً مع جهلهم - فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحثوا على الفقراء التبحر في الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجهل وأنصاف الأعمى من أهل التصوف .. وإذا قارنا موقف العلماء من المناوي والشعراني بموقفهم من محمد كريم الدين الخلوتي + ٩٨٦ ، وعلى البيهقي + ١١٨٣ هـ عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول .
كان الخلوتي يمثل دعاة الجهل من أهل التصوف خير تمثيل . وقد كان حريصاً على جهله وفراره من معرفة الدين وأحكامه واعتقاد مريديه الذين تضح بهم زاويته في سلامة مبدئه وسخريتهم من شيوخ الطريق المتبحرين في فهم الدين . ولكن كل ما نعرفه عن أذى الفقهاء له لا يتجاوز ما رواه المناوي في ترجمته حين قال إنه لم يسلم من مناوأة طائفة من الفقهاء سنة الله في الدين ، وأن فقيه الشافعية شمس الدين الخطيب الشيرازي قد أنكر عليه في حياته الابتداء بالجلالة في الذكر وقال إنه مبتدأ ولا بد لكل مبتدأ من خبر فوضع الخلوتي في الرد عليه رسالة صغيرة حاصلها أن القوم ما زالوا على هذا المنوال وأن الخبر محذوف تقديره المعبود والمطلوب أو الموجود (٢) وقال فيها إن الذكر على هذه الطريقة يؤدي إلى الفتح في باطن الذكر ويؤتاه من نور الكشف ما لا تنتج عنه (٣) .

(١) مثل الجواهر والدرر ص ١٧٧-١٧٣ ، قواعد الصوفية ص ١٧٧ و ٢٣٤ ، درر الخواص ص ٥٦ ، البحر المورود ص ٣٤٧ ، ارشاد الطالبين ص ٦٧ ، لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢ ، البواقيت والجواهر ج ١ ص ٢ و ٣ و ٢٣ ، ج ٢ ص ١١٥ ، وفي غير هذه الكتب .

(٢) السكواكب الدرية ص : ٥٢ (٣) رد المتوقف بلا محالة .

ويمثل على البيومي أنصاف الأميين ، رغم أن الجبرتي يروى في الدلالة على علمه موقفا شبيها كل الشبه بالموقف الذي يرويه المحبي ، للدلالة على سعة العلم عند المناوى فان الفقهاء قد ثاروا عليه وعلى جماعته ، كما سنوضح ذلك الآن ، فلما قام بالتدريس في الطيرسية أقحمهم ودهشهم ولجم الثائرين منهم - كما فعل المناوى تماما - ولكن الفارق بينهما فيما يبدو أن كتب المناوى تنبئ عن سعة علم وغزارة مادة ، وكتب البيومي تنطق بالجهل وضيق النظر ، ولعل قدرته على إقناع العلماء في دروسه مردها إلى طلاقة في اللسان ومهارة في التعبير ووضوح في الشخصية - والظاهر أنه قد أوقى هذه المواهب كلها وإنما هي التي جعلت المجرمين والعصاة وقطاع الطرق يتهاقون عليه ويترامون على قدميه ويطلبون المغفرة على يديه ويحتملون ما يسومهم به من عذاب كما أشرنا من قبل .

وكان من عادة هذا الرجل ، أن يعقد مجلسا للذكر كل ثلاثاء في صحن المشهد الحسيني . وكان أكثر أتباعه يدخلون المسجد حفاة الأقدام فيلوثونه ، وكانوا يرفعون بالذكر أصواتهم فيزعجون المصلين وغيرهم . ولكننا لانعرف من ضروب العدوان الذي أوقعه به العلماء إلا ما رواه الجبرتي من أمر المقاومة التي أرادوا بها منع جماعته من تلويث المسجد والتشويش على المصلين (١) .

فالأذى الذي أصاب دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف ، قد اتخذ صورة المقاومة ولم يرتفع قط إلى مرتبة العدوان الذي ينتهى بالقتل والنفي والتكيل كما كان الحال مع العلماء من أهل التصوف .

وليس ينفي هذا الظن الذي رجحناه ماسييه العلماء لجهلة الفقراء من أذى على يد نابليون ، فقد روى الجبرتي أن نابليون بعد دخوله مصر سأل العلماء في شعبان من سنة ١٢١٥ عن الفقراء الذين يدورون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصرخون ويدعون الولاية ويعتقدون العوام ولا يصلون صلاة

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٠

المسلمين ولا يصومون صيامهم واستفسر عن جواز مسلكهم في الدين الاسلامي
أو حرمة . فأجاب الفقهاء قائلين إن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا
وسنتنا ، فشكرهم نابليون على ذلك وأمر رجال الإدارة بمنع هؤلاء الفقهاء
والقبض على من يلتزم مسلكهم فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان وإن كان كامل
الرشد نفي من البلد إن أبي تغيير مسلكه^(١).

والظن الذي رجحناه لا تنفيه هذه الفتوى التي رد بها الفقهاء على سؤال
نابليون ، لأننا لم ننف المقاومة من جانب العلماء إذا توفر الجهل في أرباب
الطريق ، وإنما قلنا إن العدوان كان يتناسب في عنفه طردياً مع علم المتصوفة
عكسياً مع جهلهم .

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر في صورة الكتب والرسائل
يضعها الفقهاء في مهاجمة الجهلة من الفقهاء . ولم يعن العلماء — فيما نعلم —
بوضع كتب وتأليف رسائل يردون بها على التعاليم التي كان ينشرها المستنيريون
من أهل التصوف . وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التي تفقد السمة الطيبة
وتفرض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراحة البلاد من شرهم ..

ولعل السر في هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكرهية العلماء
أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطراً على نفوذهم
عند الناس والحكام من جهلة أرباب الطريق ، لأنهم يتساوون مع العلماء أمام
الجمهور في سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى
نفوس الناس ، وفي هذا الامتياز ما يهد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء
في اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام ..

أو لعل السر في هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف
أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسنوضح هذا بعد .

بعضه مظاهر الحق النظرية :

قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن هذا العصر كان عصر الشروح والحواشي وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذي وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتي بعدهم من يتولى شروحه بالشرح والتعليق ، فبدأ ركود في الحركة الفكرية وقلة في المؤلفات مع كثرة الحواشي والشروح ، وكان طبيعيا بعد هذا أن تقل الكتب التي يضعها الفقهاء في الرد على ما يروونه في سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه ، وأن تكون هذه الكتب - في الأغلب والأعم - رسائل صغيرة حافلة بضرور السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال في الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف ، وقل منها ما دل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستعره صاحبه من الأعيان .

والظاهر أن واضعي هذه الرسائل كانوا أصنافا ثلاثة : أولها الفقهاء الخالص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحقد وتفيض بالضغينة وتنهال على الخصوم بالسباب والتهم ، ويمثل هؤلاء الشيخ علي الصعدي العدوي وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أسماءهم كما سنعرف بعد قليل .

وثاني الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف - فيما يلوح لنا - وقد كانوا في الأغلب والأعم أميل إلى نصره المتصوفة ورد التهم التي كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف .

وثالث الأصناف المتصوفة الذين كانوا متفقيين في الدين . وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التي كانت تنهال على رموسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكري ، + ٩٤٤ - وتولى الفريق الثاني الفقراء بالظعن واشتد في حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة - كما سنعرف بعد - ويمثل هؤلاء الشعراي + ٩٧٣ . ولا بأس من أن نزيد هذا الكلام وضوحا .

(١) كتب الشيخ الصعیدی سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدد طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التي عرفنا عن فقرائها أنهم يتخذون المغنين والأعلام والطبول والنقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رؤسهم أو يمسون بها ظهورهم . . وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة (١).

فاستهل الشيخ الصعیدی فتواه باقتباس فقرة من رد المشايخ يوسف الزرقاني (المالكي) وعامر الشبراوي (الشافعي) وأمين الدين (الحنفي) على مثل هذا السؤال إذ قالوا : رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب في ذلك ويتبوا مقعده من النار ويعزر على إفتائه بغير علم . ويمنعون من الاختلاء بالمرء ومن مسهم ، ويثاب ولي الأمر على زجرهم ، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك في بحريم الغناء ، والجتيد في كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بالأجناح عليهم في غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه ، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يتخذون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار في أخذ العوائد ، من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم في بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين ، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس . . إلى أن قال لهم في لهجة المخيظ المحنق : « وأتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التي لا يقول بها إمام من الأئمة . . » ثم حل عليهم في اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والنبي يقول : « ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذل وصغار ثم أشعل عليه نارا ، وأدخل في ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف

من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقي من السعف والطرايح التي يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملائى بالماء والسبح الكبيرة... ووصف دوران الغلمان على الذاكرين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان وأورد من الفضائح ما ينبئ عن بغضه الدفين لهم ورغبته الملحة في التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى في فتواه (١).

ومن الرسائل التي هاجم بها العلماء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولا هوادة - دون أن يعلنوا للقارىء أسماءهم - رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ في الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخلطوهما بالعبادة، وراحوا في حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدامهم بالتصعيد والتسفييل والتلوى، على هيئة معروفة في لعبة (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف. والرسالة فياضة بالحقد والضغينة والموجدة. ولعل الذي حمل هذا الصنف من العلماء على إخفاء اسمه، الخوف من أذى أرباب الطريق وأتباعهم (٢).

وهذان مثالان للمقاومة النظرية عند العلماء الخالص، نرى منهما بعض مظاهر البغض الرابض في الصدور والحقد الجاثم في القلوب.

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبون عن المتصوفة بروح مشبعة بالمعطف واللين، أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوح الشهير بابن النجار (الحنبلي) وناصر الدين اللقاني (المالكي) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفي) وشهاب الدين الرملي (الشافعي) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعراني في محنته التي عرضنا لها من

(١) فتوى الشيخ علي الصعدي في فقراء المطاوعة وأحوالهم (مخطوط).

(٢) وقعت في يدى نسخة أخرى لهذه الرسالة - بعد كتابة هذا - ذكر فيها اسم المؤلف وهو محمد صفى الدين الحنفى وقد وجدت بين النسخين خلافا في بعض الفقرات.

قبل . ونرى شيئا من الدفاع الحماسي الذي قاموا به مع غيرهم من العلماء في إجازاتهم المنشورة في « البحر المورود » ولطائف المنن^(١) .

ونرى صورة أخرى لهذا الدفاع الذي تولاه هذا الصنف من العلماء في استفتاء وجهه مصطفى الرومي بقناطر السباع في أواخر القرن الحادي عشر الى اثني عشر عالما عن (١) ذكر الله بطريقة الدمرداشية والخلوتية والشتاوية ومصطفى الرومي بقناطر السباع (٢) الهوية عندهم وهي دورانهم في حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض وراحوا يقولون . هو هو هو ... فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير أحمد المرحومي الشافعي ومحمد الأحمدى الشافعي ومحمد المهلهل المالكي وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربري الشافعي وأبو الصفا الشنواني وعلي بن عامر الانبائي المالكي - وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن أحمد العجمي الشافعي الوفاقي والشهاب الرملي وعبد الحى الشرفلابي وسليمان السراخيمي المالكي ومحمد الخليل الشافعي . ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأييدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومي هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسي وأطلعه عليها ونشرها هذا في رحلته^(٢) .

وثمة رسائل كثيرة من هذا النوع .

(٣) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المتبحرين في الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم ، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكري (+ ٥٩٩٤ هـ)^(٣) الذي كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثر من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض واقتصدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضجوا كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض حتى يسارع اليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم

(١) البحر المورود ص ٣٦٨ الى ص ٣٧٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٤٢ - ٤٥

(٢) الحقيقة والمجاز ١٣٣ الى ١٣٧ ب

(٣) بيت الصديق ص ٧٣ .

وبقيهم على بركة شيخهم . ويزود عن بعض فقراء هذه الطائفة بمن يخرجون من أجسادهم شيئاً ملوناً بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة - فتولى الدفاع عنهم والذود عن مسلكتهم والانتصار لطريقتهم بما نراه في رسالته - حتى السائل الذي يخرج من أجسادهم ملوناً دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال فيها كرامة طاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعه، وكأنه أحس بأن دعواه في التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلاً ، وإذا ظهرت على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذي ينتسب إليه ، ولكن لطهارة قلبه في ذلك الوقت ظهرت عليه .. ١١ ، (١) .

تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمناجح الطرق :

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسلك المتصوفة كانوا في الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف ، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة العنصر الأول على الثانى فى مسلكتهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذا الزعم .. ؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعرانى فى محنته وذادوا عنه فى فتنه الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقانى وشهاب الدين المالكى والفتوحى الحنبلى .. وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول (٢) .

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر لليومى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى ،

(١) النصره الالهية للطائفة السعدية وملحق الرسالة ص ٣٨٥ - ٣٨٨ .

(٢) انظر كتابنا « الشعرانى » إمام التصوف فى عصره ص ٨

فقد كان الشيرازى شديد الحب للمجازيب كما يقول الجبرتي (١) فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكا أن ينزل به من حيف .
وكذلك يقال فى كثير من العلماء الذين اتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقتهم .

بعضه مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف :

ولكن تصوير التصوف فى أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح ، فقد كان بعض المتصوفة فى رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير ، وكثيراً ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفتدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى — وقد أشار هذا فى رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر ، وكثيراً ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتميم به ويرحبون بزيارته لهم (٢) . وإنه ليصف موقفاً رائعاً يتطرق بهذا الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر ، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درساً تبركاً منه وتيمناً فاعتذر لهم عن ذلك ، وقال يصف مبارحته للأزهر « انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هيبة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع ١١٠٠هـ (٣) .

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة فى رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين ونزلاء مصر المقيمين بها . . ؟ أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيقون بسلطانه

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) الحقيقة والمجاز + ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ — وفى مواضع أخرى من هذه الرحلة .

(٣) الحقيقة والمجاز ١١٣ .

لأن بقاءه في مصر محدود الأجل . . ؟ ألا تكون هذه الخصومة التي ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند الناصر والحكام معاً ؟ الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسنون الظن بأرباب الطريق - روى الجبرتي (في حوادث سنة ١١٩١هـ) عن مفتي الشافعية الشيخ الكفراوي أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات ، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء (وخصوصاً أمام أبي الذهب) حتى راج حاله وطار صيته ، واختلى أبو الذهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سواتها كتابة . ١١ واعترفت له بعد أن هددها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذي كتبها ليدنياها من قلب سيدها ، فأمر الأمير بقتله وإلقائه في النهر فلقوه في النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالاً من القطيفة على هيئة الذكر . . ١١ (١) . وذكر المحبي ، عن «فايت المصري» (من أهل القرن الحادي عشر) أنه كان يقيم بياب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون في ولايته ، وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه ، فإن أشار إليه الشيخ فايد بالجلوس جلس وإلا لبث واقفاً حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه . . ١١ (٢) .

وقد لاحظ الأستاذ «فولرز» أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشعرا لم يكن له مكان في الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه مثلاً لرجال التصوف في عصره (٣) ورغم أن الكثيرين من الأزهريين - علماء وطلبة - كانوا يبغضون الشعرا ولا يحبونه على نحو ما أشرنا ، إلا أن السبب في بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته في الاستقلال بمريديه الذين بلغوا في زاويته المائتين على ما عرفناه ، فإن الكثيرين من المتصوفة

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٨ .

(٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٣) مادة الأزهر في دائرة المعارف الاسلامية .

كانوا يقيمون في المساجد أو يتخذونها مقراً لتلاوة الأوراد وكر الله - وقد كان محمد المنير + ٩٣١ يعتكف كل سنة في رمضان بالجامع الأزهر ويجتمع عنده الفقراء يقرءون كل يوم ختمة بالنهار وأخرى بالليل (١) . وقد تعبد الشعراني في بدء حياته بالجامع الغمري فلما كبر شأنه وكثر مريدوه انتقل إلى زاوية خوند (٢) .

موقف المتصوفة من الفقهاء :

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير الموقف الذي التزمه الفقهاء من أرباب الطريق ، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف المتصوفة من العلماء - والذي يلاحظه الباحث عند النظر في أدوار هذا النزاع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلمي بحث ، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا أرباب الطريق واشتدوا في حسابهم وأغلظوا في معاملتهم وتعقبوا آثارهم ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى في كل فرصة حانت لهم . ولعل السر في هذا : (١) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرهم من أهل الفقه ويؤيد مسلكهم في كل ما لا يلتزم مع ظاهر الكتاب والسنة ، فاستعانوا بالعلماء في أخذ الأجازات التي تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشعراني في كتابه البحر المورود في الموائيق والعمود ، وفي غيره من الكتب . وقد تغنى بذلك في غير موضع من مؤلفاته (٢) . (ب) أن أرباب الطريق في الجملة يدعون إلى السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريديهم باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملاً في نيل الثواب ورغبة في اكتساب الصفاء النفسى الذى يؤدي إلى حضرة الله . فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبي من هجمات العلماء .

(١) تكميل النور المسافر ص ٢١٤ .

(٢) أنظر كتابنا الشعراني في الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) البواقيت والجواهر ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٤ وخاتمة البواقيت وخاتمة البحر

المورود ولطائف المتن ج ١ ص ٤٢ - ٤٥ .

والظاهر أن هذا هو الذى حمل الأستاذ فولرز ، على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق^(١) ولكن إن صح هذا الرأى فى القدم فإنه غير صحيح فيما نظن فى العصر العثمانى . فقد كان الشعب فى صف الفقراء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء . وما عرفنا عالماً كان له من الأتباع الذين يستجيبون لمطالبه وينصاعون لأرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ آربه ، ما كان لكبار أرباب الطريق — ولا بأس من أن يزيد هذه الدعوة وضوحاً .

أسرفوا فى الدعوة إلى احتمال الأذى حتى طالبوا المظلوم بالرضا عن ظلمه وشكر الله على ما أصابه وعذر من أقدم على إهاتته ، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه غافل لا يذكر أن المعتدى عليه واحد من عباد الله ، وأنه وهو يعتدى عليه قائم فى حضرة ربه الذى نهاه عن ذلك . وقد كان احتمال الأذى ظاهرة تميز الأولياء^(٢) عن غيرهم من سائر الناس . وقد كان الشعرانى يتظاهر بأنه معتبط لإنكار العلماء عليه ، لأنهم لم يفعلوا ذلك إلا حرصاً على ظاهر الشريعة^(٤) . ونزعم أن من نعم الله عليه محبته لطلبة العلم الذين بادروا بالإنكار عليه وانضموا مع الحسدة فى تشويه سمعته بنشر مأسوه فى كتبه^(٥) .

وكان الشعرانى إذا تناول العلماء بنقد عدد مظاهر خروجهم على قواعد الدين وأنكر عليهم التهافت على الدنيا وغفلتهم عن تكاليف دينهم ، وقلما كان يعرض لهم بالسباب أو يتهمهم بالشتائم^(٦) ، بل لقد كان يدعو إلى

(١) مادة الأزهر (V. Vollers) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتابنا الشعرانى فى الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) لطائف المنن ج ٢ ص ١٨٢—١٨٦ .

(٤) بهجة النفوس ص ٩٤ (مخطوط) .

(٥) لطائف المنن ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٦) فى البحر المورود أمثلة تؤيد هذا ص ٥٤ و ٥٥ و ٢٦٧ و ٢٦٨ .

احترامهم وتوقيرهم ولو لم يعملوا بالشريعة التي كانوا بنشرها بين الناس (١) ..
ولا نظن إلا أن سائر أرباب الطريق قد ساروا سيرته واقتدوا به أو تابعوه
- غير عامدين - في موقفه من العلماء، وكتب المتصوفة تقول إنهم كانوا
يلبسون مسوح الراهب الوديع ويحملون غصن الزيتون ويطوفون داعين إلى
الوثام بين الطوائف، وقد وضع الشعراني كتاباً للوصول إلى هذه الغاية -
ككتابي اليواقيت والجواهر والميزان وغيرهما .

على أن ذلك كله لا يمنع من القول بأنهم كانوا يردون هجمات الفقهاء
بتأليف الرسائل والتعرض لنقد آرائهم فيما يصنفون من كتب، فأما الرسائل
فحسبنا الإشارة إلى رسالة محمد كريم الخلوتي (٢) التي رد بها على الشرييني الذي
انتقد طريقته في الذكر بالجلالة وقال إنها مبتدأ وكل مبتدأ محتاج إلى خبر (٣)
على أن الرسالة هادئة لينتة - فأما رد النقد في كتبهم فان مصنفات الشعراني
حافلة بذلك كما أشرنا الآن .

وما كان لين المتصوفة في نقد العلماء وليد العجز عن رميهم بالتهم وصب
الشتائم فوق رؤوسهم فسرى شيئاً من قسوتهم حين يهاجم بعضهم بعضاً.

استمرار النزاع الى اليوم

وقد استمر النزاع قائماً بين الفقهاء ومشايخ الطرق إلى يومنا الحاضر ،
ترثه الطائفتان جيلاً بعد جيل ، فبعد انقضاء العصر العثماني بأربعين عاماً
استفتى الشيخ ابراهيم باشا أحد العلماء من تلامذة الشيخ الصعدي (هو الشيخ
الأمير) عن الغناء والتواجد والرقص في حلقات الذكر فأفتى بمثل ما أفتى به
شيخه من قبل (٤) وقد هدأ هذا النزاع في الأيام الأخيرة ولكنه ما زال

(١) اليهود الحمديّة ص ١٣٧ .

(٢) رد المتوقف بلا محالة في الابتداء بالذكر بالجلالة (مخطوط) .

(٣) الكواكب الدرية ٥٢٠ وتكميل النور السافر ص ٧٥٢ .

(٤) استفتاء الشيخ ابراهيم باشا الى العلماء سنة ١٢٥٢ هـ (مخطوط) .

كاننا في صدور الطائفتين وقد ثار منذ بضعة أعوام ثورة رددت الصحافة صداها، إذ كتب وزير الأوقاف عبدالعزيز باشا محمد كتابا إلى شيخ الجامع الأزهر الأستاذ المراغي في شأن البدع الشائعة وما فشى بما لا يتفق مع قواعد الإسلام، واقترح تأليف لجنة يشرف عليها الأزهر وتكون مهمتها تمحيص هذه البدع الشائعة بين الطبقات الدنيا في مصر ووضع قواعد تستند إليها الحكومة في مصادرة كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين، وبعد تبادل الرأي بين الوزير ومشيخة الأزهر، اتفق الرأي على تكوين لجنة يرأسها مفتي الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم، وصدر قرار بتأليفها لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للإسلام.

وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت نائرة الصوفية وأرسلت مشيختهم بيانا إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه، لأنه تخطى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما يتعلق بشئون الصوفية دون غيرها من السلطات، ثم ختمت بيانها بتوجيه كلمة فيها شيء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر (١).

أرباب الطريق

قلنا فيما أسلفنا إن أرباب الطريق أنفسهم كانوا بين الذين حملوا معادل الهدم في أيديهم وسعوا بنا إلى تحطيم دولة الفقراء - عامدين كانوا أو غير عامدين - ذلك لأن دولتهم كانت تقوم على الإيمان بها والتسليم لأهلها ورفعهم فوق كل نقد أو عتاب، فكل إنكار يوجه إليهم أو نقد ينصب على رموسهم يزلزل هذا الإيمان الذي لا قيام لدولتهم بدونه - وقد ثارت الضغينة في نفوس أرباب الطريق حتى كره بعضهم بعضا وحمل بعضهم على بعض حملات تنضح قسوة وتفيض عنفا. وقد اتخذ النزاع بين المتصوفة بعضهم

(١) جريدة روزاليوسف (اليومية) ٢١ و ٢٥ يناير سنة ١٩٣٦ وجريدة البلاغ

١٦ و ٢٤ يناير سنة ١٩٣٦.

مع بعض مظهرين عنيفين شبيهين بمظهرى المقاومة التى أثارها الفقهاء فى وجه أرباب الطريق — مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب وما يشبهه ومظهر المقاومة النظرية — بوضع الرسائل فى التشنيع على مسلك بعض الطرق — فلتتناول المظهرين بشيء من التوضيح :

بعض مظاهر المقاومة الفعلية

روى المناوى فى ترجمة عبد الله محمد الصبان + ١٠٠٨ هـ أنه أخذ مكان شيخه بعد موته فضايق بذلك جماعة من مریدی شيخه ، وقالوا إن حفيد الشيخ (وكان ابن بنته) أحق وأولى يارث المشيخة من تلميذه ، وانطلق بعضهم إلى زاوية دمرداش وانهاوا على الشيخ الصبان وجماعته الذين قبلوا مشيخته . وأئخنوم ضربا ثم أخرجوهم من المنظرة ، ولولا تدخل بعض العلماء وتهديد المعتدين بالحاكم لنال الصبان « شر مستطير » (١) .

وكذلك نقول فى النزاع العنيف الذى قام بعد ممات الشعرائى (+ ١٧٣) على زاويته بين ابنه وأولاد عمه — وفى طليعتهم عبد اللطيف — فقد بلغ من أمر هذا النزاع أن ترفعوا إلى الحكام أكثر من مرة ، ولم يقض عليه إلا ممات أحد المتنازعين (٢) .

وقد روى الشعرائى عن نفسه أن جماعة من مدعى التصوف قد اجتمعوا بجامع الغمرى — حيث كان يتعبد — وأوقدوا كثيرا من القناديل وجلسوا تجاهه وأخذوا يرفعون بالذكر أصواتهم ويشوشون عليه فاتقل إليهم وجلس فى مجلسهم وقال لهم كلنا فى الخير سواء فنعوه من الذكر معهم . فلما طلب إليهم أن يخفضوا أصواتهم أبوا عليه ذلك . ولكن الله أنقذه من شرهم وسلط

(١) الكواكب الدرية ٢٥٧ .

(٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٦٤ ، الكواكب الدرية ٤٩٦ ، تكميل النور السافر ص ٦٦٥ وانظر فى كتابنا عن الشعرائى تفصيل ذلك .

عليهم النوم فناموا حتى الصباح . ثم ذهبوا إلى عبد الدايم بن بكر وطلبوا إليه أن يقيم لهم مولداً في الجامع ليلة الجمعة ، رغبة في التشويش على الشعراني وجماعته ، وجاء المقرئون والوعاظ لخفض الشعراني وجماعته أصواتهم بالصلاة على النبي دون أن يطلوا مجلسهم ، فجاء عبد الدايم ووقف على رأس الشعراني وقال له في لهجة المحقق المغيظ : « أنت يا عبد الجعاص ما تسكت ، فسمى الله بالجعاص ، فثار جماعة الشعراني لذلك وهجموا عليه وأثخنوه ضرباً وطمنا قائلين له : كفرت .. ثم اجتمعوا وعقدوا النية على أن يضربوا رقبته صباح الغد ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يمضوا به إلى القاضى ليحقق دمه ، وبطل مولدهم تلك الليلة (١) .

وهل زريد شاهداً أدل على هذه الضغينة من قول الشعراني : « وقد رأيت أنا جماعة أخذوا عن الشيخ فصاروا مع إخوانهم كأنهم في دين وهم في دين ، فتنافروا وتشاحنوا وترافعوا إلى الحكام وامتلات قلوبهم بالشحناء والبغضاء .. » (٢) وقوله للمريدين الذين يتصلون بشيخ ويتخضون لإخوانهم في الطريق لأنهم ليسوا من مريدي شيخهم : « وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا أنوفكم وتطاطثوا رقابكم بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه .. » (٣) .

ولقد أكثر كتاب التراجم من الإشارة إلى أن بعضهم كان يؤذي إخوانه في الطريق ، روى الشعراني عن المنير + ٩٣١ . أنه قتل محمد بن عراق لأنه أنكر عليه ، وذلك أنه أراد الاجتماع به فأبى ابن عراق فشكاه إلى النبي فأت بعد عشرين يوماً ، وإن كان الشبلي يشك في وقوع هذه الحادثة لأن المنير مات سنة ٩٣١ وابن عراق سنة ٩٣٣ (٤) . وذلك لا ينفي إيذاؤهم لمن أنكر

(١) المناقب الكبرى ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) و(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) تكميل النور السافر ص ٢٩٥ (مخطوط) .

عليهم — كما يدعى المؤمنون بقدرتهم على الإيذاء — والكتب حافلة بما يؤيد ذلك . والغريب أنهم كانوا أحيانا يؤذى بعضهم بعضا رغبة في التسلي ، روى الشعراني عن علي أبي خوده أنه رآه مرة يباب الشعرية يقول لحادمه : إيش قلت من يخلى هذا الرجل (عبد القادر الدشطوطي) هرازه في رجليه .. ! فلما مر به كركبت بطن عبد القادر ، وصاح هرازه على المصطبة التي كان قاعداً عليها ، كما يزعم الشعراني (١) وقد كان الكثيرون منهم معروفين بأن دعاءهم مستجاب كمحمد بن عز المصري + ٩٣٠ (٢) وغيره .

وينبغي أن نشير الآن إلى أن الفتنة التي ثارت من أجل اتهام الشعراني بالخروج على الدين قد اشترك بعض خصومه من المتصوفة في إثارتها كما نص على ذلك المناوي والشبلي في ترجمته (٣) .

بعض مظاهر المقاومة النظرية :

تصادفنا فيما كتبه أهل التصوف رسائل يهاجمون بها بعض الطوائف ، وقررات ذهبت أشتاتا في بطون كتبهم نفثوا فيها مرارة نقدهم وسموم حقدهم ، فن الرسائل التي وضعت في الهجوم على الطوائف رسالة كتبها محمد الخمري في فرقة المطاوعة التي أسلفنا الحديث عن فقراتها وطريقتهم في الذكر وقد اتقده الشعراني على قسوته في الهجوم عليهم والتشنيع على مسلكهم بهذا العنف ، قائلا إن الطائفة الواحدة تجمع بين الشرير والخير فلا ينبغي أن نعمم أحكامنا أو نأخذ بظاهر ما نرى (٤) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ٢٤٣ (مخطوط) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٤٨ .

(٣) الكواكب الدرية ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ .

(٤) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤ .

والغريب أن الشعراني الذي يعيب على الغمري قسوته في نقد المطاوعة برسالته ، قد وضع رسالة سنة ٩٣٣ هـ يهاجم بها طائفة من الفقراء في عصره ادعت الولاية الكبرى زوراً وبهتاناً ، وضمن هذه الرسالة شتى ضروب السباب ومختلف ألوان التهم حتى كانت الضغينة تطل من ثنايا سطورها (١) ، قال فيها إن هؤلاء الفقراء أضل من الأنعام واتهمهم بالجهل والكفر وسوء الأدب (٢) وقال إن الفلاحين أقرب إلى الله من هؤلاء المضللين ، لأنهم يقضون العمر في نفع العباد وأما هؤلاء فيقضونه في ضرر الناس (٣) ، وقال إن المشيخة على يدهم قد أصبحت باباً من أبواب التسول والشحاذة (٤) وأن إبليس لما اجتمع به (الشعراني) وبخه على قبول هؤلاء المغرورين تعظيم الناس لهم ، وقال للشعراني إنه يأتي ذلك لنفسه مع أنه إبليس .. (٥) .

وتعقبهم بمثل هذه المطاعن في غير هذه الرسالة فرماهم في بعض كتبه بالكفر والتضليل والكذب والافتراء وخفة العقل ورمى الفرق التي تتلذذ لمشايخ قد طوتهم القبور بالمروق من الدين ، فقال عن فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والدسوقية والمسلمية والسبرهامية إنهم خارجون عن الشريعة (٦) ، واتهمهم بالجهالة فقال إنهم يقتنعون بلبس الزى فإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمان قال لأدرى أو فرائض الوضوء قال لأدرى .. مع أنه شيخ في زاويته يأخذ العهد على الناس ومثل هذا ليس شيخاً باجماع المسلمين (٧) .

فالشعراني الذي كان مع الفقهاء لنا وديعاً زغم قسوتهم عليه وإهاناتهم له ، نراه مع إخوانه في الطريق شديداً يتابع لطماته لهم دون رفق ولا هوادة .

(١) اسم الرسالة رجع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ولها أربعة أسماء أخرى ذكرناها في ملاحظتنا على مصادر كتابنا عن الشعراني .

(٢) رجع الفقراء ص ١ . (٣) نفس المصدر ص ٢ .
(٤) نفس المصدر ص ٩ . (٥) د . ص ١٣ .
(٦) قواعد الصوفية ص ١٧٥ . (٧) قواعد الصوفية ص ١٧٦ .

وشبهه بهجومه ما نراه في كتاب السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والالحاد ، وقد وضعه السيد مصطفى البكري الذي لقن الطريقة الخلوئية للحفناوى + ١١٨١ قطب رضى الديار المصرية كما عرفنا — والكتاب نقد لاذع ينصب على رءوس أرباب الطريق الذين حرروا أنفسهم من قيود الدين وتمردوا على قواعده وخرجوا على تعاليمه (١) .

* * *

هذه هي بعض معاول الهدم في دولة الفقراء ، حملها حتى أهلها ، ولم يبق في الشعب طائفة إلا قام فيها المنكرون لأرباب الطريق الراضون في تحطيم سلطانهم والانتقام من دجلهم ، ولكن هذه القوى التي تعاونت على هدمهم كانت — كما قلنا من قبل — كسيحة تنقصها الحركة ويعوزها النشاط مريضة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق ، فعاشت دولة الفقراء على كره من هؤلاء المنكرين جميعا مبسوطة السلطان بمدودة الرحاب يرفرف عليها في شتى الأنحاء — والزمان وحده هو الذي تمكن بتطوره السريع من تقليم أظافرهما وقص أجنحتها وإلزامها الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها .
ولكن ما السبب الذي أدى إلى قيام هذا النزاع ؟ ذلك ما نعرفه بشيء من التفصيل فيما يلي من حديث :

٢ — أسباب الانكار على أرباب الطريق

أسباب الانكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق — أسباب النزاع بين الفقهاء ومشاخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله — التنافس من أجل الدنيا .

أسباب عند الناس والحكام وأرباب الطريق

محاولة الكشف عن الأسباب التي أدت إلى قيام النزاع بين أهل الفقه

(١) السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والالحاد للسيد مصطفى البكري مغلوط

وأرباب الطرق ، تنير السبيل إلى فهم الأسباب التي أثارها الإنكار في نفوس الناس والحكام ، وبعث الضغينة عند أرباب الطريق ، لأن أسباب الظاهرة الأولى أعم وأشمل ، وفي بيانها ما يغنيننا عن الكلام على أسباب الإنكار عند غير الفقهاء . ويمكننا أن نجمل أسباب الإنكار عند الناس والجنود في ظهور الشعوذة سافرة من غير حجاب ، مع عدم اقتناع المنكرين بولاية المشعوذين ، فقد قلنا فيما أسلفنا إن مدعى الولاية كانوا إذا جهروا بامتهان الدين والخروج على قواعده وتعاليمه ، سر الناس لهذا الشذوذ سرورا عظيما . واستخفهم الرضا بما يرون من مظاهر التمرد على ما ألقوا من قديم الزمان ، ولكن هذا الرضا كان مرده إلى إيمان الناس بولاية هؤلاء الأدياء . وكان بعض الدجالين والمشعوذين لا يقوى على إقناع بعض الناس والحكام بصدق ولايته ، فكان ذلك يثير السخرية ويبعث الإنكار في نفوس المنكرين .

أما إنكار مشايخ الطرق بعضهم على بعض ، فرده إلى ضيقهم بعمز العاجزين من إخوانهم عن إقناع الناس بولايتهم ، بما كان يؤدي إلى الإنكار على أرباب الطريق جميعا ، وكان مرجع هذا الإنكار بين أهل التصوف إلى التنافس الذي كان بينهم ، وأدى إلى إثارة الحفيظة وقيام الضغينة في نفوسهم ، فكان شيوخ الطرق الذين يفشلون في إقناع الناس والحكام باحترامهم وتقديس ولايتهم ، يتساوون مع الذين يلقون النجاح ويصادقون الرواج عند الناس من حيث إنكار إخوانهم في الطريق عليهم — وإن اختلف السبب الذي أدى إلى هذا الإنكار — ولهذا كثرت حملات أهل الطريق بعضهم على بعض كما عرفنا من قبل .
والآن ننتقل إلى الأسباب التي أدت إلى النزاع بين أرباب الطرق وأهل النظر:

الخلاف في وجهة النظر :

يقول تاريخ العلم إن الخلاف بين أهله لا يثير الضغائن إلا إذا اتصل بالعقائد الدينية أو المنافع الشخصية أو المصالح القومية ، لأن الخلاف في النظر العلمي قائم على العقل وحده ، ومن شأن العقل التسامح . أما تاريخ

الأديان والعقائد فيقول إن الخلاف بين أهلها مشار الأحقاد والضغائن دواما ، لأنه قائم على العاطفة أو الغريزة ، وذلك مما يثير في النفس الضغينة والحقد ، ويدفع صاحبه إلى الإنكار - وقد يحمله على الانتقام - ولهذا كان رجل كالغزالي - وهو حجة الاسلام - مثار النزاع العنيف بين أنصاره وخصومه رغم الجهود التي بذلها في الدعوة إلى الدين والتبشير بظاعة الله - وفي الزبيدي تصوير لطريف للخصومة التي قامت بين مؤيديه والمنكرين عليه (١) - وما قيل في الغزالي خليق بأن يقال في غيره من رجال الدين .

كان طبيعيا إذن أن يقوم النزاع بين الطائفتين : أهل التصوف وحملة الشريعة ، فقد كانتا على خلاف في وجهة النظر ، إذ كان الفقهاء على اعتقاد بأن الدين إنما يستقى من الكتاب والسنة ، وقلّ منهم من كان يميل إلى تيه العلم اللدني الذي آمن به أهل التصوف . وقد انقسم هؤلاء المتصوفة في هذا العصر إزاء العلم بالدين معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ويدعو ثانيهما إلى الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد اتفقا على أن استقاء الدين من ظاهر الشرع عجز ونقص ، وأن المعين الذي ينبغي أن ينهل منه الانسان معرفته بالدين - وغير الدين - هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد في عبادة الله والتفاني في طاعته حتى يصل إلى حضرته ، ويأخذ عنه العلم رأسا من غير وساطة ، وشتان بين من يستقى العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه عن الحي الذي لا يموت (٢) .

إباحة التأويل لأهل الله :

وقد أدت بهم هذه الدعوى إلى إباحة التأويل لأنفسهم ، مدعين أنهم يعرفون بالكشف باطن الشريعة ، وأعلنوا احتقارهم لطريقة الفقهاء الذين

(١) إتحاف السادة المتقين بمرح إحياء علوم الدين ج ١ .

(٢) انظر تفصيل هذا في كتابنا « الصغرائي » في الفصل .

يقفون عند ظاهر النصوص ولا يبيحون التأويل لأحد من الناس ، وممادوا في هذا الاحتقار حتى بلغ الأمر بأحد زعماء الطريق من دعاة الجهل ، أن يسخر من صوفي متبحر في الدين قد تبرع بتعليمه مبادئ الدين ، فيقول عنه مع مريديه في زاويته ، إنه يريد « أن يعملنا فقهاء كما هو فقيه .. » .

وزى — من مظاهر هذا الاحتقار ، امتناع « عبد الغنى النابلسي » عن إلقاء درس في الحديث على طلبة الأزهر وعلماؤه عندما زار الجامع واحتفوا به ، فاعتذر إليهم بسفره إلى بلاد الحجاز ، وانصرافه إلى زيارة الصالحين والتميم بمقاماتهم ، وعدم الفراغ إلى الطائفة وحبس النفس في تقرير العلوم الظاهرة ، وعقب على هذا الاعتذار الذي قاله لهم بذكر السبب الصحيح لاعتذاره فقال « لآنا رأينا ذلك ينقص علينا مانحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ويعكر علينا صفاء الروح لتلقى المواجيد العرفانية » (١) .

احتقروا الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة ، وسامهوا مع الفقهاء في استهجان التأويل ، ولكنهم أباحوه لأنفسهم ، وقالوا إن المذموم من التأويل ما كان عن فكر وتخمين ، أما خواص العباد من الأولياء الذين « فنوا عن بشريتهم » فقد أطلعهم الله على ما أخفاه عن كافة البشر ، فكان لهم وحدهم حق التأويل .. أما الفقهاء وغيرهم فن واجبه أن يقفوا عند ظاهر الشرع دون أن يزيدوا عليه حكما واحدا « فاحرمه الحق حرمه ، وما أحله أحله ، وما أباحه أباحه ، وما ندب إليه ندب إليه ، وما أوجبه أوجبه ، وما سكت عنه سكت عنه ، فن فعل ذلك صحت له موافقة الحق تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم » (٢) .

وممادوا في زعمهم فقالوا إن ألفاظ كبار الأولياء خليفة بالتأويل ، شأنها في ذلك شأن ألفاظ الأنبياء ، لأنها جميعا من بحر واحد ، بل إنها أحق وأولى

(١) رحلة النابلسي ص ١١٣ .

(٢) الجواهر والدرر ص ١٣٤ — ١٣٦ .

بذلك من كلمات الأنبياء ، لقصور الأولياء عن الافصاح عما يقصدون ، قال الرسول أتاني الليلة آت من ربي - وفي رواية أتاني ربي عز وجل فوضع أصابعه بين يدي حتى أحسست برد أنامله فعلمت علم الأولين والآخرين . فلو قل ذلك ولي من أولياء الله لأجمع العلماء على قتله ، وغاب عنهم أن الأولياء لهم الإشراف على حضرات الوحي ، وربما هبت على قلوبهم من تلك الحضرة نفحات تكشف لهم عن حقائق الأمور الإلهية ، فن الأدب قبول تلك النفحات بالإيمان كما قبلت من الأنبياء (١) .

وكان علماء العصر لا يسمون بأن للشريعة باطنا وظاهرا ، ولا يميزون تأويل آية ولا حديث ، والمطلع على الكتب الدينية التي كتبها أهل هذا العصر ، يعرف مبلغ تقيدهم باللفظ ومدى ضيق التفكير عندهم ، ومؤرخو الأدب المصرية يسمون هذا العصر - عصر الحواشي والشروح ، والكتب التي وضعت فيه تبرر هذه التسمية ، وكانت الحواشي على المتن قائمة على التقييد بظاهر الكلام واللف والدوران حول الألفاظ ، هذا النوع من التفسير شائع في الكتب ، فكان طبيعيا أن يلتزمه الفقهاء في الكتاب والسنة ، فنادوا بتحريم التأويل ودعوا إلى الوقوف عند ظاهر الشرع وضاقوا بالمتصوفة الذين خرجوا على دعواهم وتمردوا على ضيق حدودهم ، وخرجوا من تأويل الآية أو الحديث بما يناقض الواضح من معانيه ، زاعمين أن من عباد الله من تهب على قلوبهم نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن وجهتهم صاحب الدليل (٢) وهم من الكفر والجهل أبرياء في عرف أهل الطريق .

كان طبيعيا أن يضيق الفقهاء بمسلك الفقهاء ، فان إباحة التأويل لأهل الله قد مهدت السبيل لشعوذة الدجالين - وما كان أكثرهم في هذا العصر - فقالوا كل ما خطر لهم ، وفعلوا كل ما اشتبهوا فعله ، وخرجوا من الآيات والأحاديث بما يبرر سلوكهم ، واستغلوا مذهبهم في التأويل والقدرة على

(١) الشعرائي : درر القوامس ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) الشعرائي : الجواهر والدرر ص ١٧٧

معرفة باطن الشريعة في ابتكار آراء ليس للكثير منها أصل من الدين ، ثم اعتنقوا هذه الآراء التي حاربها الدين وروجوا لها بين المتصلين بهم ، كالتقول بالغاء الملكية اعتمادا على أن مالك الدنيا والآخرة هو الله وحده ، والانحدار من هذا الرأي إلى القول بالعفو عن السارق واستنكار القصاص من الجناة والمذنبين والتبرم بعقاب المجرمين ، وشتان بين هذا وبين موقف الدين من القصاص كقوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، وغير هذا كثير .

اهتبار الولي أعظم من الله ورسوله :

وقد ذكرنا في مستهل هذا الكتاب ما انتهى إليه الكثيرون من الخروج على قواعد الدين ومقتضيات العرف ، بارتكاب المعاصي على ملاء من الناس ، والتقصير في القيام بتكاليف الدين ، وقد مهدوا لذلك برفع أنفسهم فوق كل نقد وملامة ، فأحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والإكبار ، وبالغوا في ذلك مبالغة لا يقرها دين ولا يسيغها عقل ، فزعموا أن الله يخضع على المقرين من عباده مواهب تمخرجهم عن كافة الناس ، وترفعهم عن عجز البشر إلى مرتبة الأنبياء ، بل إن مرتبتهم لتعلو على مرتبة الأنبياء والرسل . قال الخواص « إن الأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولو لا أن الله طالبهم بالأدعاء ما ليس لهم لادعاء النبوة ، ومن هنا قال عبد القادر الجيلاني : أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب وأوتيتنا ما لم تؤتوا - أي حرم علينا اسم النبي مع اطلاقنا على علمه من طريق الكشف كما يقول الخواص (١) .

بل تبادوا في شططهم فتركوا الكلام في وجوه الشبه بين الولي والنبي وأخذوا يعددون وجوه الشبه بين الله والولي ، قال تعالى « وإنما أمره إذا

أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فادعوا أن الأولياء قد أوتوا ما يشبه هذه المقدره ، فان الله يعطيهم لفظه كن ، فتسير الدنيا في ركايبهم ، تستجيب لأمرهم وتنصاع لأشارتهم (١) . وما أوتيهم الله!
وتواضع بعضهم فقال إن القدرة التي يؤتاها الولي ليست قدرة مطلقة كقدرة الله ، فليس في وسع الولي أن يخلق شيئاً أو ينزل مطراً أو ينبت زرعاً إلا أن يشاء الله ، على أن الاستثناء بمشيئة الله يبرر تقيد القاعدة في كل حين ، لأن مدعى الولاية كثيرون ، بل قال بعضهم إن الفقير مهما ارتفعت درجة معرفته في الطريق لا يستطيع أن يجعل الشوك تفاحاً لأن الحقائق لا تبدل (٢) ولكنهم كانوا مع هذا يعتقدون أن الولي يستطيع أن يبول على الرصاص فيستحيل ذهباً ، وعلى الصفيح فيتحول ماساً بإذن الله . . . على أن اعترافهم بأن قدرة الولي مستمدة من قدرة الله ، لم يمنهم من القول بأنهم يمتازون بها على الملائكة ، لما انطوى عليه الإنسان من الخلافة والنيابة على العالم . . . (٣) .
وقد وصف الله تعالى نفسه بنوع من اليقظة الأزلية والأبدية فقال ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، فرأى بعضهم أن الأولياء قد أوتوا هذه الموهبة ، وتواضعوا فقالوا إن الفرق قائم في أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم أبداً ، أما الولي فإنه يستطيع البقاء على هذه الحال أمداً طويلاً ، فقد كان عيسى بن نجم ، يساحل البحر المالح بنواحي الرلس على هذه الحال ، وقد مكث سبعة عشر عاماً لم يغمض له جفن في ليل أو نهار . . . (٤) .
والله تعالى مطلع على الخواطر ما ظهر منها وما بطن ، عارف بعباده لا يستره عنهم حجاب وقد ادعوا أن المقربين من عباده المخلصين قد أوتوا ما يشبه هذه الصفات . . . (٥) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٥٥ ، بيت الوفاية من المناوي ص ٣٩
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤٦
(٣) الجواهر والدرر ص ١٢١ - ١٢٢
(٤) » » ص ١٤١
(٥) » » ص ١٧٩

بل لقد بلغ بهم الشطط في ادعائهم أن شبهوا الله بالولى في بعض الأمور..!! فقالوا في معرض الحديث عن التجلى إن الولى يستطيع أن يعرف بالكشف ما يجمله غيره ، وأن الحق تعالى كذلك . !! يتجلى في الثلث الأول من الليل للأبصار ، والثلث الأوسط للأجسام الشفافة ، وفي الثلث الأخير للأجسام الكثيفة ، ولولا هذا التجلى ما صحت معرفته تعالى لأحد من الخلق ، فاعلم ذلك فانه من علم الأسرار ، - أى العلم اللدنى - كما يقول الشعرانى (١) ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم أوجبوا على المرید أن يذكر شيخه في كل أوقاته ، أما ربه فحسبه أن يذكره في غالب أوقاته

وكان أصحاب هذه الدعاوى على يقين من أنهم سيتمون بالزندقة ، فقالوا إن هذا الاتهام إذا وجه إلى الأولياء كان الشاهد العدل على التزامهم للشرع على أكل وجه وأنتم صورة ، لأن الولى إذا بلغ درجة الحقيقة ، زال الوجود في حسه ، وأصبح لا يرى إلا الله ، ومن لا يرى غير الله لا يختص كلامه بدين ولا ملة ، فلا يسع الصديق إلا أن يرميه بالكفر والالحاد غيرة على شريعة محمد ، ولا بد لكل سالك (٢) من الوقوع فيما وقع فيه الحلاج إلا أن يشاء الله (٣) .

وبهذا فقد أضحى الولى في عرفهم لها صغيرا بل كان أعظم من الله - والعباد بالله . وقد حملهم هذا التصور الجامع على أن يكفلوا له من الحقوق على أتباعه ما لله على عباده ، فكما أن الدين يطالب المؤمنين بطاعة الله وامثال أوامره في شتى الصور والألوان دون اعتراض ولا إنكار ، فكذلك حتم أرباب الطريق على المریدين أن ينصاعوا لأوامر شيخهم بالغا ما بلغ الشطط فيها ، فحرموا عليهم التردد في طاعة أمر ، أو التفكير في مبرراته أو

(١) الجواهر والدرر ص ٢٥٨

(٢) في رسالة زكريا الأنصارى في بيان الألفاظ التي يتداولها الصوفية أن السالك مرتبته فوق المرید ودون العارف .

(٣) الجواهر والدرر ص ٣٠٩

النتائج التي تترتب عليه ، وقالوا في تعبير يلائم تصورهم ، كما أن الله لا يقبل في محبة شريكاً له ، فكذلك الشيخ لا ينبغي أن يقبل من مریده أن يشرك به أحداً من الأشياخ أو غيرهم . . . وكما أن الانسان ليس له إلهان ولا للمرأة زوجان ، فكذلك المرید لا يجوز أن يكون له شيخان ، بل ساروا في شططهم حتى قالوا إن أوامر الشيخ إذا تعارضت مع أوامر الله ، وجب على المرید أن يطيع شيخه ويهمل أوامر ربه ، فإن الشيخ لا يريد من وراء أوامره إلا مصلحة مریده ، والمرید الذي يتردد في طاعة شيخه إذا أمره بإهمال الصلاة أو الكف عن الصيام أو تطلق زوجته وفراق أولاده . . . لغير ما سبب معروف ، لا يفلح في الطريق أبداً ولو كان على عبادة الثقلين . . . إلى آخر ما عرفنا من قبل .

ومن هذا نرى أن الولي لم يكن في عرفهم إلهاً صغيراً ، بل كان أعظم من الله الذي يدعوون الفناء في حبه والحياة من أجله ، وما كان هذا الهذر ليرضى الكثيرين من العلماء .

فلما هيأوا لأنفسهم هذه القداسة كلها ، واطمأنوا على ما أوجبوه على المریدين والناس من رفع الأولياء فوق كل نقد وملامة - بالغاً ما بلغ شذوذ سلوكهم واعوجاج تفكيرهم ، أعلنوا أن التكاليف الدينية قد سقطت عن الأولياء ، فجاز لهم أن يحرروا أنفسهم من تبعات الدين وفروضه ، ويتمردوا على أوامره ونواهيه ، وقد أدت بهم هذه النظرة التي فشت في هذا العصر إلى إهمال الصلاة والصيام والتقصير في سائر فروض الدين ، ثم الخروج على نواهيه بالزنا في النساء والفسق بالغلطان وتعاطي الحشيش والأفيون وشتى ضروب المخدرات جهاراً أمام الناس دون تورع ولا استحياء - كما عرفنا من قبل - وقالوا إن العبد إنما يتقيد بأوامر الدين ونواهيه رغبة في الوصول إلى الله ، فإذا وصل جاز له التحرر منها جميعاً . . . وما كان هذا الجهر بارتكاب

المعاصي والتقصير في القيام بالطاعات ليرضى كافة الفقهاء - ولو كانوا لا يلتزمون في حياتهم العمل بأوامر الدين ونواهيه .

التنافس من أجل الدنيا :

يضاف إلى هذا كله سبب لا يقل في خطورته عما أسلفناه - إن لم يكن أعظمها جميعا - ذلك هو التنافس على الزعامة ، فقد كانت الصدارة بين الناس في هذا العصر موزعة بين الفقهاء وأرباب الطريق ، وكانت ذات مكان موقر من الأمراء والأثرياء والناس عامة ، فكان طبيعيا أن يثور الحسد في نفوس المتنافسين على الظفر بهذه الزعامة ، وأن تشتعل الضغينة في قلوبهم ، وقد أشار إلى ذلك الشعرا في نفسه (١) ، وقد عرفنا أن العلماء كانوا يكثرون من التردد على بيوت الأمراء ، وقل منهم من لم يعرف عنه ذلك كما روينا عن الجبرتي في أكثر من موضع ، وأن مشايخ الطرق كانوا على اختلاف نزعاتهم يتصلون بالأمراء ويأخذون منهم الهدايا والأموال - حتى الذين كانوا يعلنون احتقار الظلمة من الحكام - وقد كان الأمراء يعلنون مرضاتهم عن ذلك ، وإن كانوا يبطنون احتقارهم ويضمرون السخرية بهم ، وليس من شك في أن هذا التهافت على دور الحكام كان بشير في نفوس الطائفتين أعمق ضروب الحقد والضغينة .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى الإنكار على الفقهاء ، عرضناها موجزين بعد أن عرفنا مظاهر نفوذهم عن شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، ونريد الآن أن نعرف أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ، وليس يتبها لنا ذلك ، من غير أن نعرف نظرة هؤلاء الشيوخ للحياة في شتى صورها وألوانها .

(١) البواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤ وقال في ج ٢ ص ٨٢ نفس المصدر أن سبب الإنكار دقة المدارك ، وفي السكبريت الأحمر ص ١١ ، ١٢ أن أصل الإنكار إبليس .

فصل ختامى

عن

أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية

تمهيد — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين : مجاورين كانوا أو أتباعا ومحبين ومنكرين — أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر العثمانى وما بعده — موقف الاسلام من هذا التوجيه ، والهوة التى تفصل بين تعاليمه ومختلف آرائهم فى الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلفية — خاتمة

تمهيد :

أبنا فيما أسلفنا عن نظرة أرباب الطرق إلى الحياة فى شتى الصور ومختلف الألوان^(١)، ولاحظنا مدى اتصال هذه النظرة بسلوكهم ، ومبلغ توجيهها لحياتهم ، ونحاول الآن أن نربط أطراف الموضوع الذى انصبت الرسالة على دراسته بكلمة موجزة ، نصل بها ما انقطع من أوصاله ، أو نكشف فيها عما استتر من أجزائه ، لتبين منها أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية ، مستعينين بترداد بعض ما أسلفناه وتكرار ما أسهبنا الحديث فيه ، لتثير فى ذاكرة ما يعنىنا مما شرحناه ، ونستغله فى إثبات ما ادعينا فى مقدمة الرسالة حين قلنا إن الحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بعد دراسة دقيقة مفصلة تتناول بالإيضاح ما مر بأهلها من حركات الدين ، وما استغرق عواطفهم

(١) فصلنا الحديث عن هذه الموضوعات فى عدة فصول عن « نظرتهم إلى الحياة العلمية — العقلية — العملية — الخلفية » وخلصنا فى الباب الثالث من كتابنا عن الشمرانى — لأنه كان يمثل مذاهب التصوفة فى هذا العصر فى هذه الميادين كلها ، فليرجع إلى كتابنا عنه من شاء التوسع فى فهم ذلك .

من تياراته، واستوعب أذهانهم من موجاته، لأن الأفكار التي تنازع باسم الدين تفشو بين الشعوب — في عصور الاضمحلال خصوصا — وتتخذ صورة العقائد عند الناس، ومن شأن العقائد أن تستعبد معتقيا. وتستبد بهواهم وتهمين على توجيه حياتهم وتحديد تصرفاتهم والتحكم في وجودهم — كما يقول المحدثون من علماء النفس والاجتماع، ولهذا لم نكن مبالغين حين قلنا إن الذين يدرسون الحركات الدينية التي مرت بالشعب المصري يقدمون لمؤرخ الحياة المصرية تفسيرا جديدا لظواهرها، وفيما واسعا لمختلف جوانبها، ويعينونه على أن « يفلسف » التاريخ كما أشرنا في مقدمة الكتاب .

وينبغي أن نقول في التمهيد لهذه المحاولة إن التصوف الذي قام بين المصريين كان — فيما يرجح على الظن — أقوى الحركات الدينية توجيها لهم وأعظمها أثرا في حياتهم، لأنه كان في عرف الناس زبدة الدين وخلاصته، وأنا تناولناه في المرحلة التي استفحل فيها أمره واستشرى فيها داؤه — ولكن هذا الترجيح لا ينسينا التصريح بأن الاقتصار على دراسة التصوف قد أعجزنا عن تفسير القليل من ظواهر الحياة المصرية على ضوءه، وإن كان يقدم لنا حلولا للكثير من المعقد في ظواهرها، بل لعله ينهض بتفسير المجهول منها أو يضطلع بإزالة نواح من الغموض الذي يحوطها وإن عجزنا عن بيان ذلك في هذا الفصل، فإن المصريين كانوا في هذا العصر — على ما عرفنا — أسرى شيوخه وعبيد تعاليمه .

وتصادفنا عقبة أخرى عند الإقدام على هذه المحاولة، هي أن الحياة المصرية في العصر العثماني لم تؤرخ إلى يومنا الحاضر تأريحا مفصلا دقيقا، فكيف يمكننا أن نحدد الصلات التي تقوم بين تعاليم المتصوفة وهذه الحياة التي لا يزال الكثير من جوانبها غامضا مجهولا .. ؟ لقد عرفنا خلال دراستنا بعض نواحيها وبقي بعضها الآخر في خفاء وغموض، فهل من حقنا أن

نستعين على معرفة الغامض منها بفهمنا للحياة المصرية في وقتنا الحاضر . . . ؟ إن مصر قد اتصلت بالغرب بعد انقضاء العصر العثماني واحتك أهلها بمدنيتها ، فبعث فيهم هذا الاتصال روح التمرد على تقاليدهم والثورة على المألوف من عرفهم ، والاتجاه إلى السير في طريق المدنية الغربية ، ومن ذلك بدأت الحياة المصرية تأخذ اتجاهها يباعد بين المصريين وروح التصوف ، ويجعل تفسير حياتهم الراهنة على ضوء التصوف وحده شططا في الكثير من مواضعه . . .

ولسكن لماذا نسمى هذا شططا . . . ؟ إن في الشعب المصرى طبقة تمثل إلى يومنا الراهن سواده الأعظم — هي قطعة من الماضي السحيق تخلفت عنه والزمان ماض في طريقه لا يبطله في مسيره ولا يثقل رجله ليدركه المتخلفون عنه والراغبون في اللحاق به ، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث هذا الماضي وتقاليد . . . إنها توشك أن تثبت أن التطور الذى يشمل الحيوان والجماد ، لا سلطان له على هذا الصنف من الناس ، فهو صنف يمتاز بالوفاء المطلق لتراث الماضي والحرص الشديد على نقله إلى الجيل الذى يليه دون زيادة ولا نقص . . . ١١

نحن مضطرون لمعرفة الأثر الذى كان للتصوف في توجيه الحياة المصرية إلى الاستعانة على فهم الغامض من ظواهرها ، بحياة الريفيين ومن في حكمهم في وقتنا الحاضر ، لأن الحياة تنحدر إليهم تركة يرثها جيل بعد جيل .

على أن ذلك كله لا يمنعنا من التصريح بأن تفسير الحياة المصرية في شتى ظواهرها على ضوء التصوف وحده ، محاولة جريئة تنذر بالخطر وتغرى بالشطط وتعود إلى مهابى الزلل ، والمنهج العلى يجب الحذروىوجب الحرص ولا يميل إلى الإقدام على المخاطر ، ولسكنا نرى الإقدام على هذه المجازفة في ختام الرسالة « شرأ لا بد منه » ولهذا أقدمنا عليها بعد التزود بما تسمع

الطاقة من الحيلة والحذر — والآن إلى إثبات ما ادعينا :

نقودهم عند المصريين :

كان المصريون إزاء شيوخ الطريق بين مجاورين يقيمون في الزوايا طامعين كاسين من أحباسها وأموال الأغيار وهدايا المحسنين متفرغين لعبادة الله ، وأنبايح يحترقون العمل في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة ولكنهم يقضون فراغهم — وما كان أوسع — مع أرباب الطريق يستقون منهم العلم بالدين والدنيا ، ومحبين يلتقون بالشيوخ بين الحين والحين تيمنا ببركتهم والتماسا للعلم والدين واعتقادا في صحة ولايتهم ، ومنكرين كانوا — فيما يرجح على الظن — لا يؤمنون بولاية شيوخ بعينهم ، ولكنهم شديدو الايمان بغيرهم من أرباب الطريق ، وبين هذه الفئات التي أسلفناها وجد أرباب الإحسان وأولو الحكم وأهل الفقه .

ينبىء هذا التصنيف بأن المصريين — في الجملة — كانوا على اختلاف طبقاتهم وتباين هياتهم يؤمنون بالتصوف ، وإن أنكر بعضهم على شيخ آمن بغيره ، ولذلك تساوا جميعا في التأثر بتياراته والسير في ركابه ، وهذا كلام موجز يعوزه التفصيل فلنتناوله بالإيضاح :

المجاورون :

حفلت مصر — على ما عرفنا — بالزوايا التي يقيم فيها ألوف المريدين يعبدون الله على طريقة شيوخهم يستقون العلم والدين من معينهم ، ويحملون لهم من القداسة ما لم يحملوه لله ورسله وملائكته ، فقد كان من ألزم آداب المريدين نحو شيخهم أن يؤثروا طاعته ولو كان فيها عصيان لأوامر الدين وتمرد على نواهيه ، ويخفوا إلى تنفيذها ولو أدت إلى طلاق الزوجة وفراق الأولاد ، وإن جهلوا العلة في أوامر الشيخ والحكمة التي أدت إليها ، فان تردد

المريد في الاستجابة لهذه الأوامر - بالغاً ما بلغ الإجحاف فيها وجب على الشيخ أن يخرج من زاويته ويطرده من رحمته ورضوانه .
وما كان سلطان الشيوخ على المجاور ليقف عند الدين أو يقتصر على ما تتطلبه الأخرى فقد تجاوز ذلك - باسم الدين - إلى الدنيا وشئونها ، فحرموا عليه الاقدام على عمل أو الشروع في أمر مهم دون استشارة الشيخ والانتقاد لمشورته - وإن وضح له فسادها فإن اقترب في دنياه أئماً وجب عليه أن يبادر إلى شيخه «ليعترف» على يديه ويلتمس منه العمل على تطهيره من ذنوبه ، وبذلك أضحي لشيخ الطريق سلطان على مريدهم لا يقره الاسلام وإن أباحت المسيحية - أو أحله القسس لأنفسهم^(١) على ما عرفنا من قبل .

على أننا قد أشرنا إلى أن المريدين كانوا لا يلتزمون العمل بتعاليم الشيوخ إذا انصبت على مقاومة الفرائز رأساً - كقائمة الملكية وإلغاء الأناية ونحوها ، ولكنهم كانوا في سائر نواحي الحياة متاعاً للشيوخ ، أو أدوات في أيديهم يسخرونها كما يشامون . بل أحقر من الأدوات إذ كانت الحقوق تعوزهم والواجبات تثقلهم فكانوا في زواجهم وتربية عقولهم وتنمية أجسامهم وتهذيب نفوسهم ومعاملة بعضهم لبعض ، وسائر جوانب الحياة خاضعين لأوامر الشيوخ - ما لم تتصل بالفرائز اتصالاً مباشراً وثيقاً .

ولكن لماذا نحاول الكشف عن أثر التصوف في توجيه الحياة عند هذا الصنف من المريدين . . . ؟ إن حياته موت يتخلله الكلام والحركة ، كان المجاورون في حاجة إلى الشعور بالعزة والكرامة - وكانت الواجبات تخرج صدورهم وتنقض ظهورهم دون أن يكون لهم حقوق معروفة ، فكانوا بذلك أحط من الحيوان والجماد على ما عرفنا - ولكننا عنينا بالإشارة إلى

(١) أنظر كتابنا عن الشمراني إمام التصوف في عصره عن صلة تعاليمهم بالمسيحية ، وعن نموذج من علاقتهم بالمريدين .

حياتهم في هذا الفصل لأنها كانت « إيماءاً قوياً ، للتصلين بهم والمتميزين
ببركتهم من زوار الزوايا والمتصلين بهم في المساجد والمحتمكين لأي سبب من
الأسباب ، وعلما الاجتماع يعرفون أثر الإيماء في حياة الشعوب .

الأتباع والمحبوب :

ونريد بهم أهل العلم والأدب وأولى الحكم والسياسة وأصحاب الحرف
وغيرهم ممن كانوا إذا فرغوا من أعمالهم سارعوا إلى الشيوخ ومجاورهم
وسعدوا بالجلوس إليهم والاستماع إلى أحاديثهم ، والتأثر بتعاليمهم ، وقضوا
في ذلك فراغ وقتهم - وما كان أوسع - وكانوا لا يرون في الطريق أحد
مدعى الولاية إلا تهاقوا عليه وتزاحموا حوله وتسابقوا إلى تقبيل يديه والتراحمي
على قدميه .

وقد عرفنا أن الشيوخ قد قسموا مصر إلى مناطق نفوذ ، وأن صاحب
المنطقة كان يمنح نفسه الحق في امتلاك أرضها واستغلال غلاتها والاستيلاء
على أهلها وكان الناس يسلمون له بهذا الحق راضين مغتبطين ، كما يقول الشيخ
الصعيدى والشعراني وغيرهما - والناس من فرط الخضوع لسلطان الشيوخ
يسارعون إلى المساهمة في كل ما ينظمه الشيخ معلنين الرضا به والاعتباط له -
ولو كره بعضهم ذلك لعجزه عن الاضطلاع به ، فقد كان التفسير في ذلك -
أيأ ما كانت أسبابه - « فضيحة ، في عرف الناس كما يقول مؤرخو العصر .

لقد كان السفاحون والمجرمون وقطاع الطرق ينقادون للشيوخ ، بل
يبدرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة على يدهم ويحتملون منهم كثيرا من
ضروب العذاب وألوان العقاب ، ويسيرون في مواكبهم في الشوارع مقيدين
في السلاسل والأغلال غير شاكين ولا برمين ، كان الشيخ إذا نظر في طريقه
إلى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مستسلما مستغفرا . . . فأية
حكومة من حكومات الأرض قد تهاها هذا السلطان . . ؟ لانكاد نعرف

نياولا رسولا تهباً له نفوذاً أعظم من هذا النفوذ الذى توافر لهؤلاء
الأدعياء... ١

بل ماذا يقول المؤرخ فى وصف المحبة التى انطوت عليها الجماهير لأعظم
الرسول والأنبياء الذين عرفتهم الدنيا فى قديم الزمان أكثر من قول صاحب
النور السافر فى السيد محمد البكرى : « وكان إذا قام من كل مجلس جلس فيه
للتدريس فى الجامع الأزهر أو غيره يتقدم إليه الناس لتقبيل يده والتبرك
بدعائه إلى ذلك والقرب من موضعه الشريف الذى هو موضع الرحمة ، ويقع
بينهم ازدحام عظيم وربما سقط بعضهم تحت أقدام الناس وحوله إذ ذلك
جماعة من جند السلطان الروم (الترك) وغيرهم وقد حلقوا بأيديهم خشية
عليه من الايذاء بالازدحام وربما أخذ واحد منهم بيده الشريفة وهى ممدودة
لتقبيل الناس لهول مدها لهم إذ كان يقف بعد درسه نحواً من ساعة زمانية
ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه إلى أن يصل إليها .
ولا ينبغى قط أن نقول إن هذا شبيه بحب الجماهير لزعماء السياسة فى
وقتنا الحاضر ، فإن أكثر استقبالاتهم التى نراها فى السينما أو نقرأ عنها فى
الصحف مدبرة قد نظمها أتباعهم قبل وصولهم إلى مكان الاستقبال ، وأعد
شاهد على ما نقول أنا كثيراً ما نرى هؤلاء الزعماء أنفسهم يسرون فى
الشوارع وحدهم والناس ينظرون إليهم متهاسين مشيرين إليهم قائلين : فلان
باشا ... ولا ازدحام هناك ولا حفاوة .. وذلك فوق أنهم لا يتصلون بالجماهير
— فى الأغلب والأعم — اتصال هؤلاء المتواضعين ، ولذلك أثره البين فى
تهافت الشعب عليهم وشوقه إلى التطلع إليهم .

بل لقد كان الشيخ يمشى إلى المكان القفر فيقيم فيه زاوية فسرعان ما
تهافت عليه الناس ويبادر إليه الفقراء وتقام حوله المساكن تبركاً به وتيمناً
بمجاورته فإذا المكان القفر عامر .. روى صاحب تكميل النور السافر (١) عن

(١) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

محمد المنير أنه تسمع نبأ ولد كان في صحبة أمه ومات عطشا جهة بلبس ،
فمضى إلى هذا المكان القفر الذي مات فيه الولد وحفر فيه بئراً وأقام على كسب
منها زواية له ، فسرعان ما أقيمت المساكن حوله وكثر الفقراء عنده فإذا
المكان القفر قرية عامرة وإذا الزاوية ملتحق المعجبين بالشيخ المؤمنين به ،
ومحط الراحلين إلى الفرس والشام وغزه أو العائدين من هذه البلاد
إلى مصر ١٠.

فالفوذ الذي تهباً لشيخ الطريق عند المصريين إبان العصر
العثماني لم يتوافر نفوذ أعظم منه — من قبل ولا من بعد — لزعيم ولا نبي
ولا رسول ١١.

ولقد كان بين المحتفين بهؤلاء الشيوخ الشعراء الذي تعقبوهم في قصائد
المتعددة بالمديح والثناء ، والأغنياء الذين اشتد بهم الحب والإيمان فتجردوا
عن أموالهم وما يملكون وحبسوه على الشيخ وذريته ومجاوريه حتى عاشوا
في الترف الذي أسلفنا الحديث عنه ، وحكام البلد الذين يتعالون على الشعب
ولسكنهم يخرون سجداً أمام أرباب الطريق ويقومون أثناء زياراتهم للزوايا
بأقل الخدمات لأقندر الفقراء ، وعلماؤ البلد الذين كانوا يتسامعون بنياً فقير
يقيم على أبواب المساجد أو في الخرائب المهجورة فيبادرون إلى زيارته
ويقفون أمامه خاشعين حتى يأذن لهم بالجلوس إلى جواره ، فإن ضمن
عليهم بذلك وبخل بالالتفات إليهم فترة من الزمن انصرفوا عنه آسفين . . . ١١
والمنكرون من هذه الفئات كانوا — فيما يرجح — على إيمان صادق بالتصوف
والمخلصين — في عرفهم — من رجاله ، فكان إنسكارهم منصباً على أفراد
بعضهم ، وقلما كان يصادفنا في دراستنا منكر يثير العثير في وجوه المتصوفة
جميعاً ويعلن سخريته بالتصوف وأهله إطلاقاً . . .

كان المصريون — خاصة وعامة أسرى الشيوخ وعبيد الإيمان بولايتهم ،

وكانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر - بتعاليمهم ، يتلقونها منهم عقائد تستعبدنهم وتسير دفة الأمور في دنياهم ، ولهذا وجب أن نعرف الأثر الذي خلفه التصوف في نفوسهم ومدى توجيهه لحياتهم ، وذلك بأن نعرض بعض جوانب نظرتهم إلى الحياة ونحاول الكشف عن علاقتها بحياة المصريين في العصر العثماني وما تلاه من عصور .

أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر العثماني وما بعده :

تساوت في نظرم شتى العلوم المعروفة في عهدهم - من دينية ولسانية وعقلية وغريبة - فاعتبروا الأشتغال بها انصرافا عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة والذكر والتجهد ، فهاجموها علما علما (١) فكان من أثر هذا الهجوم عند الفقهاء وحملة الشريعة - لا عند عامة الناس فحسب - أن ذهب طالب علم إلى شيخ الإسلام الفتوحى الحنبلى وطلب إليه أن يدرس المنطق على يديه - فقال له الشيخ : يا ولدى قد صار الفقه ثقيلًا على قلبى فكيف يعلم أفتى بعض العلماء بتحريم الأشتغال به ؟ ، فقال له الطالب ، يا مولانا إن العلم عبادة فقال له الشيخ : صحيح ذلك ، ولكن ما وجدنا فى العلم رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه وما أظن أن عندى إخلاصا . ١١٠ ،

ولاشك أن حملاتهم على العلوم كانت ذات أثر كبير فى ثورة الناس على السياسة العلمية التى رسمها محمد على باشا بعد انقضاء العصر العثمانى - ومقاومتهم لمدارسه التى انصرفت عنايتها إلى دراسة العلوم الحديثة ، ولاشك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير فى مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير

(١) أنظر ذلك فى الفصل الذى مقدمناه من منطب الصغرى فى الحياة العلمية فى كتابنا عنه (الفصل الأول من الكتاب الثالث)

الحديث^(١)، ولا شك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير في مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير الدينية في برنامج دراسته، وقد أحس أولو الأمر بما سليقونه في هذا السبيل من تعصب وضيق فهمدوا لذلك بفتوى وضع صيغتها السيد محمد بيرم بعد أخذ وعطاء بينه وبين شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنبائي ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد البنا، فقال بعد الديباجة: ما قولكم رضى الله عنكم هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات...؟، فأجاب الإنبائي بجواز تعلم هذه العلوم وضرورة العلم بما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وتحريم الاشتغال ببعضها إذا كان على طريقة الفلاسفة. ١١ ووافق البنا على ما كتب الإنبائي، وكان ذلك عام ١٣٠٥ هـ ولم يعمل بهذه الفتوى إلا بعد مضي تسع سنوات أخرى ١٠٠ (٢) ولهذا أيضا دلالة.

والناحية العلمية كانت فيما نرى أقل نواحي الحياة المصرية تأثرا بالتصوف، إذ كان بين القائمين عليها المهيمنين على شئوننا ألد من عرف المتصوفة من أعداء، وكانوا أصحاب نفوذ على طلبة العلم أدى إلى ازدحام حلقات دروسهم بمئات الطلاب، وكان بعض المتصوفة يلقون دروسا في رحاب المساجد على طريقة الفقهاء كمحمد البكرى في القرن العاشر، والمناوى في القرن الحادى عشر والبيومى والدردير والشبراوى والحفناوى في القرن الثانى عشر، فأضعف هذا من أثر الداعين للجهالة من أهل التصوف الخالص، وقد ساعد على هذا ما كان يشيعه أعداء المتصوفة من الفقهاء عن زندقة أرباب الطريق وتمردهم على قواعد الدين. على أن ذلك كله لم يمنع من انتصار مشايخ الطريق على الفقهاء في أكثر مراحل النزاع القائم بينهم، وهل أدل على ذلك من انتصارهم

(١) تاريخ الأزهر ص ٢٥ — ٢٨، وقد أشار إليها جرجى زيدان في تاريخ آداب اللغة ج ٤ ص ٣٢.

(٢) وصلتني تجارب الملازم الثلاثة السابقة وأنا بالمستشفى تفضل بتصحيح هذه التجارب صديقى الأستاذ جمال الدين الشيبانى وتلميذتى الآمنة صفية الصحن فلما الشكر الجزيل

على العلماء في أقوى حصونهم وأمنع قلاعهم . في الأزهر . لقد تولى مشيخته بعض من كانوا علماء ومتصوفة معا كالشبراوى + ١١٧١ هـ والعروسي + ١٣٠٨ هـ والحفناوى + ١١٨١ هـ ، فكان لذلك دلالة ومغزاه .

كان هؤلاء الأدعياء - على ما عرفنا - منقسمين إلى معسكرين ، لم يتورع أحدهما عن الدعوة للجهالة جهارا ، ولم يستع ثانيهما من الاتفاق مع الأول في الجهر باحتقار العلوم الشائعة والدعوة إلى العلم لللدني وحده ، واتفق المعسكران كذلك على تحريم التأويل واحتقار التفكير وإيثار الظاهر على الباطن - لغير أولياء الله - ولا شك أن هذه الدعوة كانت ذات أثر كبير في ركود الحياة العقلية عند المصريين في العصر العثماني ، فتعاون الفقهاء مع أرباب الطريق على إذاعة الدعوة الخطرة وقد ورثتها الأجيال التي أعقبتهم ، فما نزال إلى اليوم نرى الذين يحرمون تأويل الآيات والأحاديث ويتهمون بالزندقة كل من أقدم على ذلك ولو كان من كبار حملة الشريعة ، وقد قاسى الشيخ محمد عبده وغيره من أساطين الدين كثيرا من جراء ذلك .

لا نريد أن نبالغ فنقول إن أرباب الطريق كانوا مبعث الركود الذي شمل العقل وطغى على العلم في العصر العثماني ، فإن الشلل العقلي كان قد أصاب العالم الإسلامي كله منذ عام ١٢٠٠ للبلاد حين انتصر حزب السنة وقضى بتعصبه على حرية العقل وعمل جادا على خنق الحرية الفكرية كما يقول الأستاذ نيكلسون في الفصل الأخير من كتابه « تاريخ الأدب عند العرب » (١) ولو أن الحياة العقلية في مصر كانت ناضجة ما استطاع هؤلاء الأدعياء العيش في رحابها والتنفس من نسيمها ، على أن ذلك لا يمنع من القول بأن المتصوفة قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة ، وعملوا على تقويته بتعاليمهم المريضة ، فساهموا بنصيب وافر في الانحلال الذي أصاب العقل المصرى إبان العصر

العثماني . ولاسيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامي كله أيام
سلاطين المماليك .

فإذا تركنا أثرهم في الحياتين العلمية والعقلية وتبعناه في الحياة الاجتماعية ،
عرفنا أنهم في الأغلب والأعم قد صوروا الدنيا في صورة جسر يعبر عليه
الانسان إلى أخراه — إلى المقام الأبدى والدار الباقية — والعاقل من استغل
وجوده بها ووقف حياته على التزام الطاعات ومواصلة العبادة والاخلاص
في الذكر حتى تفنى بشريته وتتصل نفسه بحضرة الله وتنعم في رحابها بما لم
ينعم به لإنسان ، وتستمد من معينها شتى الطبات التي لا يظفر بها إنس ولا
جان ، فأدى بهم هذا التصوير القبيح للدنيا وقيمتها إلى القول بالغاء الملكية
واحترام البطالة وإباحة التسول وتحقير ما تنطوى عليه الحياة من لذات
وإغراء الناس بتكلف الحزن واصطناع الضيق . والسعى إلى مواطن الذل
والاغتباط بالهوان والاطمئنان للمستقبل الغامض والقناعة بالتافه من شئون
العيش والاستمانة بالمادة والاستهتار بالمال والاكتفاء برحمة السماء .. ألغوا
الملكية اعتمادا على أن الله وحده مالك الدنيا والآخرة وصاحب السموات
والأراضين ، هو الباقي وسائر العباد قد وجدوا في الدنيا ليتأهبوا للآخرى
ويستعدوا لاستقبال أهوالها .. واحصروا سعادة الدارين في العبادة والذكر
فاتتهى بهم ذلك إلى تحقير مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم ،
فكان من أثر ذلك أن هان في نظرهم السعى في الدنيا لاكتساب المال والكبد
في ميادين العمل من أجل الربح للظفر من لذات الحياة بأوفى نصيب ، وساروا
في تصورهم إلى نهايته فأباحوا التسول بعد أن استهجنوا السعى وقبحوا
العمل ، قائمين إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين
ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان التسول
مباحا محبوبا فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تنطوى عليه من لذات ،

والإنسان فيها يشبه المريض الذى حانت ساعته ، فكما أن المريض لا يفكر فى هذه الساعة إلا فى الحساب العسير الذى ينتظره ، فكذلك العاقل فى دنياه لا يفكر فى تعليم نفسه أو تحسين معيشتة وترقية مستوى حياته لأن ذلك انصراف لآتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة ، والإنسان الذى يعرف مكاتته وصلته هو الذى لا يبيت على دينار أبدا ، وحسبه من دنياه التوكل على الله ، وما أخيب التاجر الذى يصرف وقته فى تجارته والزارع الذى ينفق جهده فى زراعته ، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته ، وما أفضل من سافر منهم طلبا لكسب أو رغبة فى مال فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر ، والمرزوق فى طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ، وصير فى القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسد عنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذى يحتاجون ، والاخلاص فى العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلا فقيرا ضعيفا ويخرج منها عالما واسع العلم ، ثريا طائل الثراء ، قويا موفور القوة . . . ! فحسب الإنسان من حياته العبادة ، والعبادة من مستلزماتها التى لا تستقيم بغيرها الإسراف فى التواضع حتى تهون على الإنسان كرامته ، وتسقط فى عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التمرغ تحت أقدام الناس والرضا بظلم الظالمين وبغنى المعتدين ، والاعتباط بالذل والهوان ، فإن احتمل الظالم رضاء بقضاء الله وعقابه للظلم على سوء ما قدمت يدها ، ولماذا يثور المظلوم فى وجه ظالم ؟ لماذا الخسومة والإنسان لا يملك فى دنياه كثيرا ولا قليلا . . . ؟ ثم إن الظالم لا يقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو فى غفلة عن ربه ، ولو أنه كان فى يقظه لعرف أن الله يراه ، وأنه يظلم أحد عباد الله ، ولو عرف ذلك لاستحى من ظلمه وكف عنه آسفا ، ومثل هذا أحوج إلى عطف المظلوم ومرثاته منه

إلى سخطه وغضبه (١) .

بهذه العين الكليّة نظروا إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم ملايين المخلوقات ، وحولوا الحياة إلى موت تتخلله الحركة ويشوبه الكلام ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم غير الضعفاء والجنباء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطى الهمة ، وكانوا يستغلون نفوذهم عند الناس وينفثون في المتصلين بهم هذه التعاليم المريضة ، وتلقى المصريون عنهم هذه الآراء كما يتلقى المؤمن المخلص عقائده الدينية فلا يتردد في اعتناقها ولا يبطل في العمل بها ، فإن ألحت على المصري حياته بالحيدة عن بعض هذه التعاليم حاد عنها أسفا على عجزه عن التزام العمل بها ، وكان هذا الأسف كفيلا بأن يشيع الفتور في عزمته ، وكذلك كان أصحاب الحرف الذين أقاموا على أعمالهم رغم اتصاّهم بشيوخ الطريق ، بل لعلمهم كانوا متأثرين في ذلك بدعوة بعض هؤلاء الشيوخ لاحترام العمل والتنفير من البطالة .

على أساس هذه التعاليم التي أسلفنا الآن إجمالها قامت الحياة الخلقية والعملية والسياسية في مصر ، خف ألوف الدراويش إلى الزوايا عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويقنطون من ورائها ، ويشبههم في هذا ألوف الدراويش الذين كانوا يتجولون في الشوارع والطرقات ويفهمون الدنيا هذا الفهم المريض الذي لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصبا ، وألوف غيرهم يحترفون العمل — ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد في تفاهته ، والاحتقار لثمرته ، وإيمان بأن القناعة بالتافه من شئون العيش ثروة ليس بعدها ثروة ، ولا شك أن هذا كله قد ساهم بأوفر نصيب في ركود الحياة العملية إبان العصر

(١) اقرأ تفصيل هذه الآراء في كتابنا عن الشعراني في بيان موقفه من الحياة السياسية والعملية والخلقية وهي فصول تعبر عن روح العصر كله ولهذا آثرنا أن نهمل تفصيل هذه الآراء اعتمادا على أن ما كتبناه بصرفها في كتابنا عن الشعراني فيه الكفاية .

العثماني ، فقد كان الذي يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، فكان هذا إجماعاً ذا أثر قوى في الركود الذي شمل العصر كله . . .
فاذا تخطينا الزمان وقلمسنا أثر التصوف في حياة الريفيين الحاليين ومن هو في حكمهم من أهل العصر الحاضر من تخلفوا عن الزمن الماضي فأخذوا عنه عقولهم واستعاروا منه نفوسهم وعاشوا بها بين ظهرائنا ، وجدنا أنهم لا يزالون يعيشون في الدنيا كما يعيش الحيوان الأعجم ، يقنعون ما وجدوا اللقمة التي تسد الرمق ، والرقعة التي تستر العورة ، تهمدهم على الحاكم - بالغا ما بلغت قسوته بهم - لا يتجاوز اغتيابه وتركه إلى الله العادل المنتقم الجبار . . .
وسوادم الأعظم على اعتقاد بان الشعوب لا يصيبها ظلم ولا يدركها ضنك إلا كان من غضب الله على كثرة ذنوبها وتعدد آثامها . . . فهو تعالى يعاقبها بهذا الذي تقاسيه في حياتها من مظالم وفضائح . . . أجل لا يزال في الريف من يرون أن ثماحن زعماء السياسة في يومنا الحاضر مظهر من مظاهر غضب الله على المصريين الذين استهانوا بالدين فأهملوا القيام بفروضه . . . وتمردوا على نواحيه ومساهماتهم في الثورة المصرية عام ١٩١٩ لم تكن عن إيمان بضرورتها واعتقاد بحكمة القيام بها - بل كانت عن إجماع قوى أو تقليد لبعض المستنيرين الذين زایلهم التأثير بتعاليم الصوفية في هذا الصدد . . . فهي ثورة ولدتها غريزة التقاليد وحدها . . . (وإن جاز أن يقال إن هذا هذا كان أثراً من آثار الركود والجهل الذي سبق العصر العثماني ، وجب أن يقال إن تصوف هذا العصر قد قواه ومناه) .

والقناعة عند الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف مرض قد استشرى داؤه واستفحل أمره ووجب العمل على علاجه ، فإن الزمن قد تطور بالناس حتى أصبح التكالب على المادة والضرب في زحمة الحياة لا اكتساب المال والظفر بالثراء مفخرة لصاحبه ، تعلی بين الناس قدره وترفع في عيونهم مكائده ، ولا يزال أهل الريف في مصر ومن في حكمهم يعتقدون أن القناعة كنز لا يفنى ، وأن الزهد في طلب الدنيا من مفاخر أصحابه ، والتجار في الريف

والأحياء الوطنية بالمدن يقيمون في حى من الأحياء ويفتحون متجرًا يضعون فيه أصنافًا معروفة يتجرون بها ، وكثيرا ما تنصرم حياتهم الطويلة دون أن يفكروا في تغيير الحى أو المحل أو زيادة الأصناف التى يتجرون بها، ولا يزال باعة الكتب فى الحى الحسينى بالقاهرة - لا ييكرن فى فتح مكاتبهم ويهتمون باغلاقها قبل غروب الشمس ، ولعل ذلك أثر من آثار التعاليم الصوفية التى أعلنها الغزالي وأتباعه حين نصحوا التاجر بالآ يكون أول داخل إلى السوق ولا آخر خارج منه ، وكذلك نقول فى بقية الباعة بهذا الحى وغيره . وإن جاز أن يقال إن هذا من تقاليد الإسلام السابقة على تصوف العصر العثماني .

وقد تغلغلت هذه النظرة فى هذه البيئات وأثرت فى الجاهل منها والمتعلم ، وكان من أثرها البليغ فى المتعلمين من أهل الثقافة الصوفية القديمة ما نراه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلبته « الجغرافيا الاقتصادية ، منذ بضعة أعوام فيقول لهم فى مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم (المصريون) لعبادة الله . . . فهذا الشيخ - عفى الله عنه - يعتبر من نعم الله على المصريين قيام الأجانب عنهم بالشئون المالية فى بلدهم واستحوادهم على شركات المياه والنور والمواصلات ومختلف مرافق الحياة الاقتصادية ، وذلك لكى ينقطع المصريون لعبادة الله فى عصر بلغت فيه زحمة الحياة والتكالب حدهما الأقصى . . . ولست أدري ماذا تكون لعنة الله ونقمة من الشعوب اذا كانت سيطرة الأجنبي على مرافق الحياة الاقتصادية فى عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمدا لآسان ربه من أجلها - الا اذا كان المراد أن يحمدا الله الذى لا يحمدا على مكروهه سواء . . .

والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير فى رد ظلم أو دفع بغي أو ثورة من أجل كرامة ، وقد انحدرت إليهم - فيما يرجح على الظن - نظرة صوفية العصر العثماني فتغيرت فى مظهرها أو تفاصيلها

ولسكنها بقيت في جوهرها كما كانت أيام العثمانيين (١) لأن تعاليم التصوف تنحدر إلى الناس مع التقاليد التي يرثونها جيلا بعد جيل .

حسبنا الآن هذا فقد طال الحديث ، حسبنا هذا لا لأن معين الكلام قد نضب ، فان في هذا الميدان متسعا للحديث المستفيض ، ولكن لأن الحديث كلما طال وجب الخوف من الشطط في التقدير والجموح في الاستنتاج ، ولنذكر ما قلناه في مستهل هذا الفصل ، من أن هذه المحاولة التي أقدمنا عليها تغرى بالخطأ وتعود إلى مهاوى الزلل ، فان الذكرى تنفع المؤمنين .

.. إن الحكم على الحياة الاجتماعية عند الشعوب وتعليل ظواهرها ليس أمرا هينا ميسورا ، فربما تبدو الظاهرة بسيطة تحمل تفسيرها لكل من وقف قليلا للتفكير في أمرها ، ومع ذلك فقد تكون معقدة إلى أقصى حدود التعقيد ، وتعليلها الصحيح قد يبلغ مكان الاستحالة عند هذا الباحث ، وأكثر الظواهر الاجتماعية -- إذا لم نقل كلها -- وليد علل كثيرة تتضافر على وجودها وتتعاون على إظهارها ، ولهذا كان رد الظواهر التي أسلفناها في حياة المصريين إلى التصوف وحده وجعله العلة الوحيدة في قيامها ، أمرا محفوفا بالخطر ، على أنا لا نملك بعد هذه الدراسة الآن نقول إنه كان أعظم العوامل أثرا في قيام هذه الظواهر ..

ولكن لماذا نسينا الدين .. ؟ ألم يكن للإسلام نصيبه في توجيه الحياة المصرية إلى هذا الاتجاه الذي عرضناه ؟ ذلك ما ينبغي أن نطيل الحديث فيه ، فان الحياة المصرية كانت إبان العصر العثماني مسوقة بالحضارة الدينية وحدها ، وأريد بها تعاليم الدين وما نسب إليه من آراء ، ولم تساهم في هذا التوجيه المدنية الغربية ولا غيرها من المدينيات ، فقد كانت مصر على ما عرفنا في عزلة إلا عن العالم الإسلامي ، وكان هذا العالم قد أدركه الاضمحلال

(١) تفصيل هذا في الفصل الذي عدناه على الحياة الخافية في كتابنا عن العفران .

وطبع حضارته في شتى شعوبه ودوله بطابع واحد، فلم تنفع رحلات العلماء وأرباب الطريق التي انتشرت في هذا العصر كثيرا، إذ أنعشت الحياة في دوائرها الضيقة، ولم تخرجها من نطاقها أو تعدل من ظواهرها وتعمل على توجيهها إلى اتجاه جديد.. والآن إلى الإسلام نشرح موقفه من مختلف مظاهر الحياة الدنيوية :

موقف الإسلام من هذا التوجيه

تتناول الآن نظرة الإسلام إلى الحياة في شتى النواحي التي فصلنا الحديث فيها، لنعرف أن الدين يرى من أكثر هذه الدعاوى التي بشروا بها وطالبوا الناس بالتزامها، فكان من أثر ذلك، هذا الركود الذي شمل الحياة المصرية واستبد بأهلها هذا الزمان الطويل .

الإسلام والحياة العلمية عند الله :

دعا الإسلام إلى نصب المعلم الذي يقوم بتعليم الناس وإقامة المؤدب الذي يهذب نفوسهم^(١)، فكان في ذلك احترام للعلم، قال رسول الله من قال ان للعلم غاية فقد بحسه حقه ووضع في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث يقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقد قال تعالى « انظروا ما في السموات والأرض، وبكت المقصرين في النظر فقال « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، وأنذر الذين عميت عيونهم عن تدبير بدائع الكون فقال « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » وقال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ومن الأحاديث النبوية التي تنطق بتقدير العلم والدعوة

(١) جمال الدين الأفغاني : الإسلام والرد على متقديه ص ٨٩

له : أفضل العبادة طلب العلم - من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم - الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا عالماً أو متعلماً - لا خير في العيش الا لعالم ناطق أو لسامع واع - وهل تنفع القرآن الا بالعلم - طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة - اطلب العلم من المهد الى اللحد - ... وقد نادى الاسلام بحرية العلم فلم يحصره في بلد من بلاد الارض ولا في طائفة من بني الانسان ، وأمر أهله باصطياد شوارده حيثما كانت وأنى وجدت فقال النبي : اطلب العلم ولو بالعين - الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها - خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت ... الى غير ذلك (١) .

وتاريخ العلم يقول إن الخلفاء قد أحاطوا بعظمهم العلماء من كل ملة وقد فصل ذلك الأستاذ محمد عبده وأيده بسرد أسماء طائفة من رجال العلم الذين صادفوا في رحاب الخلفاء عطفاً ورعاية (٢) وما كان ذلك الا لأن العقل العربي منذ انطلاقة من قيود الوثنية ودخوله في التوحيد المحمدي قد أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع كما يقول الأستاذ الامام (٣) بل إن العلوم العصرية والحقائق الفلسفية تزيد الدين تمكيناً وتضاعف ايمان أهله به كما يقول فريد وجدى (٤) .

وقد سار بعض العلماء في هذا الظن الى نهايته ، فقالوا ليس من قاعدة دلت عليها التجارب ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر وكان لها أثر في ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الا وكانت صدى آية قرآنية أو حديث نبوى

(١) محمد فريد وجدى : المدنية والاسلام من ص ٦٦ - ٦٩ وغيرها من صفحات الكتاب .

(٢) الاسلام والنصرانية من ص ٩ - ١٧

(٣) الاسلام والنصرانية ص ٨٣

(٤) المدنية والاسلام ص ٦

كما أوضح هذا الكواكبي^(١) وفريد وجدي^(٢) ومصطفى الفلايبي^(٣) وبذلك أحالوا القرآن الى كتاب جغرافيا وتاريخ . كما يقول عبد العزيز جاويش^(٤) وعرضوا نصوص الدين الى اضطراب العلم وتناقضه كما يقول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين^(٥) .

على أن العلماء كانوا على اتفاق في أن الاسلام ينفر من الجهل ويدعو الى العلم ، وما عادى المسلمون العلم ولا العلم غاداهم ، إلا من يوم المحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل ، وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية توسعوا في العلوم الكونية وضرروا الزمان بسوط من العزة ، كما يقول محمد عبده^(٦) وقد كانت العلوم الحديثة زاهرة إبان مجد الاسلام ولم يرم المسلمون من قرأها بزيف العقيدة ولا من استمع اليها بالضلالة والكفر ومن كان في شك من ذلك فما عليه الا أن يلقي نظرة على تاريخ القرون الأولى في الاسلام ومحافظتها على الدين مشهورة فسيرى أن جيدها كان مزدانا بكثير من فحول العلماء الذين نبغوا في العلوم الرياضية والعقلية والطبيعية ووضعوا فيها المؤلفات العظيمة وبثوا فيها التعاليم المفيدة ونشروها في أطراف الأرض قاطبة كما يقول مصطفى بك بيرم مؤيدا لكلامه بالأمثال^(٧) وما ركزت ربيع العلوم التي اخترعها المسلمون وبلغت التسعين بعد المائة كما يروى كشف الظنون الا بعد أن صارت السلطة في يد الأعاجم من التتار والمغول الذين عرفوا أن انتشار العلم يعوق مطامعهم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٣

(٢) المدنية والاسلام ص ٤٠

(٣) الاسلام روح المدنية ص ١٩ - ٢٣

(٤) الاسلام دين الفطرة ص ٣٨ - ٣٩

(٥) من بييد ص ٥٠

(٦) الاسلام والنصرانية ص ١٥٩

(٧) تاريخ الأزهر ص ٢١ - ٢٢

في الاستبداد بالناس فافرغوا الوسع في إطفاء نوره وحصر الرعية في حالك
الجهالة كما يقول الكواكبي (١) ومصطفى بيرم (٢) .

تلك آراء فئة من المحدثين من علماء الاسلام في نظرة الدين إلى الحياة العلمية
بسطناهما مؤيدة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال التاريخية ، فأين
هذا من حملات أرباب الطريق على العلوم المعروفة في عصرهم علما علما ، وعدم
تورعهم عن المفاخرة بالجهالة والسخرية حتى من العلم بأحكام الدين ، وغير
ذلك مما فصلنا الحديث عنه من قبل .

والآن إلى موقف الاسلام من العقل عند أهله .

الاسلام والحياة العقلية عند أهله :

يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين إن الاسلام قد سلك في دعوته الى
الايان بالله وصفاته من علم وقدره ووحدانية مسلكا يثير العقل ، وهو
الدعوة الى النظر الى ما في العالم من ظواهر ، « أو لم ينظروا في ملكوت
السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، - فلينظر الانسان بما خلق ،
فانبتنا فيها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا
لكم ولأنعامكم ، - لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار وكل في فلك يسبحون » - « ان في خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى
جنبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا
سبحانك ، - ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٧ و ٤٣

(٢) تاريخ الأزهر ص ٢١ - ٢٢

وألوانكم، الى كثير من أمثال هذا — وهذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر وكان له أثر في نمو الحياة العقلية (١) وقد روى الأستاذ فريد وجدى عن النبي أحاديث نبوية منها : أن الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له — يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه . . . — وقد أثنى قوم على رجل عند النبي وبالغوا في الثناء فقال : كيف عقل الرجل . . ؟ قالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتبناؤنا عن عقله ؟ فقال ان الأحقق يصيب بجله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم (٢) .

وقد قال جمال الدين الأفغانى إن من الأمور التي تتم بها سعادة الأمم أن تبني العقائد على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتخاض العقول مطالعة الظنون في عقائدها وترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء وذلك مادعاليه الدين (٣) ومن دلائل هذه الدعوة ما نراه في أصول الاسلام التي ذكرها محمد عبده وعبد العزيز جاويز والتي كان أخطرها شأننا اعتبار النظر العقلي وسيلة لتحصيل الإيمان (٤) فكان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام قائما على ما أباحه لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه وعبروه بالأحكام العامة التي قررها الشرع (٥) وقد جعل الله لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ومن اجتهد فأصاب أجرين كما يقول الأستاذ جاويز ، ولقد يسرنا ، سهلنا — القرآن للذكر — للتذكير — فهل من مذكر — أى هل من طالب علم منه ومتفهم له . . ؟ وقد قبح الدين تقليد الآباء ومحاكاة الأجداد كما ذهب محمد عبده (٦)

(١) فجر الاسلام ص ١٦٩ — ١٧٠

(٢) المدنية والاسلام ص ٦٤ — ٦٥

(٣) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٣

(٦) الاسلام والرد على منتقديه ص ٥ ، الاسلام والنصرانية ص ١٢٦

وعبد العزيز جاويز (١) وجمال الدين الأفغاني (٢) وغيرهم ، وقد ألبس القرآن الجامدين عار الجود ، ومنهم أميون لا يعلمون السكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ، - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، (٣) .

ومن أصول الاسلام التي كان لها أكبر الأثر في نشاط الحياة العقلية ، تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض كما يقول محمد عبده (٤) وعبد العزيز جاويز (٥) ثم عدم التقيد بما قاله رسول الله من معاش الدنيا على سبيل الرأى (٦) وما كان ذلك بغريب فان الدين هو الذى ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسبح به في شعاب الأرض ويصعد به إلى طبقات السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف له سرا من أسراره في خليقته أو يبسط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع العلوم مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع ما تريد ، فلما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ريجحه ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدرج (٧) وقد سلب الاسلام من رجال الدين كل مظاهر السلطان الذى يحد من طلاقة العقل ويقيد من سعة النظر ولم يخصهم بتأويل نصوص ولا غيره بما يؤدي إلى ركود الحياة العقلية عند الناس كما يقول محمد عبده (٨) والسكواكي (٩)

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٥٤ ، ١٠٥

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٣) » » » » ص ٩٦

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٦) نفس المصدر والصفحة

(٧) الاسلام والنصرانية ص ١١١٨

(٨) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ و ٩٥ ، الاسلام والنصرانية ص ٢٠ و ٦١ و ٦٣

(٩) طبائع الاستبداد ص ٢٩

وعبد العزيز جاويز^(١) ومصطفى بيرم^(٢) وغيرهم ، حتى الرسول ، لا ينبغي التقيد بما قال في شئون الدنيا إذا كان من رأيه ، ففي الحديث « . . . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر ، وذلك لأن وظيفة الرسل قائمة على إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة والعدل والأخلاق الفاضلة^(٣) ولهذا ترى القرآن يصرح في وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين وجعل السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل لللاحق من علم بالأحوال الماضية واستعداد للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ،^(٤) في الحق ليس في طبيعة الإسلام ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأي ، ولك أن تقرأ القرآن وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث فلن تجد نصا أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلا أو كثيرا — كما يقول أستاذنا الكبير طه حسين^(٥) .

تلك طبيعة الإسلام وهذه هي نظرتة إلى تربية العقل وتنمية المدارك ، فأين هذا بالله من حملات أرباب الطريق على التفكير وتحريمهم التأويل ومهاجمتهم النظر في ظواهر الأرض والسماء وتبشيرهم بقداسة الآباء والأجداد ودعواهم بأن عام ٩٢٣ هـ (بداية الفتح العثماني) كان نهاية العلم والنظر واعتبار الفلاح في الطريق غاية لا يبلغها المرید مالم يتحول إلى أداة مسخرة في يد شيخه . إلى غير ذلك مما أسهبنا إيانه فيما سبق . والآن إلى موقف الاسلام من مقاومة الظلمة من الحكام والدعوة الى التزود بأخلاق الأقوياء والتبشير

(١) الاسلام دين الفطرة ص ١٠٥

(٢) تاريخ الأزهر ص ٥٦ — ٥٧

(٣) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٤) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ (٥) من بعد ص ٢٢٢

بالكد في ميادين العمل المشروع ، لنرى الهوة السحيقة بين تعاليم وآراء هؤلاء الأدياء .

الاسلام والحياة العملية

سارت الدعوة إلى الدنيا مع الدعوة إلى الأخرى جنباً إلى جنب في الكتاب والسنة ، قال تعالى : وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل بكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن النبي أنه قال : أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ولاخرتك كأنك تموت غداً - وفي حديث ثان : ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه - وفي حديث ثالث : أصلحوا دنياكم وأعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً - وغير ذلك مما رواه الأستاذ فريد وجدى (١) وقد ذهب الأستاذ محمد عبده إلى أن من أصول الاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فان النبي لم يقل : بع ماملكك واتبعني - بل قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله . (الثلث والثلث كثير انك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفرون الناس) . فالحياة في الاسلام مقدمة على الدين ولهذا جوز الاسلام للمؤمنين ترك الصيام إذا خيف منه المرض أو المشقة بل أوجب إهماله أن غلب على الظن الضرر فيه ، وكذلك أباح إهمال الوضوء والغسل إذا خشى الانسان منهما الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل المال ، كما أباح الصلاة قعوداً إذا أصابت المصلي مشقة من قيامه ، وكما جوز صلاة الجمعة في البيت إذا منع عن السعي إلى صلاة الجماعة في المسجد وحل غزير أو مطر كثير أو مشقة .. وهكذا نجد القاعدة في الاسلام : صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان وأباح الاسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتريات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود

(١) في كتابه المدية والاسلام

الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية قال تعالى « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ووضع الاسلام قانونا للاتفاق وحفظ المال في قوله « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، ونهى الدين عن الغلو في طلب الآخرة مخافة أن يهلك دنياه وينسى نفسه فذكرنا بأن الآخرة تنال مع التمتع بنعم الله في الحياة الدنيا فقال « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، وبذلك نرى أن الاسلام لم ينحس الحواس حقها كما هيأ الروح لبلوغ كمالها كما يقول محمد عبده (١) ، وقد قال عبدالعزيز جاويش أن الاسلام لا يلزم الناس بما ذكره الرسول من معاش الدنيا على سبيل الرأي (٢) وروى الشيخ الغلاييني أن « الامام مالك » يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص لأن الله إنما شرع لمنفعة العباد (٣) وقال الأستاذ الجليل أحمد بك أمين « إن الشارع — كما قالوا — يدور في تشريعه على حفظ أمور خمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال ولو استقرينا أوامر الشرع ونواهيه لوجدناها تعدى هذه الأمور ولو وفقنا في معرفة ما حله الشرع أو حرمه لوجدنا علته كذلك ... (٤) وبهذا كانت الدعوة للعمل فرضا يلزم به الاسلام عنق كل مسلم قادر عليه كما يقول محمد عبده (٥) وأضحى للكدر والعمل والمال نصيب موفور في رسالة الاسلام قال النبي : أفضل

(١) الاسلام والنصرانية ص ٧٤ — ٧٧

(٢) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٣) الاسلام روح المدنية ص ٣٩ — ٤٤

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧

(٥) رسالة التوحيد في « الدين الاسلامي »

الأعمال الكسب الحلال - طلب الحلال فريضة على كل مسلم - من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء - سيأتي على أمتي زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه - نعم المال الصالح للرجل الصالح - إن الله يعطي العبد على قدر همته ونهمته - من جد وجد ولكل مجتهد نصيب - سافروا تصحوا وتغنموا - التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم - وقال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة - ولقد كان الصحابة - والاسلام في إبان مجده - يتجرون في البر والبحر ويعملون في تخيلهم . . إلى آخر ما يرويه الأستاذ فريد وجدى في تأييد هذه الدعوى (١) .

هذا هو موقف الاسلام من الدنيا وهذه هي نظرته إلى العمل والكسب من أجلها والظفر منها بأوفى نصيب في حدود شريعته ، فأين هذا بالله من الصورة الهزيلة التي رسمها للدنيا أرباب الطريق ؟ أين هذا من الدعوة لترك الدنيا والزهد في نعيمها واحتقار لذاتها واصطناع الخوف وتكلف المتاعب والانقطاع للعبادة والتفرغ للتهجد والتبشير بالبطالة والعمى على إحسان الناس وإباحة التسول وإلغاء الملكية وكره المال والمفاخرة بدوام البعد عنه وسف التراب وضرب النفس بالسياط وقيام الليل وقضاء النهار كله في ادعاء العبادة وتحريم السفر على التاجر متى وجد اللقمة التي يسد بها رمقه والخزقة التي يستر بها عورته . . إلى غير ذلك مما أسلفنا يانه ؟ أين تعاليم الاسلام من هذه الآراء المريضة التي بشر بها هؤلاء الأذعياء باسم الدين . ؟ لقد انتبه الأستاذ الإمام إلى أن الدعوة للبطالة وفشو الكسل بين المسلمين كان من أثر الدعوة التي قام بها من فسد من المتصوفة (٢) - فكانت هذه ملاحظة قيمة لم يفتن إليها غيره من الكتاب الذين قرأنا لهم في هذا الصدد .

(١) في كتابه سالف الذكر

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٣٨

وقد صوروا الإسلام في صورة دعوة إلى الفضائل السلبية التي تصلح للعيش في جو كله دعة ورخاء وأمان ، وقبحوا الفضائل التي يتسم بها الأقوياء الراغبون في كفاح الحياة الصالحون لنضال البقاء ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما استطاع العرب في إبان مجده أن يشبوا هذه الوثبة الجريئة التي أخرجتهم من جزيرتهم وهيأت لهم في القليل من الزمن طريق السيادة على أعظم دولتين عرفهما التاريخ الوسيط هما الدولتان : البيزنطية والفارسية ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد اهتدى الفساد إليها فأثبتت الإسلام بذلك أنه دين الدنيا والآخرة معا ، وأنه دعوة جريئة إلى العمل والغزو والسيادة وليس دين الذلة والهوان الذي دعى إليه هؤلاء الدجالون حين قالوا إن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله والتمرد عليه تمرد على حكم الله لأن الظالم أداة الله في عقاب الناس . . إلى آخر هذا الهذر الذي عرفناه من قبل ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما قبل عمر أن يقول له اعرابي جلف : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . . ولما رأينا المستنيرين من أئمة الدين أول من يتمرّد على الظالمين من الحكام ويشيرون العشير في وجوه الطغاة والمستبدين ، وما عهد جمال الدين الأفغانى والسكواكبي ومحمد عبده والسيد توفيق البكرى عنا ببعيد ، بل لقد عرفنا في أواخر العصر العثماني من العلماء الذين يحسنون فهم دينهم ولا يتوانون عن الثورة على الحاكم متى قصر في أداء مهمته ، وكان من هؤلاء الدردير والحفناوى وابن النقيب وغيرهم . . .

ولقد كان وجه الخطر في دعوة هؤلاء الدجالين أنهم تواروا وراء الدين واستغلوا سداجة الناس وأدخلوا في وهمهم أن آراءهم صفة الدين وخلاصته ، فأمن الناس بهم وتلقوا عنهم هذه التعاليم عقائد لا يأتيتها الباطل في حكم أو رأى فكان لما بالغ الأثر في توجيه الحياة عندهم والانحدار بهم إلى هذا الاضمحلال الذي استغله المبشرون في الهجوم على الدين الاسلامى .
ومن هذا الذى أفضنا فى بيانه نستطيع أن نقرر بأن تعلق المصريين بالاسلام فى العصر العثماني لم يكن هو الذى انحدر بهم إلى هذا الركود الذى

استبد بهم وأفسد شتى نواحي حياتهم ، وإنما كان ذلك من أثر الدعوات الباطلة التي انطلقت في المصريين وكان للتصوفة فيها أعظم قسط وأوفر نصيب .

وإننا لنحمد للنهضة الحديثة تهيئتها الجو للكشف عن بطلان هذه المزاعم وتحذيرنا من الخطر الذي يهددنا من وراء هذه التعاليم المريضة ، ومعرفة الهوة السحيقة التي تفصل بينها وبين تعاليم الاسلام الصحيحة ، فانا في عصر لا يعرف الرحمة ولا يحترم إلا القوة والحديد والنار ، والشعوب تخطف كثيرا حين تقتصر على الاعتماد في جهادها على رحمة السماء فان السماء لا تحابي ضعيفا ولا قويا ، وإنما تترك الخلائق في صراعها ، والبقاء للأصلح والغلبة للأقوى ، وتواكل الشعوب لا ينجيها من زحمة النضال وسباق الحياة وإنما هو أبلغ حجة على استهانتها بمصيرها وتسليمها في وجودها وقبولها للهلاك عن جدارة واستحقاق

• • •

هذا هو موقف الإسلام من تعاليم المتصوفة ، ومنه نرى أن الاسلام لم يساهم في الانحدار بالحياة المصرية إلى هذا الاضمحلال ولم يشترك في توجيهها إلى هذا الركود الذي رأيناه .

ومن الخير أن نقول الآن إن الشعوب في تطورها إلى النضج والكمال وانحدارها إلى الركود والاضمحلال لا تخضع لعامل واحد وإنما تسير - فيما يلوح من تاريخ التطور - مسوقة بعدة تيارات وحركات لكل منها نصيبه في هذا التوجيه ، ومثل هذه الدراسات شاق على أهله ، فليس في وسع الباحث أن يحدد تحديدا رياضيا مدى ما كان للتصوف من أثر في توجيه الحياة المصرية ، لأن ذلك لا يقاس بمقياس ولا يكال بمكيال ولا يوزن بميزان ، ولهذا كان الكلام فيه - بالغاما بلغت قوته - عرضة للعجز عن مقاومة معاول الهدم إن سعت إلى هدمه وانجهدت إلى تحطيمه . . .

كلمة خاطفة عمر :

مصادر الكتاب *

التصوف في هذا العصر موضوع بكر لم يتعرض لدراسته أحد الباحثين من قبل ، وقد تساوى في إهماله المستشرقون والشرقيون — قدماء ومحدثون ، ولهذا قلت استعانتى بالمستشرقين فيما سلف من فصول الكتاب، وان لم ينعنى انصرفهم عن الموضوع الذى أدرسه من قراءة الكثير من أبحاثهم التى تناولت التصوف فى الإسلام ، فاطلعت على الكثير مما كتبه نيكلسون وماكدونالد وماسينيون وكوبولانى ولين وفولارز وكارادى فو وغيرهم ، كما عنيت بقراءة الكتب التى وضعها الشرقيون عن التصوف عامة فى غير العصر الذى أدرسه رغبة فى العلم بالتصوف عامة والافادة من ذلك فى تصور الموضوع الذى أدرسه وفهمه على أكمل وجه مستطاع .

أما المحدثون من الشرقيين الذين عرضوا للكتابة عن بعض نواحي التصوف فى هذا العصر فقد كانوا على قنهم يستعينون بمصادر فى وسعى الرجوع اليها لأنها ما زالت تحت تصرف الباحث وفى متناول يده ، فاعتمادى على كتاباتهم لا يبرره البحث العملى الصحيح ولا سيما اذا عرفنا أنهم يخطئون النقل والفهم والاستنتاج كما وضع لنا من كتابات جرجى زيدان وتوفيق البكرى ، وهذا فوق أنهم كانوا فى الجملة لا يتناولون ناحية فى التصوف بالدراسة المفصلة أو الموجزة ولكنهم كانوا يعرضون لأفكار تتصل به فيصدرون أحكاما سطحية لا يبررها الواقع ولا ترضى عنها الدراسة العلمية المنظمة .

وعلى هذا فالباحث فى موضوع التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى مضطر إلى الرجوع للمصادر الأولى - أى التى كتبها أهل العصر العثمانى وعالجوا

* من المفيد جدا الاطلاع على ما كتبناه عن المصادر فى كتابنا «الشعرانى إمام التصوف فى عصره ص ١٥٥ وما بعدها لمعرفة أخطاء المستشرقين وفهارس دور الكتب بصددنا

فيها شئونهم بالطريقة التي بدت لهم ، وقد كانت طريقتهم في ذلك لا تخرج كثيرا ولا قليلا عن طريقة الفقهاء والكتاب من الشرقيين في هذا العصر وما قبله ، وشر ما فيها سرد المعلومات التي لا تؤلف بينها وحدة في الفكر ولا تلازمها دقة في البحث وان كانت تمد القارىء بمادة قيمة وزاد دسم .

ولقد شاع بين الناشرين والمهتمين بالعلم من أهل الأجيال التي أعقبت العصر العثماني أن مصر قد أصابها في هذا العهد اضمحلال شاع في كيانها وتغلغل في شتى نواحي حياتها وشوه العلم في رؤوس أهلها ، فأدى هذا الى انصراف أهل العلم عن نشر المؤلفات التي كتبت في هذا العصر مؤثرين الاهتمام بنشر الكتب التي وضعت في العصور السابقة حين كانت الحياة أدنى إلى الازدهار والحالة العلمية أقرب إلى النضج والنشاط ، وما علموا أنهم بذلك يريدون العصر ظلما .

فأما الكتب التي صادقتها العناية ووجدت من يقوم بطبعتها فقد خرجت من المطابع حافلة بالأخطاء التي دلت على جهل الناشرين وكشفت عن مقصدهم من وراء طبعتها ، ولم يكن شيئا آخر الا الريب - وقد حملني هذا على ترك الكثير من هذه الكتب المطبوعة والرجوع إلى أصلها المخطوط رغم ما في ذلك من مشقة تبدو في رداءة الخط وصعوبة الاطلاع على المخطوطات داخل الدار . فاما المصنفات التي بقيت مخطوطة فقد حفظتها لنا دار الكتب المصرية إلى يومنا الحاضر والكثير منها بخط أصحابها ولكن بقاءها إلى اليوم لا يبرر الاعتماد عليها من غير حذر ، فان الدقة كانت تعوز مؤلفيها في كل فكرة تناولوها على وجه التقريب ومعرفة هذا ضرورة لمعرفة العصر على حقيقته . على أن ذلك لا يحفظ من دار الكتب لأنها غير مستولة عن أوزار غيرها وحسبها أنها قامت على حراسة هذه المخطوطات طوال هذه الأجيال ، ولشد ما يتولاني الروع ويشيع في كيانى الجزع كلما تصورت ضررا حاق بهذه الدار وأتى على ما فيها من مخطوطات - لا قدر الله - وإني لأرجو أن يكون هذا البحث المتواضع كفيلا بتوجيه نظر الناشرين إلى قيمة هذه المخطوطات التي حوتها الدار

على أن الدار لم تقم بواجبها ازاء هذا العلم الذي تضمنه بين جدرانها ، ومن دلالات تقصيرها الذي تحمل وحدها تبعته ، ما نراه في نسخ الكتب ، فقد كلفت الناسخين بالإكثار من نسخ بعض المخطوطات ولكنها لم تشتط فيهم أن يكونوا على علم يمكنهم من أداء هذه المهمة بشيء من الدقة والمهارة ، فجاءت الكتب التي نسخوها نموذجاً لرداءة الخط وقبح الأخطاء .

وفهارس الدار في حاجة إلى نظام جديد يكفل للباحثين سهولة البحث ويخفف عنهم بعض مشقاته وذلك فوق أن الفهارس الحاضرة مليئة بالأخطاء . والكتاب الواحد له فيها أسماء قد تبلغ الخمسة ، وسبيل البحث فيها ملتو يستغرق الكثير من الوقت ولا يضمن العثور على المطلوب ، وقد وجدت في أثناء بحثي في هذه الفهارس وإعداد ثبت بعدد النسخ الموجودة لكل كتاب ، أن الكتاب الواحد قد تكون له نسخ في فهرس للتصوف ونسخ أخرى ذكرت أرقامها في فهرس ثان وثالث وبذلك لا يسهل على الباحث أن يعرف جميع نسخ الكتاب الواحد الا إذا تصفح فهرس الدار كلها ! .

على أن الدار مع هذا النقص كله تسد حاجة الباحث وتشبع نيته متى أوتي الصبر واحتمال المشقات وكان يحته منصباً على دراسات إسلامية - وقد كتبت عن التصوف في هذا العصر الحالك في ظلامه دون أن تصادفت فيه حلقة مفقودة فقد وجدت فتراته كلها من يؤرخها ويسهب في بيان الحياة فيها وإن كانت عصور الاضمحلال تجري في شتى مراحلها على نمط واحد ، والتمايز فيها ضعيف لا يكاد يحس وقد لاحظت أن كتاب هذا العصر في كل مرحله كانوا يستقون علمهم عن الشعراني أو يرجعون اليه ويأخذون عنه كثيراً في كتبهم وان كان أكثرهم لا يشير الى ذلك .

ورغم هذا فقد اغتبطت بتعدد المصادر في فترات العصر كلها اذ كان بعضها يمتاز بمادة لا تتوافر في غيره وكان العلم بها ضرورياً في الكشف عن بعض آفاق المجهول من هذا العصر ، ففي كتاب (تحفة السالكين ودلالة السائرين للسمنودي) مثلاً أجزاء كاملة مسروقة من كتاب لواقع الأنوار

القدسية في بيان قواعد الصوفية للشعراني ، ورغم هذه السرقة التي لم يشر اليها السمنود في كتابه فقد زود القارىء ببيانات عن حياة الفقراء في رحاب الزوايا وغير ذلك لم أعثر عليه في كتاب آخر للشعراني أو غيره .

ورحلة النايلسى (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) تضمنت معلومات عن الزوايا والأضرحة وغيرها تعوز المصادر الأخرى التي اطلعت عليها — فتعدد المصادر حتى في عصور الاضمحلال — التي من شأنها أن تسير على نمط واحد ولا يكون بين مراحلها تمايز — خير عظيم ينبغي أن يعتبط له الباحث ويسر به .

وحسبي الآن أن أقول في الدلالة على وفرة المصادر في العصر كله ، أن الفترة التي سبقت العصر العثماني في مصر رجعت فيها الى المقرئى والقلقشندي وبعض المختصين من كالشعراني وابن إياس وأما القرن الأول من العصر العثماني (العاشر الهجرى) فقد أوضح جوانب الحياة فيه الشعراني بمؤلفاته المتعددة وابن إياس وصاحب الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة (٣ أجزاء) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر والسنا الباهر بتكميل النور السافر ورسائل السيد محمد البكرى وغير ذلك كثير .

فأما القرن الحادى عشر الهجرى فقد كتب فيه عبد الرؤوف المناوى مصنفات كثيرة خيرها طبقاته الكبرى والصغرى ثم عبد الغنى النايلسى الذى زار مصر عام ١١١٠ وتترك لنا رحلته القيمة من بعض الوجوه والمحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأجزائه الأربعة وغير هؤلاء كثير .
فأما القرن الثانى عشر فحسبه الجبرقى والحفناوى والبيومى ومصطفى البكرى والمليجى والمرادى (صاحب سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر) وغيرهم كثيرون

على أن الظاهرة التي سادت مؤلفى هذا العصر وشاعت في مختلف كتبهم وشق مصنفاتهم هي السذاجة ، وقد كان روح العصر يبرر وجودها ، وليس أدل على ذلك من أن تكون كتب المناقب خير زاد للطاعنين في أهل هذه المناقب بل لانظن ظاهرة أدل على هذه السذاجة من العجز عن تحليل أبسط الظواهر وأتفهها — وقدم بنا الكثير من الأمثلة التي تشهد بهذا في مختلف فصول الكتاب

كتب المؤلف

١ - تأليفاً :

- ١ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني : نشرته مكتبة الآداب في أغسطس ١٩٤٦ .
- ٢ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام : صدر في سلسلة الجمعية الفلسفية في أكتوبر ١٩٤٥ .
- ٣ - الاسلام (بحث مقارنة) : نشرته مكتبة الآداب في سبتمبر ١٩٤٥ .
- ٤ - الشعرا في إمام التصوف في عصره : صدر في سلسلة أعلام الاسلام في أغسطس ١٩٤٥ .
- ٥ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة : نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في نوفمبر ١٩٣٦ ، وأعدت مكتبة الآداب طبعة في فبراير ١٩٤٦ .
- ٦ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : تحت الطبع
- ب - ترجمة :
- ٧ - تراث الاسلام : نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في أكتوبر ١٩٣٦ (المؤلف فيه ترجمة الجزء الذى وضعه ا . جيوم عن الفلسفة والاهليات - مع التعليق عليه) .
- ٨ - علم الغيب في العالم القديم : وضعه شيمرون ونشرت ترجمته العربية مكتبة الآداب في فبراير ١٩٤٦ .
- ٩ - تاريخ علم الأخلاق : وضعه سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة كامبردج وسيظهر في جزءين بعد .